



ربيع جابر

# دروز بلغراد حكاية حنا يعقوب

رواية

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^RAYAHEEN^

# ربيع جابر

## دروز بلغراد

### حكاية حنا يعقوب

علي قضى في كمين خارج دير القمر. بهاء الدين جرحت السيوف في وقعة زحلة ولفظ أنفاسه بجوار قلعة حاصبيا. بقي للشيخ غفار خمسة أبناء وهؤلاء محابيس عند اسماعيل باشا الهنغاري يتظرون مع ٥٥٠ درزياً السفن التي ستأخذهم إلى المنفى في طرابلس الغرب وفي بلغراد. أخبروه ان اسماعيل باشا يقبل الشفاعات ولهذا أتى. لكنه في طلعة القشلاق، بينما الشمس تغرب، اضطرب. استرد نفسه حين رأى عيون الحراس تتأمله. أخبروه ان الباشا يتعشى وانتظره واقفاً تحت شجرة الجميز في باحة القشلاق بينما العبيد ينقلون بعض أحمال البغلتين إلى المطبخ. كان الظلام هبط والقناديل أضيئت وعُلقت عندما نادوا عليه أخيراً. في اللحظة التي ولج فيها العمارة الحجر العملاقة اختفى طنين أذنيه. أدرك أن أولاده هنا، في قبو السراي.



دار الآداب - بيروت

للركز الثقافي العربي

إلى رينيه ومروى

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^RAYAHEEN^

دروز بلغراد  
حكاية حنا يعقوب  
(رواية)

تأليف: ربيع جابر  
الطبعة الأولى، 2011  
جميع الحقوق محفوظة  
ISBN: 978-9953-68-496-0

الناشران

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجزيرة - بناية بيهم  
ص.ب: 4123 - 11  
بيروت - لبنان  
هاتف: (01)861633 - (03)861632  
فاكس: 009611861633  
e-mail: d\_aladab@cyberia.net.lb

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب: 4006 سيدنا  
هاتف: 00212 522 303339  
e-mail: markaz@wanadoo.net.ma  
بيروت: ص.ب: 5158 - 113 الحمرا  
هاتف: 01-343701 / 01-352826  
e-mail: cca\_casa\_bey@yahoo.com

هذه الرواية من نسج الخيال. وأي شبه بين أشخاصها  
وأحداثها وأماكنها مع أشخاص حقيقيين وأحداث وأماكن حقيقية  
هو محض مصادفة ومجرد عن أي قصد.

## الجبل الأسود (1872)

«أيقظني الهدير وارتجاج الأرض. أين أنا؟ في حبس  
الهرسك أم في قلعة بلغراد؟ القيود الحديد منعتني من النهوض  
لكنني أمد رقبتي ومن دون وعي أوشك ان أصبح كما في السنين  
البعيدة في بلدي البعيد: «بيض بيض، بيض مسلوقة». أسمع  
ركضاً وصراخاً ثم خيطات مرعبة فوقني - على وجه الأرض -  
كان حيوانات أسطورية عملاقة تتراكم وتقع وتموت. حوار فظيع  
يملأ الفضاء وأشم رائحة اللحم الذي يحترق. الرعب يخترق  
عقلي كحد السيف. عرق بارد كالثلج يبيل جسمي. أتجمد كما  
يحدث في الكوايس - كما في اللحظة التي تسبق فرقة البواريد  
ومقوط قاسم مع أخوته على الرمل الرطب - عارفاً أنني قد لا  
أخرج من هنا. لماذا أموت في هذا المكان من دون أن أرى  
زوجتي وابنتي وبيتي مرة أخرى؟ خرجت في الصباح أبيع بيضاً  
والشمس لم تطلع من وراء جبل صينين بعد. قبل عشر سنوات،  
قبل 11 سنة، قبل 12 سنة. التراب يتساقط على رأسي. مكتوب  
لي في اللوح المحفوظ أنني أطمع حياً حبيباً بلا جرم في هذه  
الأرض الغريبة؟

أين العدل؟ كيف يصنع الرب بي هنا؟ وهيلانة؟ والصغيرة كم

كبرت وأنا لا أراها ولا أسمع صوتها؟ النار والدخان. الضجة ورائع الحيطان. الزعيق فوقي وتحتي. لم أكن متأكداً من قبل والآن أعرف: هناك محاييس تحتي أيضاً، طبقة أخرى تحت.

عقلي مقسوم نصفين. نصف مذعور يرى في الظلام الأيدي والأقدام تحاول عبثاً أن تتخلص من القيود، ونصف ساكن لا يهتم ويشرد إلى البعيد: إذا كانت هذه ساعتني الأخيرة فأنا اطلب أن أرى أمامي الوجوه القديمة التي أحبها لا هذه الوجوه. رموني هنا قبل سبعة شهور وطوال هذه الفترة لم أصادق أحداً من المحاييس. قَبِدوني إلى وتد يفتنه الصلداً في الزاوية الفارغة حيث تنحدر الأرض ويتجمع الماء عند تساقط المطر. «لن تعطش»، قال الحارس الأحمر الشعر وهو يتشم ويخرج بينما المفاتيح الكثيرة تطلق على جنبه. «لكنك ستجوع»، قال صوت في الظلام، وامتلأ المكان ضحكاً يشبه الزعيق. سمعت صرير الأسنان وصليل السلاسل وكما يحدث في كل مرة أنقل فيها فقدت السيطرة على بطني ووسخت نفسي. رفعت وجهي إلى فوق ولم أهتم بالآخرين لأن الظلمة كاملة. ظننت أنهم يتكلمون لغة الحراس في هذه الأقاليم - لغة تعلمت نثفاً منها في القلعة البيضاء - لكن بينما يوجهون الشكائم صوبي اكتشفت أنهم يأتون من أمكنة مختلفة ويتكلمون أكثر من لغة واحدة. سألوني عن اسمي ومن أين أجيء ولماذا حبسوني. لم أجب لثلاث يعرفوا من صوتي المخنوق أنني أبكي. في وقت الأكل انشق الباب ووضعوا أكلاً في القدر جنب الباب. بقيت بلا أكل لأنني مربوط في أبعد زاوية.

عظامي ثقيلة في كيس جلدي وأحاول أن أرفعها. لكنني بلا قوة. أسمع ارتطام الأجسام والسلاسل والرؤوس - بعضهم مقيد

إلى بعض - ثم الصوت الحاد الذي يصرخ وينادي الحراس. الدخان يتسرب إلى هنا. أسعل وكذلك غيري وحين يرتطم أحدهم بي أستوعب أن النجاة ممكنة. أمُد ذراعي وأقبض على ساق أو ذراع. طبيعة الصوت في القيو تتبدل وأنتبه أن الباب فتح لكن الظلام لم يتغير. لعله الليل في الخارج. تطرقني عظمة على وجهي وأقع إلى خلف وأصدم رأسي. الدم يملا فمي وحلقي كما في مرفأ بيروت قبل 12 سنة. لا أدري من أين تأتي القدرة إلى بدني الجائع المحطم لكنني أمد أطرافي مرة أخرى ومثل حيوان لا يفهم أنثب بالرجل المذعور الذي يحاول أن يهرب وأحفر أصابعي فيه. الغريب أن عضوي ينتصب. يضريني مرة أخرى وهذه المرة استعمل أسناني. أغرزه في اللحم والعظم ولا أقبل أن أترك كي أحتقن. المفاتيح تطرطق، رائحتها قوية، وعلى ثياب الرجل أشم رائحة الخارج. يشدني أحدهم وأسقط. أعرف أنني ميت. حتى أسناني وقعت من لثتي المريضة. رأسي تراخي، مال عن رقبتي. ماء أسن ولج أنفي وعيني. في ثياب الرجل الذي فتح الباب رائحة عيز وسكر وتفاع. أبلع دمي وأرفع وجهي. رائحة التفاح تمنحتني هذا. بلا أمل أفتح فمي وأقول: أنا حنا يعقوب.»

### بيروت (1860)

هذه حكاية حنا يعقوب وزوجته هيلانة قسطنطين يعقوب وإبنتهما بريارة، وفيها ما وقع للعائلة البيروتية الصغيرة من مصائب بسبب الحظ العاثر ووجود الرجل المتوسط القامة الحنطي الوجه

الأسود الشعر والعيتين بائع البيض في المكان الخطأ في الساعة الخطأ.

كانت هيلانة تخشى عليه من خروجه اليومي المبكر في تلك الفترة بسبب كثرة العساكر والغرباء في البلد. وقعت حرب أهلية في الجبل الذي يطل على بيروت وبعد معارك ومذابح دامت ثلاثة أسابيع كسر الدروز المسيحيين واستولوا على جبل لبنان. عدوى القتل انتقلت على الألسنة وفي الهواء إلى مدينة دمشق: أغار المسلمون بالبارود على حي النصارى وأحرقوه، جرت الدماء في أفتية الدواب وسط الدروب. الناجون بجلودهم نزحوا إلى بيروت. اندحدروا بين الصخور والأشواك كقطعان ماشية أفلتت من ذئاب وأحاطوا بأسوار المدينة القديمة ثم تدفقوا إلى قلبها. كانوا أكثر من سكان البلد وهيلانة خافت حين رأت أولاداً لم تر شيئاً لهم من قبل، طواها كالقصب، شبه عراة بعظام نائمة من الجلد، يقفزون على الحائط وراء البيت ويدنون من قن الدجاج. أطلقت برأسها فهربوا. قالت لزوجها عند رجوعه في المساء وهو سألها من أين بالضبط قفزوا. خرج في الصباح بلا سلة البيض وجلب حجارة ورفع الحائط أعلى. ساعدته في التعمير بينما يرباها تذب عند العتبة وتلعب مع الفراشات الملونة. كانت روائح الربيع تهب من البساتين مع النسائم لكنها في هذه السنة لم تكن طيبة. خرجت هيلانة إلى السوق كي تشتري ملحاً فوجدت الأزقة الضيقة المسقوفة بين كنيسة سيدة النورية وحارة اليهود مسدودة بعائلات منكوبة نائمة على الطريق. خافت وهي تحاول أن تجد موضعاً لقدمها. داست على كيس من القش فخرجت يد من الأرض وقبضت على كاحلها. لم تزعج لأن وجهها أبيض شديد الجمال بان

بعد اليد، والقبضة ارتخت. بنت لا تجاوز السادسة نهضت وهي تفرك النوم من عينيها بأصابع بيضاء قصيرة. قالت «صباح الخير» ومن نبرة الصوت عرفت هيلانة كم هي جائعة.

رجع حنا في المساء مبلولاً بالعرق وبينما يفتسل وهي تسكب له ماء أخبرها أن البوارج تسد المرفأ، وصلت من أسطنبول وباريس ولا أحد يعرف ماذا ستفعل. أخبرته عن نساء دمشقيات اللهجة رأتهن يتدافعن على قفة الخبز أمام الجامع العمري. قال «الربّ يرحم». استحى أن يخبرها كم سلة بيض باع في ذلك اليوم. من قبل كان يخبرها كم بيضة باع. لكن منذ عجت البلد بالناس صار يخرج الي مزارع المصيطبة والرأس والأشرفية كي يشتري من هناك بيضاً. الدجاجات في القن وراء البيت لم تعد كافية. كانت سلة واحدة تكفي للنهاير ومرات يرجع وهي نصف ملأنة.

لم يقبل من هيلانة وهو يقوم عنها وهي تتعلق برقبته وتطلب منه البقاء في الفراش في ذلك الفجر الأخير الأسود. قالت له رأيت في المنام أن السلة وقعت والبيضات تكسرت. ضحك كما يفعل في كل مرة تقول فيها «البيضات» بدلاً من «البيض» وقال لها لا تقلقي والبيض سلقته وإذا انكسر صار تفشييره أسهل. على عكسها كان منشرحاً ضاحك الوجه في ذلك الصباح الأخير وعندما رفع بظفر خنصره الطويل خصلة شعر عن وجهها سرى التيار الطيب منه إليها وطمر وسواسها. هكذا غادر البيت مع سلتني بيض وهو لا يعرف أنه لن يرجع.

أتى الشيخ غفار عز الدين إلى المدينة على بغلة بيضاء وسأل عن بيت اسماعيل باشا المجر. كان معقراً بالغبار وشمس النهار الطويل تشغل لسانه. مع هذا شعر الحرس أمام باب الدركاه بالمهاية. وراء البغلة البيضاء التي لم ينزل عنها بانت بغلتان بلون الرماد أصغر حجماً أو لعل الأحمال أثقلتها فظهرت أقرب إلى الأرض. أحد الحراس ترك مركزه وسار أمام الشيخ الأبيض اللحية المدوّر العمامة في زحمة الناس والحميمير والبضائع يشق له وللبغلات الثلاث درباً إلى «ساحة عالسور» حيث نصبت فرقة عثمانية خيماً مؤقتة. الشيخ غفار عز الدين تهادى مرهقاً في مكانه العالي وشعر بالهواء يغادر صدره ولا يرجع. في حياته كلها لم ينزل إلى بيروت غير مرتين: مرة مع قافلة من حوران نزلت في بلاد الشوف كي تعزي شيخ عقل الطائفة ثم أكملت الطريق إلى الساحل في تجارة. وهذه المرة. هل يقدر أن يحصي السنوات الفاصلة؟ لعلها خمسون سنة! لكن هذا بلد آخر: بيوت على بيوت ودكاكين تزحم دكاكين وناس فوق ناس. الضجة مخيفة. نحاس يطرق وأفواه كثيرة تتكلم في وقت واحد ولا أذن تسمع. وقف الحارس أسفل طريق تتسلق هضبة. مسح عرقاً عن وجهه ورأسه ثم نفخ أصابعه صوب الأرض. هذا زاد الشيخ انهاكاً. «أسأل يا شيخنا في باب القشلاق»، قال الحارس وهو يدل برأسه إلى السراي الكبير الذي يتوّج الهضبة. أخذ القرشين وهو يشكر ويدعو له بالتوفيق ثم تبدد في الزحمة. في تلك اللحظة تعالى الأذان. ضوء الغروب لَوّن الوجوه بالأحمر. أمام حوائيت الخياطين خفقت

أقمشة معلقة. في قريته في أعالي الجبل لم يسمع الشيخ غفار أذاناً يوماً. بينما يرتقي الهضبة إلى القشلاق تحركت شفتاه بلا وعي: الله يا كريم الله يا رحيم.

هذا الفجر وهو يحتمل البغلات مع كئنه لاحت منه التفاتة إلى أم علي - زوجته وإبنة عمه - شبه مطوية عند العتبة تستند إلى الباب بيد واحدة، فخاف أن تقع على وجهها. بلغ هذا العمر من أجل أن يفقد أولاده؟ الأحفاد بعضهم نانم وبعضهم استيقظ لكن حتى الصغار فهموا في هذا الفجر ان الركض والفقر والصحاح لا يجوز. بينما يحزم الجريئين بالحيال اقتربت ابنة بهية ومدت يدها. كانت أقوى من رجل، سمكة العظم، وحين أنهت تثبيت الجريتين ربتت على ظهر البغلة وقالت شيئاً. لم يسمع الدعاء بسبب بكاء كئنه: نشيج محبوبوس يفلت من الأعماق فجأة ثم يُسترد كاللعاب إلى الداخل. دارت بهية حول البغلة التي تلوك شعيراً واقتربت منه. باست يديه وضمها إليه وباست كفه. لم تلبث. احترقت دمعته يوم ترملت. بعد معركة عين دارة لم تعد نفسها. استقامت وحين نظر إلى وجهها مشفقاً يريد أن يقول لها كلمة طيبة أعجزه الموقف: بدت عجفاء باسطة متحجرة. أشاح بوجهه وصغرى كئنه زوجة سليمان أنقذته بوقوعها بين ذراعيه. كانت المفضلة عنده ويحبها أكثر من ابنة واذا مرض لا يأكل من غير يدها. رائحة سكرية حارة فاحت من رقبتها السمراء وملأت أنفه. عانقته وهي تدعو له وتوالت من بعدها الباقيات وجاء الصغار أيضاً. بعد ذلك اصطفوا مثل صف العسكر على المصطبة. أوشك عندئذ أن يترك خطته ويدخل وينام تعباً. لكنه تنفس ونظر إلى أم علي وقال: «ادعي للأولاد يا أم علي أن يرجعوا معي، الله يحب صلاة الأم». ثم



على الرسن وهو يلفظ اسم الباشا. أخبروه أن الباشا يتعشى  
 وانتظروه واقفاً تحت شجرة الجميز في باحة القشلاق بينما العبيد  
 ينقلون بعض أحمال البغلين إلى المطبخ. كان الشيخ غفار يشير  
 عليهم بعصاه المنحوتة من خشب الجوز مستخدماً كلمات قليلة.  
 خرج أحد الكتبة من السراي ودعاه إلى الدخول والاستراحة.  
 وجاء صبي من حيث لا يعلم ووضع أمام البغلات ماء وطرح على  
 الأرض شعيراً. الشيخ ناوله من كيس القروش كما ناول عبيد  
 المطبخ من قبله لكنه لم يدخل وظل واقفاً تحت الشجرة. غسل  
 يديه ووجهه ورقبته وشرب ماء طعمه ملح وأكل حبات تين أودعتها  
 إحدى الكتات جراه. كان الظلام هبط والقناديل أضيئت وغلقت  
 عندما نادوا عليه أخيراً. في اللحظة التي ولج فيها العمارة الحجر  
 العملاقة اختفى طنين أذنيه. أدرك أن أولاده هنا، في قبر السراي.

باس يد الباشا والخاتم بفص الياقوت. «تفضل يا شيخ  
 غفار»، قال اسماعيل باشا وأشار إلى الطراحات جنبه. فاجأه  
 ذلك: أن يلفظ الباشا اسمه. كان رجلاً غريب الوجه، يتكلم  
 بصوت خافت حتى أن الشيخ غفار جاهد كي يسمعه رغم قوة  
 سمعه، وأغرب ما في وجهه عينه اليسرى شبه النائمة: كان الجفن  
 متهدلاً على هذه العين، متجعداً. بدا مستريحاً صافي المزاج وهو  
 يلتقط إبرزيم الأرجيلة ويسحب نفساً طويلاً. مصابيح الزيت المعلقة  
 أثارَت القباب وانعكست على رخام في الزوايا. «ماذا كنت تفكر  
 الآن وأنت تحت الجميزة؟»، سأله اسماعيل باشا. تراجع الشيخ  
 غفار إلى خلف مرتبكاً. انحنى حين تحركت شفتا الباشا كي يصير  
 أقرب ويسمع أحسن لكن هذا لم ينفعه: هل سمع خطأ؟ تكلم  
 اسماعيل باشا من جديد مشيراً بالابزيم العاج إلى النافذة البعيدة

ركب بغلته ونظر من أعلى إلى بهية وقال: «ادعي لأبيك بالتوفيق يا  
 بهية، ادعي لي». كان يعلم أنها غاضبة ولا تقبل نزوله إلى  
 اسماعيل باشا. رفعت صوتها أمس حين عرفت وقالت كيف نذلنا  
 هكذا يا أبي! أسكتها بحركة عنيفة من يده وهي تراجعت إلى خلف  
 كأنه سيضربها. طبيعتهما واحدة لكنها لا تعلم. بينما يتعد على  
 البغلة البيضاء في ذلك الفجر فهمت أنه يفعل هذا من أجل أم  
 علي.

هواء الجبل يارد آخر الليل، حتى في الصيف. لم العيادة على  
 بدنه وأخذ يصلي بينما الطريق تنحدر صوب النهر. مع شروق  
 الشمس تعثرت إحدى البغلين فسمع بيضاً يتكسر في سلّة. نزل  
 ورمى البيض الذي تكسر على الصخور جنب النهر وتذكر أم علي  
 أصغر سناً تضحك وتقول ان البيض المكسور بشارة.

## (شفاعة في القشلاق - 2)

بكره علي قضى في كمين خارج دير القمر. بهاء الدين جرحته  
 السيوف في وقعة زحلة ولفظ أنفاسه بجوار قلعة حاصبيا. بقي  
 للشيخ غفار خمسة أبناء وهؤلاء محابيس عند اسماعيل باشا  
 الهنغاري ينتظرون مع 550 درزياً السفن التي ستأخذهم إلى المنفى  
 في طرابلس الغرب وفي بلغراد. أخبروه ان اسماعيل باشا يقبل  
 الشفاعات ولهذا أتى. لكنه في طلعة القشلاق، بينما الشمس  
 تغرب، اضطرب. استرد نفسه حين رأى عيون الحراس تتأمله.  
 كان الباب الكبير مقفلاً وترجل أمام الباب الصغير. اشتدت قبضته

«أعرف. عندني أولاد وأعرف. أنا ولدت في قرية على ضفة نهر الدانوب في بلاد الصرب. أبي كان يزرع الخوخ ويعمل منه الخمر البراندي المشهور في أراضي المجر. قريتنا كانت على الحدود في ذلك الوقت وحين أحرقتها مصطفى باشا أبي الثاني وولي نعمتي، كنت في الرابعة.

أبي كان يشرب نصف المحصول الذي يخمره ويتعامل مع أخواني وأمي تعاملني أنا الآن مع الجاريات الشركيات. لا تشفى احداهن من البقع السوداء حتى تتبقع الاخرى. أحياناً أنتبه أننا نتشابه. قطعوه بالسيف وأنا أنظر. رأسه تدحرج مفتوح العينين على العشب القصير الأخضر. مثل هذه الفترة من السنة. والدانوب لم ينخفض بعد. كان الدم ينوفر أسود اللون من خرطومين في عنقه. حصان مصطفى باشا توقف فوق رأسي والشمس اختفت. ركلت الرأس ورأيتنه يتدحرج صوب النهر. قريتنا أعلى من الدانوب. أخذني مصطفى باشا الى بيته في اسطنبول وعلمني مع اولاده. في الصيف كان يأخذني معه الى ضيعة في اليوستة والجبل الاسود وبلغاريا كي تصيد.

عاملني كأنني من لحمه ودمه وحين جرحوني في المورة ووقعت عن حصاني أصابته حمى وهو يأكل في القصر في أنقرة قبل ان يصل عبري اليه. الأب يقلع عينيه من أجل أولاده، يقولون. والبدو عندهم مثل: الدم ذهب أحمر. لكنني يا شيخ غفار لا أملك دم أولادك كي أبيه.»

الشيخ الثمانيني التعبان سقط وجهه ولم ينس بحرف حين

الغائبة في الظلال: «أردت أن أرى ماذا يفعل شيخ في مكانك وهو وحده.» قبل أن يتكلم الشيخ حرّك الباشا يده مرة أخرى فأسرع احد الواقفين في المدخل وبدأ يخفف ضوء القناديل. كان الفتيل يقصر والشعلة تتضائل في جوف الزجاجية، قنديلأ بعد قنديل، وأمر الباشا بالتركية هذه المرة: «تكلم!» جاهد الشيخ وهو يركب الجمل في رأسه. ابتسم الباشا وتعلمت يده المستترية في قماش العباءة وهو يرجع الى العربية: «قل ما جئت من أجله!»

بلا انتباه نظر الشيخ الى الجرتين اللتين جليهما. كانت هذه ثروة العائلة. جرتا ذهب، ليرات ذهب عملي استمرت ترونّ في رأسه مثل الرعب طوال رحلته من قمة الجبل الى هذه المدينة الرطبة.

والآن كيف يبدأ؟ ضحك اسماعيل باشا وسيقه مرة أخرى: «هل تعرف ان الدعاوى المقدمة من المسيحيين ضد أولادك أكثر من الدعاوى ضد سعيد بيك جنيلاط ذاته؟ هذه العمليات لا تكفي لدفع التعاويض عن نصف الدعاوى يا شيخ غفار. والشيخ سعيد مريض لكن أولادك في عز الشباب فكيف أفلتهم؟ لو طلبت هذا من فؤاد باشا تعرف ماذا يفعل؟ لا يفهم لكنه يعلق لهم المشائق تحت هذه الجميزة حيث كنت واقفاً.» اليد تحركت مرة أخرى والعبيد دخلوا يحملون قهوة وحلوى وماء وفواكه. كان الباشا يحدق اليه شديد النظرة. فتح الشيخ غفار فمه لكنه لم يعرف ماذا يقول. تبدلت ملامح الباشا، صار كتيباً، هزّ رأسه وسحب من الأرجيلة نفساً كأنه يتهدد.

بائع البيض حنا يعقوب مرّ أمام جامع السراي سريع الخطوة وهو يرى بطرف العين القباقيب الخشب والمداسات الجلد السختيان متراصفة في المدخل. كانت السرج مضاءة في جوف الجامع ولحظة قيام المصلين من سجودهم تطاولت الظلال بغنة وبدا انها تسابقه في الدرب المنحدرة الى البحر. النقى باعة كعك وسحلب أسفل سوق القطن وبادلهم تحية الفجر ونصحهم أن يعجلوا. عادة يلتقيهم امام جامع السراي. غلّوا الخطى في الطلعة ورائحة السحلب الساخنة غمرت وجهه. بينما يعبر امام جامع الدباغة رأى بائع القهوة منصور مراد يقفز الى خلف ويرمي من يده فتجاناً أحرق أصابعه. ألقى عليه التحية وسمع صوتاً لا يعرفه يرد تحيته من داخل احد البيوت النائمة. قبل ان تكتمل البسمة على وجهه شتمه صوت آخر من وراء نافذة غارقة في الظلام. ردّ الشئمة همساً وأسرع يقطع البقعة المتفجرة حيث الرائحة لا تطاق. من جهة المسلخ هجم خوار شديد وما يشبه الصراخ. في العتمة الخفيفة شعر بحركة إيل وحمير وراء صف الجميزات. انتبه لثلا يزلق على بلاط الزقاق وراء الخان البحري الجديد وقبل ان يخرج من تحت الأعداء والقب - هذا الزقاق يشبه قبواً مفتوحاً من الجهتين - سمع أنبأً أنثوياً حاراً وراء باب مشقق الخشب. تلكاً لحظة متسع العينين ثم خرج الى ضوء المشاعل الأليف في مدخل الأرصفة. بات باب المرفأ مركزه الصباحي المفضل في الفترة الأخيرة. قبل ان يبلغ تقطعه شعر بالحركة القوية وراء صف العناير وسمع الأصوات. من دون أن يرى ساحة التحميل المحجوبة عنه بعنبر البصل والبطيخ

سكت الباشا. من خارج النافذة تسللت أصوات متباعدة. كأن المدينة تسافر على البحر وتبتعد. تراجعت ضجة الناس وارتفع نباح الكلاب وعواء بنات أوى. تكاثف الظلام. قرقرت الأرجيلة. مال جذع الشيخ غفار الى أمام مثل شجرة قصفوها. لفت الباشا التريبج على عنق الزجاجة ثم رفع اصبعاً. اقترب أحد الكتبة وأعطاه ورقة. قرأ الباشا المكتوب فامتلات أذنا الشيخ بالدم. «محمود غفار عز الدين 37 دعوى قتل وجرح وحرق - بشير غفار عز الدين 34 دعوى قتل وجرح وحرق - نعمان غفار عز الدين 31 دعوى قتل وجرح وحرق ونهب - سليمان غفار عز الدين 14 دعوى قتل وجرح وحرق - قاسم غفار عز الدين 12 دعوى قتل وجرح وحرق». مرة واحدة فقط ارتفع وجه الشيخ غير مصدق: عند ذكر دعاوى على ولده نعمان. الا إذا عطف سيقاً في معركة ونسي ان يرده! «نهب؟ سرقة؟» لكن لسانه بقي معقوداً. جاء يطلب شفاة فاذا به أخرس!

«سأخدمك يا شيخ غفار خدمة. من أجل مكانتك عند قومك ومن أجل منزلتك بين أقرانك المشايخ الذين لم يردوا طلباً لأبي الوزير مصطفى باشا في حربه مع العاصي ابراهيم باشا المصري ومن أجل أروامك وشيبة شركك سأعطيك ما أعطي وليس من أجل هذه الليرات. عثمانياتك ستوزعها على الأرامل والأيتام المسيحيين طعاماً ولباساً وهذا نعرف أنه يرضيك. وكفي لا ترجع الى بيتك وحيداً سأعطيك من برفاقتك. انتني واحداً من أولادك الخمسة وخذ معك من الزندان. اذهب الآن بسرعة يا شيخ غفار قبل ان أبدل تفكيرتي وتندم. الله معك».

أحدهم كان يميل ثم يستقيم وينقل ركبته على الأرض كي يتوازن،  
وحين سقط الى امام وطرق بجبهته الرصيف مال معه آخرون  
واهتزوا واوشكوا على السقوط مثله: كان مربوطاً إليهم.

باع البيض أراد ان يستدير ويهرب إلى البيت. دبّ الرعب في  
أوصاله برؤية الجليين هكذا، مربوطين بحبل كالحوانات وراكعين  
على حافة البحر. حاول أن يحرك ساقيه لكن الذعر شلّ أطرافه.  
الفتحت صوبه رؤوس ثم رأى جنوداً يفترون منه. ورأى ضابطاً يتقي  
يكفي مرفوعة أشعة الشمس يتسم له ويسأله عن اسمه.

## (باب المرفأ - 2)

«جئت في وقتك يا ابني يا حنا. لا تخف، هؤلاء محابيس  
حاربوا في الجبل وصدرت الإراة السنية بنفهم الى بلاد الصرب  
وراء البحر. هذه السفينة هنا، انظر الى الباخرة الكبيرة أم ثلاثة  
دواخين، هذه وصلت الليلة من إزمير كي تأخذهم. لكننا الآن  
نتنظر سعادة الفئصل الفرنسي كي يقوم من النوم ويأتي ويحصى  
الرؤوس. اذا كان العدد ناقصاً يظن اننا نسهل للمحابيس الهرب  
ويقدم اعتراضاً امام الباشا. مهم جداً عدد الرؤوس. هل تعرف  
عكا؟ عظيم. عكا بلد حلو. من هنا الى مرفأ عكا رحلة يومين أو  
أقل في هذه الباخرة. أتيت في أحسن وقت يا ابني يا حنا: كم  
ثمن هذا البيض الباقي معك؟ سأعطيك ضعف ثمنه وسأزيد على  
ذلك ثلاث ليرات ذهب تأخذها مني عندما ترجع من عكا. الباخرة  
تتوقف في عكا كي تنزود بالفحم الحجري. انت تنزل منها هناك

أدرك أنه سيبيع ما في السلتين قبل حلول الظهيرة. رأى كومة من  
أكياس الطحين تتعالى منتفخة وثقيلة مثل جبل وأمامها ينتصب  
عسكري. كان الحارس الليلي مستقيماً كرمح، مستعداً تماماً، وبائع  
البيض استغرب ذلك لأن الوقت مبكر والضباط عموماً لم يخرجوا  
بعد. توقف عندما اتبه الى بقعة دم أسود تنوسط الطريق المكسوة  
بغبار الطحين. في اللحظة ذاتها سمع صوتاً وراء ظهره. استدار  
فرأى بحارة فرنجة في ثياب غريبة. كلموه بالاشارات وحين  
أخرجوا قروشاً يعرفها بدأ يبيع. كان يقشر البيضه برمشة عين وتبقى  
القشرة كاملة بين أصابعه مثل بيضة فارغة. أدهشهم ذلك. كانوا  
سبعة بحارة واشتروا وأكلوا أكثر من نصف سلة وكلما نظروا الى  
يده ضاحكين وجدوا بيضة جديدة مقشورة للتو تنتظر. هو أيضاً  
ضحك بينما أسنانهم تتلون بصفار البيض. في هذه الاثناء انتشر  
الضوء وبانت البواخر منتشرة على صفحة البحر. أحدهم ربت على  
كتفه مسروراً قبل أن يلهبوا. في لحظة انطفاء المشاعل في باب  
المرفأ رفع حنا يعقوب وجهه وأطلق صيحته الأولى: «بيض بيض،  
بيض مسلووق». شعر أنه صباح مبارك. مصّ أصابعه كأنه يمصّ  
عظمت عصفور ثم حرك لسانه منظفاً سقف حلقه وجوانب فمه من  
أثر البيض الدسم. بينما يمسح يده على قميصه ارتجف البحر  
وارتطمت المراكب الصغيرة بالسلسول الحجر. حمل السلتين من  
جديد وتقدم مطلقاً صيحته. وضع مسافة بينه وبين العسكري الجامد  
كفراة الغريبان وعبر. حين أطلّ على ساحة التحميل جمدّه المنظر  
المخيف في مكانه: رجال لا يقدر أن يحصيهم يركعون على  
الأرض في صف طويل وأيديهم مربوطة وراء ظهورهم. عرف انهم  
دروز من ثيابهم ومن الطاقيات القطن البيضاء على الرؤوس.

بيشم: «غفارم غفارم، وحين ترجع من عكا لك ثلاث ليرات ذهب».

فيده وشدوا الحبل حتى خرج الدم من معصيه. في رمشة عين ابتلت الطافية على رأسه بالعرق. كان يتأرجح في ركوعه. الألم مرقن مفاصله. حين لاحظ قرفاً ظاهراً على وجوه غامضة قريبة أدرك أن اللبل الحارق المباحث بين فخذه ليس عرقاً. داخ وسيح في شباب ومرّ عليه زمن أخرس غريب ثم تركز الحريق في كليته وفكر أنهم جرحوه وهو لم يتبه. بعد ذلك رأى رجلاً شديداً الشقرة أزرق العينين ينحني عليه ويقول شيئاً. في البدء لم يفهم. ثم، دفعة واحدة، بينما الرجل الأجنبي يتعبد، رجع إليه الإدراك واستعاد صفاء ذهنه. لن تسح له فرصة ثانية؛ وحده هذا الرجل قد ينقله، القنصل الفرنسي. رفع حنا وجهه ومدّ رقبته وصرخ مثل غريق: «أنا حنا يعقوب، مسيحي من بيروت، بيتي على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك». كان القنصل بعيداً الآن لكنه سمع الصرخة والتفت ونظر من فوق كتفه وسأل الترجمان ماذا يقول السجين؟ أجابه الترجمان بفرنسية ممتازة وبلا تردد: «يقول أنا قتلت حنا يعقوب، مسيحي من بيروت، بيته على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك». بدا الغضب على القنصل واحتقن وجهه. اقترب ضابط الترحيل وقال: «إذا شاء سعادتك نقطع لسانه». ردّ القنصل قالباً شفتيه: «لا، لسانه برايرة، لكن اجعلوا المجرم يخرس». خطف الضابط بارودة من احد الجنود وطوح بها في الهواء مثل فأس وهشم قبضتها الخشب على فك السجين. كان يمسك البارودة من قسطلها الحديد وقيل ان بردها هزّها كي يرى الى أي حد تخلعت ثم مسح يده على ظهر الجندي.

وترجع وهؤلاء يكملون الرحلة الى بلغراد. حين يأتي القنصل الفرنسي بعد قليل لا تفتح فمك وافعل مثل الباقيين كي يظنك واحداً منهم. هذا سهل جداً وغدّ، البسّ هذه على رأسك. لا تتكلم إلا اذا سألك القنصل عن اسمك. احفظّ الاسم: سليمان غفار عز الدين. انظرْ هناك: هؤلاء الأربعة الذين ينظرون الى هنا أخوتك. تصرف كأنهم أخوتك. تركع جنبهم الآن وتتوكل على ربك وتزور عكا وترجع اليها وتعطيك ثلاث عملميات وأجرة الطريق. فهمت؟ احفظّ اسمك: سليمان غفار عز الدين».

لم يشعر حنا يعقوب بالشمس التي تشوي رقبته بينما الضابط يتكلم. ظل ساكناً مصعوقاً أمام الوجه الطويل المنطق يتمش شبه طفولي. تركهم يأخذون السلتين منه. أعطته يد نحيلة طاقة درزية كي يلبسها على رأسه فأخذها بحركة لاإرادية. سأله الصوت العجيب هل حفظ الاسم فلفظ الحروف بصوت مرتجف كأنه الآن يتعلم الحكي: «سليمان غفار عز الدين». دفعه الجنود صوب المحابيس وفي تلك اللحظة فقط خرج من الصلدمة. استدار استدارة عنيقة وارتمى على قدمي الضابط: «أبوس رجلك يا باشا لا تفعل بي هذا، زوجتي صغيرة عمرها 17 سنة لا احد عندها غيري وابنتي طفلة ما زالت ترضع، أبوس رجلك غدّ غيري أنا لا اقدر ان أذهب». سمع كلمة تركية ولم يفهم كيف صار في لحظة مطروحاً على ظهره مثبتاً الى الأرض كأنهم دقوا أطرافه بالمسامير على صليب. ألم فظيع أحرق فمه وحتى بعد رؤية السكين لم يستوعب. كان الضابط يضربه بقبضة الخنجر لا بشفرته. ثم كلمه بالعربية وأمره أن يفتح فمه ويمد لسانه. مال بوجهه وقال بسرعة: «قبلت قبلت» وأقبل فمه لتلا بقطعهوا لسانه. نهض الضابط وهو

الابيض يذوب على نار خفيفة. بين اليقظة والنوم ابتسمت وهي تخيل حنا متادياً في زحمة سوق الفسحة: «بيضات بيضات، أطيب بيضات.» حين قرع خادم الكنيسة الجرس النحاس للقداس الصباحي اهتز الحائط وفتحت عينها. رسمت شارة الصليب وهمست «أبانا الذي في السموات ليتقدس إسمك». نظرت الى بربرة فوجدتها مستيقظة، باسمة وساكنة كمالك على ظهرها، متعة العينين تحلق بيؤويها الرطبين الى ذرات الغبار المعلقة في عمود الشمس. مرة أخرى انتهت كم تشبه حنا.

اغسلت عند الجرن وشربت ماء. حملت الطفلة وخرجت وفتحت باب القن وأطلقت الدجاج. تراكضت الدجاجات حرة سعيدة تنثر التراب وتتفاقر. انشربت بريشها الأبيض والأحمر والبني حتى أبعد نقطة في الدار لكنها رجعت بسرعة البرق الى هيلانة مع رشة الحب الأولى. غرفت ثلاث قبضات ملانة وطرحتها كالمروحة أمام الدجاج المتسابق بينما بربرة تنفرغر بالضحك. استدارت والطفلة على خاصرتها ومشت حتى الحائط الذي صار أعلى وتناولت واقفة على رؤوس أصابعها كي ترى السوق. رأت سلالاً تعبر وتحتها رؤوس. في سلة غيزران مدوّرة كبيرة رأت سمكاً فضياً صادوه للثوما زال يبلعط حيّاً ومبلولاً بعاء البحر. رضخت لبربرة وعادت الى الدجاج ورشت حفنة أخيرة. بعد ذلك جلست على العتبة وأرضعتها. كان الضوء يلمع على شجرة الرمان وراء القن وينعكس على الوريقات الخضراء الصقيلة وعلى ثمر زهري يكبر ويتدور ويغمق لون قشرته صباحاً بعد صباح. قبل حلول الظهيرة سمعت بانعاً ينادي فخرجت واشترت منه ربطة سبانخ: أرادت مفاجأة حنا. بينما تعود تحركت كومة

بعد خروجه حُففت ضوء القنديل وانحنت على بربرة تنشمها. كانت الطفلة غارقة في نوم عميق. «الآن تنامين يا عفرينة!»، همست هيلانة ضاحكة. بينما تستقيم بقميصها الفضفاض الذي رقّ قطعه انبثقت قطرة حليب حارة من حلمتها وكرجت على بطنها. تئابت شاعرة بالسكينة العميقة. مدت يدها وأطفأت القنديل وارتمت على الفرشة. بينما تفرق في النوم من جديد بان خيط رمادي نحيل - كأنه رُسم بريشة حبر- فوق قمة جبل صنين. كانت متعبة لأن الطفلة أيقظتها ثلاث مرات هذه الليلة. حتى وهي غائبة في أرض النوم ظلت هيلانة تشعر بتحفز في إحدى حلمتها. انقلبت على جنبها كي ترتاح فإحناك القماش بالثدي وشعرت به يترطب. أخرجت تنهيدة وبلعت ريقها مملوءة بلذة النوم بينما اصبعها مكبوس في قبضة بربرة. وهكذا لم تشعر بجلبه العائدين من الصلاة في الجامع ولم تسمع نداءات باعة اللبن ولا باعة المهلبية والرز بالحليب والحلاوة. بقيت هاجمة مثل كيس طحين حتى ملأت الشمس الفضاء وضجّ الحي بالحركة وبثرثرة النساء المسنّات أمام الكنيسة. حتى عندئذ لم تنهض. كانت تعرف من القبضة الصغيرة النائمة أنها تقدر ان تنام قليلاً بعد. ومع أن بقبضة الدجاجات الجائعة أخذت ترتفع من القن لم تنحرك. فقط طوت رقبته قليلاً ومالت برأسها على المخدة كي يزيح شعاع الشمس عن جفنها. دخل أنفها أثر من رائحة حنا - تبغ وعرق وملح وحجارة - لكن راحتها هي والطفلة ظلت طاغية على الفراش: الحليب والصابون وماء زهر الليمون وما يشبه الشحم

ثياب كحلية جنب الطريق وامتدت يد من داخل الكومة مفتوحة الراحة تطلب حسنة. لم تَر وجه العجوز لكنها سمعت صوتاً حلوأ يدعو لها ولأهل بيتها بالصحة وطول العمر. رجعت وألقت في اليد قرشاً لكن الاصابع العظم أمسكت يدعا. لم تتوقع ذلك. دام الأمر لحظة ثم أفلتتها الاصابع القوية وسمعت الصوت يقول من داخل القماش: «الله يعطيك ويبعد الشر من دريك، افتحي يدك يا ابنتي الجميلة كي اقرأ لك كَفك». لكن هيلانة لم تتلصق أطول وأسرعت الى البيت.

قصت كعوب السباخ قاعدة في الظل عند حافة البئر. رمت لللدجاج بعض السيقان التي عَضَّتْها الدودة ثم تعتت الورق العريض الاخضر في جرن الماء كي يتنظف. غسلت فتجان برغل رقيق وبَلَّته دقيقتين ثم فركته بالطحين. نفضت ورق السباخ في الشمس حتى جفت ورتبته طبقة على طبقة وفرمته دفعة واحدة. قشرت بصلاً وفرمته ناعماً واشعلت العبدان اليابسة في الموقد امام الباب وقَلَّت البصل بمزيج سمن بلدي وزيت زيتون وعندما ذبل وشفت واصفر لونه ألقت عليه السباخ. نادتها جاريتها ام سمعان عندما شَمَّت رائحة التقلية وسألتها ماذا تطبخ؟ بريارة التي تَدب على الطراحة رفعت رأسها كالخروف تبحث عن مصدر الصوت. هيلانة أبعدت مقلى الفخار عن النار وحملت الطفلة وذهبت الى شبك جاريتها وتكلمت معها. سليم الصغير قارع الجرس أطلَّ عليهما من برج الكنيسة اصفر الأسنان يضحك كأبله ثم اختفى. أم جرجي أظلت من نافذة أعلى وهي تعمص قميصاً مبلولاً. دخلت الحديث يسير لأنها كانت سامعة كل شيء وهي في الداخل: «أبو جرجي لا يرضى ان أطبخ كَبَّة حيلة. يقول نفسه لا تقبل اللبن المطبوخ. لا

يأكل الكَبَّة إلا بلحمة وبالصينية.» قالت هيلانة «حنا يحب كثيراً حشوة السباخ.» أم سمعان مدت ذراعها اليه اليقين البيضاء من النافذة وهي تنحني: «اعطيني.» رفعت هيلانة الطفلة عالياً فشَمَّت الرائحة. تفرغرت بريارة بالضحك.

### (محاييس)

حملوهم على دفعات بالمراكب. كانت الباخرة راسية وراء السلسول عاجزة عن دخول الميناء بسبب الصخور والمدخل الضيق. وقع حنا في بطن المركب لكن الآخرين شدَّوه حتى جلس مكموماً على نفسه. هكذا أتبع له أن يرى الاشياح يتعد وهي واقفة بلا حراك على الرصيف العريض تنظر الى البحر. لم يتبين الوجوه لأن الخان الجديد ألقى ظلاله واسعة معتمة على الرصيف. ولم يتبين الوجوه بسبب الألم الفظيح في فكه وفعمه. مرة ثم أخرى يصر في أرض المركب دعماً وقطعاً مكسرة من أسنانه. رفع عينيه ورأى ضباباً عفيفاً اصفر تمزقه التوارس ووراء الغشاوة التي تغزلها الشمس ميَّز جنوداً يقفون على حافة الرصيف ويلوحون له. كانوا يأكلون البيض ويلقون القشور الى البحر. جذبه الجبل جذباً عفيفاً. شعر أن كتفه انحلق من جذعه. حاول أن يتحرك فوجد قدمه عالقة في أخشاب القعر. أحد المحاييس قبض على ذراعه التي توجهه ثم التصق به من خلف. انتظر ضربة لكن يدهن قويتين امسكتا به من تحت ابطيه ورفعته فوف حافة المركب. من خلَّص قدمه العالقة؟ ماذا يفعلون الآن؟ اذا رموه في البحر مربوط اليدين يغرق ويموت!

أشروعها متسخة بياض والبخارة بكافحون. كانوا يطوون الأشرطة. نساء في فساتين أوروبية بأهارة الألوان - واقفات تحت الشماسي عند درابزين السفينة - نظرن إلى هذه الجهة. إحداهن لوّحت له بمبدالها الحرير. أحدهم ارتقى السقالة الخشب وبلا جهد كبير التقطه من الباقيين وأجلسه كأنه ولد وأمسك به لثلا يسقط. مال ناعساً كأنه يوشك على النوم. ارتفعت السقالة مع صرير عجلات. سقطت أشياء جنبه. ماذا يرمون من فوق؟ حبال؟ قبل أن يغيب عن الوعي شعر أن فمه يتزف من جديد.

## (هيلانة - 2)

خافت أن يسقط سليم الصغير عن حافة البرج ويحطم القن ويدق عقه. كان فضيل الجسم أخرق وحين انتهى من فرك الجرس بالرمل والحامض بدا الجرس بلونين كأنه ضُب من مادتين: نحاس بارق في الأسفل - حيث تطل يده - وحديد مطفأ في الأعلى. ألهاها عن اللين الذي تغليه حتى كاد يلتصق بكعب الطنجرة. من مكانه المشرف استرق النظر إلى لمعة ركبتيها. انحنت كي تلمق النار فبرق بياض نحرها. ارتعشت ساقه. على الصينية جنبها تراصفت أقراص الكية: راقبها بينما تعذها. طيّبت عجينة البرغل والطحين بالكمون وتحويشة الأعشاب اليابسة ( حبق ومردكوش ومتور واكليل الجبل) ثم قسمتها إلى كرات بحجم بيضة الغري. كانت تيل رؤوس أصابعها في كاسة ماء ثم تلتقط بيضة عججين وتكورها وتقرصها على الراحة المفتوحة حتى ترق ويفرغ جوفها.

أراد أن يصرخ فامتلا حلقه بزجاج مطحون. عندئذ فقط سمع صوتاً يأمره أن يشرب من البحر وأن يغسل فمه. لم يفهم. ثم أبصر كفاً كبيرة الحجم تغوص في البحر وتغرف ماء وتخبط وجهه. قال الصوت: «ألا تقدر أن تسلم وجهك؟» أجابه حنا: «أنا مربوط.» بينما يتنفس لاهثاً والرياح المالح يدخل عينيه رأى يده تتحرك وحدها كأنها مفصولة عنه وتغرف ماء وترفعه إلى فمه. اغتسل محنياً على البحر. حين فرك رقبته ورأسه شعر بالروح ترجع إلى بدنه. فرك معصبيه بالماء مقلداً الآخرين. تحمّل الحريق ولسعة الملح على الجرح الطري. في طرف المركب جلس رجل أبيض الشعر عاري الصدر يلفت الحبل الطويل رافعاً مرفقه. كان ماهراً سريعاً كأنه قضى حياته يتمرن من أجل هذه الساعة. شعر حنا بتعاسي شديد ثم انتبه أنه يدوخ: المحابيس يتحلقون حوله ويركضون. ارتطم المركب ببطن الباخرة. ارتجج جسمه وفكر أنه لا يستطيع الوقوف. رجعت قوته لحظة فقط ثم ذهبت. أحدهم لكز جنبه كي يتحرك. «رجلي»، قال. سمع صوت الدرزي الذي ساعده من قبل: «لا يقدر ان يحرك رجله.» ثم تناهى إليه صوت أبعد، يسقط من أعلى، كأن من السماء: «احملوه!» سمع أحدهم كأنه يضحك: «طيب، نحمله، هذا أخونا، لا؟» وهكذا حملوه.

ارتفع كالميت على الأكف وحين اهتز المركب فكر أنهم الآن يرمونه في الماء. أحدهم كان غاضباً، يبرطم بما يشبه السباب، وحنأ فتح عينيه تماماً وهو معلق بين البحر والسماء ورأى الوجوه في الأعلى تنظر إليه ورأى سقالة خشب تتدلى من حبال وتتأرجح وتخبط جنب الباخرة. ارتجج المركب مرة أخرى فمالت نظرتة. سفينة ثلاثية الصواري ترفع الراية الطليانية كانت تدخل العرفا.



عندئذ تحشوها ملعقتين من خلطة المقلى الذي برد في الهواء:  
 بصل وسبانخ وصنوبر رشت عليه ملحاً وسماقاً. كم مرة حلم سليم  
 الصغير لو أن الرب خلقه حنا يعقوب ولم يخلقه خادماً ينظف  
 الكنيسة ويقتل الفئران. بينما تقفل القرص على الحشوة انتبه الى  
 ضيق في صدره وخاف ان يقع: هذه أصعب مهماته، تلميع  
 الجرس. كان يحسد خادم سيده النورية لأن جرسها في الباحة  
 امامها على الأرض. ألقت فرعاً أخضر في الموقد فارتفع دخان.  
 دمعت عينها وانشأت بوجهها ونظرت الى بربرة مستلقية على  
 ظهرها في الداخل تمد يديها وتحول ان تقبض على أشعة الشمس.  
 رائحة الغار القوية أبعدت البرغش الذي بدأ يحوم. أطلت جارة  
 من نافذة غير بعيدة وردت الدرفة في وجه الدخان. تعالى أذان  
 الظهر وانتظرت لكن حنا لم يمر على البيت. قبل أن يكبس  
 المهجرون البلد كان يرتاح كل ظهيرة: يجيء حين تقوى الحرارة  
 وتفرغ الطرقات. يتخلص من مدامه عند العتبة ثم يُعلّق سلة  
 البيض. يبدو معتكراً مقفل الوجه. تصبّ الماء البارد من ابريق  
 الفخار على يديه ويغسل وجهه ورقبته فوق الجرن ثم يتناول الابريق  
 ويشرب ويشرب. يرفعه عالياً ويقع الماء الصافي في قوس طويل  
 ويختفي في زلعمه: تعجب كيف يتبدل وجهه ويروق كأنه تراب  
 عطشان والآن سقط عليه المطر. يلاعب بربرة التي تهتف عليه  
 كأنه غاب سنوات لا ساعات. يأكل لقمة خفيفة ويشرب فنجان  
 قهوة. مرات كثيرة يرد درف النوافذ ويضطجع معها قبل الخروج.  
 بدّل عاداته في الفترة الأخيرة لكنها شعرت أنه قد يمر هذه  
 الظهيرة. انتظرت وعندما عمّت الجلبة السوق من جديد أدركت أنه  
 لن يرجع قبل المساء.

أكلت قليلاً وارضعت الطفلة وراقبت الدجاج يستخرج دوداً  
 رمادياً من التراب. عند الغروب سقت الأحواض وشربت كوب  
 زهورات وافقة تحت شباك أم سمعان. كانت جارتها مسرورة لأن  
 ابنها يوسف خرج للصيد في بحر عين المرسية وتوفق بسرب من  
 السمك: «اليزري والبوروي يكثر في هذا الوقت.» بلا سبب واضح  
 أحست هيلانة بخوف. بحثت في أعماقها فعاد اليها المنام الذي  
 نسيت: كانت قاعدة في عتمة العتبة ترضع بربرة وتنتظر حنا وحين  
 أطلّ أخيراً كان يحمل قنديلاً ويبدو مثل شخص آخر، مثل المرحوم  
 أبيه ربما، مع أنها لا تعرف شكل أبيه لأنها لم ترّه يوماً. كان حنا  
 لكن ليس حنا الذي يرجع كل مساء. بدأ يشعر الأبيض عجوزاً.  
 هبّ الهواء وأبعد المنام. ثقافز الدجاج وام سمعان قالت:  
 «الحقيها». التفتت هيلانة ورأت دجاجة تقفز من غصن الرمان الى  
 الحائط وتراكض على الحافة وهي تبقيق وترقص جناحيها ثم تطير  
 وتختفي. وضعت كوب الزهورات على الأرض وركضت خارجة  
 الى السوق فوجدت الدجاجة بلا عناء: كانت هاجعة أسفل الحائط  
 ترجف خوفاً وتحاول أن تدخل بين الحجارة. أم سمعان قالت  
 وهي تراها عاتلة ضاحكة والدجاجة تحت إبطها: «قولي لحنا أن  
 يُسحل أغصان الشجرة.» هيلانة أرسلت الدجاجة مباشرة الى القن  
 وردت أن السبب الهواء، من دونه لا تقدر أن تطير الى هذا العلو.  
 تركتها ام سمعان تجمع الدجاج واختفت داخل بيتها. أقلت القن  
 ومضت واسعة الخطوة الى طفلتها: كانت بحاجة الى حملها  
 وشدّها الى قلبها كأنها لم تفعل منذ دهر.

حلّ المساء وفاحت روائح القلي والطبخ. خرجت اصوات  
 الاكل من البيوت ولم يرجع حنا. انتظرتة وافقة في الباب المغضي

الى السوق مع أنه لا يستسبح ذلك. حين تكاثف الظلام وبدأ بعض  
القناديل ينطفئ. استدارت راجفة برداً وذهبت الى تحت شباك  
جارتها ونادت. أم سمعان ظهرت تحمل رغيغ خبز: «خير؟»  
«حنا، حنا تأخر كثيراً.»

### (قلعة بلفراد)

رموه في قبو تحت الأرض وظل زمناً لا يعرف أين هو - هذه  
عكا؟ - غير واثق من النجاة. لم يشعر بالرحلة ولا بالبحر. من  
أيام الباخرة ولياليها لم يركد في ذاكرته غير رائحة التوابل لأن  
الباخرة كانت معدة للتجارة مع بلاد الهند. رائحة التوابل - الباقية  
من رحلات سابقة - وصوت بشري واحد وسط الدمدمة المتقطعة  
والهدير الذي لا يسكت أبداً. ظنّ الهدير فيه وناتجاً عن الحمى  
التي استحكمت عليه ولم يدرك أنه موج البحر. لم يفهم سرّ  
الصوت: عرف أنه الدرزي الذي ساعده في المركب لكنه لم يفهم  
لماذا بقي معه. النار شوت دماغه لكن ذلك لم يعذبه. العذاب كان  
أدوار البرد. لم يتحمل الصقيع وصار يصرخ طالباً أغطية. عرف  
أن أحدهم يغطيه. لم يذهب الصقيع - ظلت أطرافه تنتفض - لكن  
البطانية ساعدته. ثم تورّم وجهه. ولسانه تضخم في فمه حتى صار  
مثل حيوان عجيب اختار وكراً في أغرب الأمكنة. حاول عبتاً أن  
يلوك قطعة خبز: انزلق فكه وغاصت الأضراس في النيرة الطرية.  
قماشة مبلولة تقطر على شفثيه منعت عنه الموت عطشاً. حدث  
شيء في تقطة ما وشعر بالأيدي ثقله وتنقله. بعد ذلك فعلوا شيئاً

جعله يزعق ألماً: أصابع قوية تحسست ركبته العارية ثم قبضت  
على ساقه في موضعين وفتلت المفصل. لم يعرف ماذا صنع كي  
يُعذب هكذا. ربطوا ركبته ربطاً شديداً وتركوه. كانت رائحة  
البهارات تملأ أنفه وجاهد لئلا يعطس ويضاعف الألم. الصوت  
طلب منه أن يفتح فمه. كف كبيرة كالرفش انسلت تحت ركبته  
ورفعت رأسه. القطرات سالت حلوة عطرة في زلعموه. شهق  
ويكى لأنه لم يمت بعد ولأنه تعرّف رغم الحرارة على طعم  
البرتقال. كان المكان مظلماً كالعادة لكنه جرّب: فتح عينه حتى  
درجة الألم وحاول أن يرى وجه الدرزي. لم ير شيئاً.

من كتلة الدمدمة الغامضة كانت تصل إليه أحياناً عبارة  
واضحة، مثل خيط يتفصل عن كتزة. أدرك انه يُذكر من عبارة «هذا  
المسيحي المسكين» مرة، ومن «هذا الحمار المسيحي» مرات  
أخرى. لم يستطع ان يربط أصوات الدرروز حوله بوجوه. حين  
حاول ذلك اكتشف انه يتذكر وجه الضابط المنمش في المرفأ  
والجنود الذي ضربوه وهو ملقى على ظهره. لم يتذكر الوجوه في  
المركب لكنه تذكر أسنانه ولطخات الدم في بركة المياه المتجمعة.  
كانت الدمدمة تبتعد أحياناً ويشعر بحرارة طفيفة على جفثيه  
المتورمين كأنهم فتحوا كوة في السقف. «أنا قاسم، اذا اردت شيئاً  
انذ لي!»، قال الصوت. شعر أنه وحده في كيس أسود. لاحقاً،  
حين أخرجوه الى ظهر الباخرة وأعمته الشمس، تخيل نفسه راكضاً  
على الطريق الطويلة بمحاذاة شريط الساحل الباهر من عكا الى  
صيدا الى البيت. برش يرموشه وخانه البدن الجائع ووقع.  
اضطروا الى حمله وبينما يسحبونه الى البر سمع احصاء الأسماء  
وقرع أذنه السليمة اسم غامض مشؤوم: «سليمان غفار عز الدين.»

صاح في القبو حتى يخ صوته: «أنا حنا يعقوب!» كانت الرطوبة فظيمة وشعر بالعفن ينمو على رقبته. زحفت حشرات على جسمه. دق رأسه على الحائط. داخ من شدّة الألم. لم يفهم. كان البحر مثل هوة سوداء وقبل الهوة حياته وبعد الهوة هذا الظلام الذي يتمدد. «اصبر يا حنا»، قال أبوه في الظلام.

## «قلعة بلغراد - 2»

نقلوه بعد فترة الى قيو آخر. مكان يتسع لعشرة محابيس وضعوا فيه سبعين درزياً. في الطريق الى القيو الجديد حاول ان يتكلم مع الحارس. كان رجلاً مربع الجسم يبصر في الظلام وتفوح منه رائحة كلسية: كأنه قُد من كلس. فثقه عن الحلقة في الحائط وأمسك به من رقبته مثل أرنب ورفعه ودفعه وهزه. بكى حنا وهو يحاول أن يشرح له ما جرى في مرفأ بيروت. الحارس لم يهتم. في الدليلي سمع حنا لغة عجبية. سقطت الحروف كالمطارق على سمعه. أيقن في لحظة تجلي أن الباخرة ألقته في نهاية العالم. عبرت المتاهة مشاهل أسرع من البرق ورأى لماذا يتحرك حارسه مثل أطرش: كان مقطوع الأذنين.

قَيده وذهب. في الظلمة الجديدة الضيقة سمع الدروز يسأل بعضهم عن بعض ويتبادلون السلام. أدرك أنهم اجتمعوا من جديد للتو وأنهم مثله كانوا موزعين على أقبية أخرى. أصواتهم بدت أليفة هذه المرة، محببة: على الأقل يتكلمون لغة يفهمها. أصغى باحثاً عن صوت مفرد في دوامة الأصوات. لكن الجوع أغمسه

والهواء القليل أطفأه مثل شمعة. غاص في نوم عميق وحتى قرقرة الباب - يأتون بأحد؟ يجلبون أكلاً؟ - لم توقظه. في وقت متقدم من الليل - بدا كذلك لأنهم رقدوا وناموا والشخير ارتفع - شعر بالصوت جنب أذنه وارتجف. لم يعرف كيف عثر عليه في الظلمة الدامسة. ولا كيف اكتشف أنه هنا. طوال الوقت ظل ساكناً: أراد ألا يعرفوا أنه هنا، معهم، هو «المسيحي». لكن الدرزي عثر عليه. سأله كيف صار فمه وسأله كيف صارت ركبته؟

«أحسن.»

سأله هل عرف صوته؟

«أنت قاسم.»

سأله هل يؤلمه حنكه بسبب الحكمي؟

«لا، لساني ثقيل.»

تبادل الهمس لتلا يستيقظ القيو. كان كلامهما يتقطع على وقع الهمهمات والشخير وقرقرة بعيدة.

«أنا اسمي حنا.»

«أعرف من تكون. أنت حنا يعقوب. مسيحي من بيروت. بيتك على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك. قدحت طيلة أذني وأنت تصيح في المينا.»

«ماذا فعلت أنا كي يحبسوني هنا؟ هل هذه بلاد الصرب؟»

«عندك أهل في بيروت؟ ماذا يعمل أبوك؟»

«أبي مدفون في مقبرة السنطية. كان يعمل في بيت النار في

الحمام العمومي.»

«وأأمك؟»

## (يعقوب الوقاد)

قضى حياته بحرق بذنه في بيت النار كي يستحم الآخرون  
بمياه ساخنة. طوال النهار يلقي حطباً في الفرن أسفل حمام  
الدركاه وأخر الليل يفتح البوابة ويخطو خطوة ويلج بيته: غرفة  
ضيقة دافئة شتاء وحارقة مثل جهنم ما تبقى من السنة. أعطى بناته  
للطالب الأول عارفاً أن الباقية منهن قليلاً في بيت السخام هذا  
مصيرها الاختناق. أحبهن أكثر من نفسه وجمع المهور واشترى  
قطعة الأرض المربعة المتاخمة لكنيسة مار الياس كي لا يقول  
الناس انه مات من دون ان يترك شيئاً للصبي. أراد لحنا فرصة  
العيش تحت الشمس، في المكان المشرع على الهواء الطلق وغناه  
المصافير وثرثرة البشر. لم يرد له أن يرث النار التي ورثها عن  
أبيه. لم يرد له الحبس اليومي الساخن تحت الحمام العمومي.  
أخذها الى تاجر في سوق العطارين كي يتعلم مهنة العطارة. عندما  
اكتشف أن المعلم يضربه بالخيزرانة وينقل على ظهره صناديق  
ويعامله معاملة البهيمة أخذها الى نجار في سوق البوابجية. رائحة  
نشارة الخشب الشبيهة برائحة الصيضان طوّقت حنا سنة كاملة.  
تعلم المصلحة على مفضض وصمد عند التجار حتى رحل الوالد.  
وجدوا الوقاد راقداً بين أكوام الحطب والفحم الحجري. كان  
متصلاً ومغطى بغبار الفحم، ميتاً منذ ساعات، ولم يفتقده أحد  
لأنه لا يخرج. انتبهوا حين بردت المياه في برك الحمام العمومي  
وعلت جبلية المستحمين. دفنوه وبعد التنزية شدّ صاحب الدركاه  
على يد حنا: «لا تستعجل يا ابني، خذ وقتك ودير أمورك، لكن  
بعد العيد علينا أن نعطي البيت للوقاد الجديد.» شاور حنا عقله

«ماتت وأنا صغير أرضع. كنت وحدي معها في البيت وحين  
رجع أبي في الليل وجدني ما زلت أرضع ثديها وهي ميتة.»  
«عندك أخوة؟»

«عندي ثلاث أخوات. وعندي زوجتي وابنتي.»

«ابنتك صغيرة؟»

«سنة إلا نصف شهر.»

«غريب.»

لم يسأل حنا ما الغريب لكن سكوته سأل.

«سليمان أخونا الذي خرج عنده بنت عمرها سنة إلا نصف  
شهر. ومثلك: لم يرزق غيرها بعد.»

«لماذا يحبسونني هنا؟ لماذا يتركونا بلا أكل؟»

أحسّ بالحركة وعرف أنه ابتعد. تلمس حنا الحافظ حتى عثر  
على رطوبة. أبقى كفه حتى ترطب ثم ذاق الماء. كان مقبولاً.  
أطفاً عطشه وخفف حكاك لسانه المتفتخ. سمع بطنه: الجوع يمزق  
مصراخه ولا يدري هل يتحمل بعد. «ساموت الآن. لهذا أشعر  
بأبي. دهر ولم يخطر على بالي. يعقوب الوقاد. أبي. لهذا  
سمعت صوته. كيف وجدني؟» رائحة غير معقولة غزت أنفه: بيض  
مسلوق! أحدهم يقشر بيضاً ويأكله! فتح فمه كي يبلع الرائحة.  
«امسك! خذ!»، قال الصوت. كان هذا قاسم، جلب له خبزاً  
غريباً مغمساً بشورية. «بصل ودهن.»، همس قاسم وهو يتعد.

سمع حنا بكاء. رفع رأسه ورأى الأجسام الراقدة تغطي الأرض ولم يرَ وجهاً واحداً. الشعر أكل الوجوه. اشتبك شعر الرؤوس باللحم وغطى الظلام الملايح بالحر. كانوا مكبوسين بعضهم الى بعض، والرؤوس تواجه الأقدام، وهو مكبوس بينهم، وإذا أراد ان يتقلب في الليل تستغرق هذه الحركة وقتاً. لم يفهم من أين يتسلل الهواء الى هذا القبر. فكفوا قيودهم. ظلّوا شبه عاجزين عن الحركة. في الكابوس رأى أحدهم يركع على صدره ويخنقه لأنه مسيحي. استيقظ مرة على طرقات غريبة وقبل ان يدرك ان أحدهم يقرع الحائط بجمجمته سمع صرخات وأنبيا ثم ماجت الأجسام. ارتطموا بعضهم ببعض وهم يتسلقون الظلام ويحاولون الوصول الى نقطة محددة.

«اتركوني. أريد أن أموت. اتركوني!»

«هذا غانم أبو غنام. لا أقدر أن أسدّ رأسه.»

«امسكوا!»

قاتلهم بقوة ثور يُذبح لكنهم سيطروا عليه ولقّوا جرحه بمزق الثياب. رائحة الدم الساخنة ملأت القبر. لم يتوقف النزف. ظلّ أحدهم يكيس رأسه ويحاول.

«وحياة أمكم اتركوني وحدي.»

لم يتركه أحد. أصغوا الى أنينه حتى لفظ أنفاسه.

«الله يرحمه. دفنوا على الباب.»

لم يأت الحارس حين قرعوا البوابة.

«والآن؟»

«الآن نسهر عليه.»

ولم يجلب حجراً أصفر من مقالع المصيطبة. استقر واسترخص وفعل مثل آخرين من أبناء جيله: أغار تحت ستر الليل على أطلال السور العتيق الذي طوّق المدينة كاسواره حتى قصفه الاسطول الانكليزي- النمسي- العثماني في سنة الأربعين. نقل حجارة سوداء منقوشة الى وراء الكنيسة المغمورة برائحة زهر الياسمين وبنى بيته. قبل أن يتزوج وقّع معلمه التجار موسى ندند واشترى الدجاج البيضاء ودير السلّة. زار قبر أبيه مرة أخيرة في ذلك العيد وينما يصيح في الأسواق صيحته الجديدة شعر بأثر من يعقوب الوقاد يتبدّد.

### (قلعة بلغراد - 3)

لاحقاً تحسّن الوضع لأن الباشا أمر باخراجهم للعمل في البساتين، لكن في البدء قاسوا فظائع لا يتخيلها عاقل. كان الظلام عقاباً كاملاً متواصلاً وحتى عند الأكل لا يدخل ضوء الى القبو. ينشق الباب عن ظلام أخفت وزناً ويترك في الداخل سلطان خشب ثم يقرع القفل من جديد. في وقت واحد فقط يتسرب شعاع من قنديل أو شمعة في طرف الدهليز لكن في هذا الوقت بالذات لا أحد يرغب أن ينظر وكثر يسدّون أنوفهم ويجربون العودة الى النوم: عيذان ولدان ضئيلا الحجم يدخلان لتنظيف «الجورة». يزحان الصندوق الخشب بالدائرة المثقوبة في مقعده ويستخدمان رفشين، الأول مسكته قصيرة والثاني أطول يغوص الى عمق مترين في الحفرة. ذات مرة، بينما يتفان السطول المملوءة الى الخارج،

المصافحة عزى هكذا ويده مرفوعة الى قلبه . كانت الإيماءات ضائعة في الظلام ومع هذا كزروا الطفوس كاملة كأنهم في دار فسحة عذبة الهواء تحت شمس الجبل وراء البحر .

#### (قلعة بلغراد - 4)

الظلام والقمل والجوع . كانوا ضائعين لا يعرفون الزمن ، يرض القمل شعرهم ولحاهم وأبدانهم وكلما قتلوا فوجاً يفتس من البيوض فوج جديد ، لكن أصعب من العتم وعقص القمل كان الجوع . سطل خبز وسطل شوربة للقبو كله ! سبعة لا يكفيهم هذا طعاماً وهم سيعونا عندما بدأ الإسهال يحصدهم أيقنوا أنهم في جهنم .

«لكننا لا نأكل شيئاً!»

حنا لم يعد قادراً على الوقوف . مع هذا زحف الى «الجورة» وانتظر دوره وهو يتلوى مثل عجل مريض . تدفق السائل الكثيف الحار من دبره كالشلال ولطخ الصندوق ومؤخرته وطرطش كاحليه . يكي فزعاً وهو يعود الى مكانه . جلس على جنبه بسبب الألم الذي لا يُحتمل ثم أسند ظهره . وضع غده على فزاعه وظل يهتز حتى أخذته النوم . في تلك الفترة الفظيعة اختفى قاسم ولم يعد يسمع صوته . لكنه بعد أيام سمعه يتكلم مع آخرين . كان حنا شبه نائم ، شبه ميت ، وأيقظته حماسة أصواتهم الغريبة وهم يحكون عن الأكل . كانوا أحياناً يصيحون .

«... أو صحن مجدرة مع سلطة بندورة وبصل.»

وهكذا صاروا يحكون عنه وعن غيره ويقارنون حكايات وتواريخ ويستمنون أهلهم وأولاده وأقاربه ويستذكرون خصاله الحميدة . كان الأقرب إليه صلة دموية في القبو الشيخ عثمان أبو غنام : من العائلة الكبيرة نفسها لكنه يسكن قرية أخرى في القاطع المقابل ، وقبل نزولهما في بلغراد لم يعرف أحدهما الآخر . حتى هنا لم يتبادلا كلاماً كثيراً . كان الميت راعي ماعز يرعى الطباع قليل الحكي والمعاشرة كثير التنقل والشroud . غسلوا رأسه ورقبته ويديه وما استطاعوا من بدنه بقميص مبلولة . اصطفوا واقفين كأنهم في جنازة فوق الأرض وأذوا الواجب . عزوا قريبه عثمان وشذوا على يده واحداً واحداً . كانت الحركة صعبة واستغرق العزاء زمناً لكنهم فعلوا ذلك بطيبة خاطر .

«البقية بحياتك يا شيخ عثمان . أنت لا تراني الآن لكن أنا نجيب عبد الصمد من عماطور.»

«البقية بحياتك يا شيخ عثمان . الله يرحم ابن عمك . أنا عماد الدين محمود من الباروك.»

«البقية بحياتك يا شيخ عثمان . قتل النفس حرام والرحمة على قاتل نفسه لا تجوز ، لكن الله يرحمه . الواحد منا لا يعرف في هذا المكان كيف لا يموت . الله يرحمه ويرحمنا جميعاً . أنا محمد بركات رضي الدين من بعقلين.»

«البقية بحياتك يا شيخ عثمان . أنا خطار عبد الملك من بتاتر.»

وهكذا توالوا في الظلام وأحدهم يُسلم يد الشيخ عثمان الى الآتي بعده حتى تبُلَّت أصابعه عرقاً وبدأ معصمه يؤلمه من شدة المصافحة . بعضهم ، لكن هؤلاء قلّة ، رفع يداً حزينة وبدل

«أو طنجرة كشك بقورمة.»

«أو باذنجان محشي برز وكوسى محشي.»

«ورق محشي. القرع أطيب من الكوسى والباذنجان.»

«ورق عنب قاطع، وحلاوة، ومرى لقطين.»

«أو رغيف مرقوق دوغري عن الصباح بلبنة سردالي.»

«كبة بالصينية مع سلطة ملفوف.»

«أو شوربة جزر ولحمة.»

«يلعن الشورية وساعة الشورية.»

سمعهم حنا يعقوب. انقلب على بطنه. أنْ كأنه يحضر.

### (جئة على الدانوب)

بلا قصد أنقلتهم نازلي هانم من موت محقق. كانت عشيقه

جودت باشا صاحب بلغراد وفي حاجة الى قاطفين للموسم والى

شغيلة يحفرون أقبية ريّ ويصلحون حيطان جلولها المتهدمة.

أصغى الباشا وهي تشكو اليه سرقة عبيدها.

«حاميها حراميها.»

«ليسوا لك. هؤلاء للدولة العلية. اذا لم أوزعهم على الحدود

وأستبيهم عساكر تحترق بلغراد.»

«تريدني أن أنزل بهذا الثوب الحرير كي أنظف الخوخ والتفاح

والعنب؟»

«لا يا نازلي، أنت مخصوصة لعمل رفيع، تعالي، أنا

سأطلق لك خوخك وتفاحك وعنبك.»

أخرج جودت باشا المحاييس من الأقبية. حين أبصرهم

يترنحون كالأسباح في ساحة القلعة البيضاء، عاجزين عن

التراصف وأكفهم تحجب عيوناً أعمتها الشمس، امتعض ورفع

أصبأ متوعداً في وجه أمين سرّه الذي ينادونه شراوالي بيك.

«هذا غير مقبول أبداً. أنت تسرق خزينة الدولة يا شراوالي!

الحبس ليس زريبة حيوانات. أنا لا أصدق ما أراه أمامي. قلّ لي

أنني في منام.»

«أنا مدهوش مثل حضرتكم سعادة الباشا. أقطع يدي هذه قبل

هذه لو كنت أعرف ما نراه الآن. الموتى اذا تراصفوا يبدون في

صحة أفضل من هؤلاء المساكين. أطلب مهلة يومين من

حضرتكم.»

بعد يومين تراصف المحاييس صفوفاً منتظمة بثياب مغسولة.

كانت مناساتهم مرقعة الآن، ورؤوسهم كرؤوس الأطفال حليقة

تماماً تيرق تحت ضوء الشمس. عيونهم أيضاً بدت هادئة: لم تعد

زائفة جوعاً. التزع المنظر هزة رأس من جودت باشا.

«عظيم شراوالي ابني عظيم. قولوا لنازلي هانم ان تطعمهم

وتسقيهم لكن بحدود. لا تريدهم أن يمرضوا. والذي يقطع حبله

أو ينزل الى النهر يُقوص ويُقطع رأسه ويُجلب اليّ. امشوا من

أمامي!»

خرجوا من قنطرة القلعة وساروا في صف طويل على درب

حمراء كالكرز وهم لا يصدقون ما يرون. وجدوا البيوت شديدة

البياض مرتبة كأقراص المعمول والأشجار خضراء مورقة شاهقة

العلو. في أسفل التلّة نهادي الدانوب عظيم المياه. بدوا  
مصدومين: هذه الجبّة؟ أطلّت نسوة من نوافذ. وقف تجار بياض  
تركية وصربية ومجرية وبلغارية في مداخل الدكاكين يدخنون.  
الأولاد تجمدوا في الأبواب يحدقون بعيون زرقاء كسماء هذا  
الصباح الي طايور المحاييس. بانت امرأة مكشوفة الوجه من شرفة  
تتعلّق كعمجزة فوق الطريق: كانت أشجار الورد والليمون تحفّ  
بيئتها وحين لوّحت لهم بمتديلها الحرير تبادلوا نظرات حائرة: ما  
هذا المكان؟ حنا التفت برقية عصفور ناظراً الي بائع جوّال يحمل  
أباريق فضة تشبه أباريق الجلاب والعرقسوس. عرج كالحجل  
مخففاً الثقل عن ركبته. حين اقترب أحد الحراس تحامل على ألمه  
وسار مثل الآخرين لثلا يرذّه الي القبو. عربة ديليجانس تجرّها  
أربعة أحصنة أفسحت لهم الطريق وتوقفت. الركاب تأملوا طايور  
السجناء كأنهم يتأملون حيوانات نادرة مجلوبة للثو من الطرف  
الأخر للأرض. ظهر صبي من بين أشجار البتولا وفي يده حجر.  
لمعت الشمس على كتلة برونز ضخمة: أمير صربي الثوب على  
حصانه البرونز نظر اليهم بينما البلايل توسّخ سيفه المسلول.  
أحدهم شدّ الحبل وحننا اندفع الي أمام لثلا ينخلع معصمه.  
انعظت الطريق وصارت الشمس في عيونهم. لو تابعا المشي في  
هذا الاتجاه سنة أو نصف سنة بلغوا بيوتهم. تركوا درب العجلات  
أعلى التل وانحدروا في طريق قدم ضيقة. أشجار الخوخ والدراف  
أحاطت بهم من الجانبين ملوّنة بالثمر. روائح الطبيعة أسكرت  
أجسامهم المحطمة من الحبس الطويل. سمعوا غناء فلاحات  
خفّيات وتغريد طيور. أدهشهم إبحاص كبير الحجم يتدلى حبة  
مشكوكه جنب الحبة والأغصان تنوء تحت الثقل. سمعوا خريراً ثم

رأوا ماء صافياً يتدفق من صخرة بيضاء. حين سمح لهم رئيس  
الحرس بالشرب ضحكوا. الهواء بارد هنا بسبب التبع. ارتعش حنا  
وهو يعبّ الماء ولا يشبع.

## (جبّة على الدانوب - 2)

نازلي هانم رأّت شرالي بيك أتياً على حصانه في سحابة  
غبار. خرجت من البركة وراء شجرة التين تقطر ماء. تناولت الرداء  
القطن من عبئتها واستدارت ناظرة الي «بناتها» يتراشفن بالماء. لم  
تكن مالكة حقول وزوجة خامسة غير شرعية لجودت باشا وحسب.  
كانت أيضاً قوادة معروفة على جهتي الدانوب. من سعلمين وراء  
الحدود بجيه زبائن اليها على المركب البخاري. تجار وأصحاب  
مزارع وموظفون في جمارك الامبراطورية النمسوية-الهنغارية.  
يقطعون ثلاثة أميال قصيرة من الماء كي يتعموا بالعسل الشرقي.  
يجلبون ضيوفاً نبلأء من بودابست وفيينا وسالزبورغ أحياناً. بنات  
صغيرات رومانيات وشركسيات وألبانيات وغجريات وسودانيات  
نزّلن في مياه هذه البركة مع مرور الزمن. لم تتعلم لغاتهن لكنها  
علّمتن بعض الفنون.

استقبلت شرالي في الحديقة حيث تتناول الفطور وحدها كل  
صباح. شرب قهوة معها. مذّ يده حين أصرّت وذاق كعماً محلي  
بدبس عتب. لكنه ظلّ قاعداً على حافة الكرسي.

«محاييس الباشا على الطريق.»

كانت تمسح زيدة بسكين فضة على قطعة خبز. توقفت لحظة



ثم استدارت وأمرت خادماتها أن تنادي «الوكيل». حضر رجل شديد السمرة قصير القامة بتي العينين. ألقى النحية تاركاً مسافة بينه وبين المائلة. مسح وجهه العرقان وضرب نعل جزمته بالأرض كي ينظف من الوحل. هزت نازلي هانم رأسها فقام شروالي واقفاً.

«وقل للباشا ان يسمح لك بزيارتنا حين تمرض زوجتك. البيت بيتك.»

شعر أنه يتنفس من جديد وهو يضع عريشة العنب والهائم البيضاء وراء ظهره. الوكيل مشى الى جانبه مطأطئ الرأس. كان كبير الأذنين الى حد أن شروالي بيك شرد وهو يعطيه التعليمات بخصوص طريقة التصرف مع المحابيس وصار يحدق الى داخل أذن عميقة ككهف.

«لكن سعادتك كيف يمكن ان يقطنوا وأيديهم مربوطة؟»

«لا، ستربطهم بطريقة أخرى. أنت اتبني لعمالك، قل لهم ألا يختلطوا بالسجناء وإلا... القتل!»

من تحت الأشجار الكثيفة أطلت الطابوير فجأة خارجاً الى الضوء. بلا همسة واحدة تنلر أنهم وصلوا! أحنوا ظهورهم لثلا يترقوا الأغصان المتدلية وعندما استقاموا وتجمدوا تحت حراسة البواريد هجم على الوكيل الحزن.

«المظاهر تخدع. أنت يهودي، صحيح؟ هؤلاء دروز من لبنان، الجبل المذكور في التوراة. لكنهم أسود كاسرة. الآن تراهم مريوطين مذلولين كالغنم لكن اقطع هذا الجبل واعطهم خردفاً وبلططات وأوقف جيشاً أمامهم وانظروا! هل تعرف ماذا فعلوا بجيرانهم المسيحيين في بلدكم؟ هؤلاء جيرانهم وأكلوا معهم!»

«أنتم على حق سعادتك. الآن يبذون مثل الأولاد لكن أطول.»

«الأولاد!»

زفر شروالي بيك وأمر رئيس الحرس بربط السجناء من الخصر فقط، كل مجموعة صغيرة بحبل واحد، وطرف الحبل يُربط الى شجرة ويحرسه جنديان أو ثلاثة. كان حصانه قد جُلب له. تلكاً لحظة وهو يراقب الدروز يحدقون الى الحصان بعيون واسعة ثم قفز. كان رشيقاً رغم أعوامه واعتدل على السرج ونظر الى الوكيل تحته.

«الأذان من جامع القلعة، تسمعونه هنا؟ جيد، عندما تسمع أذان الغروب ترسلهم، لا يهمني ماذا تفعل بعمالك بعد غياب الشمس لكن هؤلاء ترسلهم الي.»

«والأكل. معهم زوادة؟»

ضحك شروالي بيك وهو يهزم حصانه: «لكل واحد تفاحة.»

### (هيلانة - 3)

جارتها أم سمعان أرسلت أولادها الثلاثة للبحث عنه. سألوا هيلانة أين يبيع البيض هذه الأيام وأخبرتهم. برموا الأسواق ما بين الفسخة والبحر. كانت الطرقات غارقة في الليل والدكاكين موصدة. نزلوا الى المرفأ وسألوا عنه. تأخروا في الخارج وأبو سمعان انشغل باله وانتعل مئداسه هو أيضاً وخرج يبحث عنهم.

التقى بهم غير بعيد من جامع الدباغة يتكلمون مع نَدَافِ قطن تأخر في إقبال دكانه.

«أعرفه، أعرفه ومرات أشتري منه، حنا. لكنه لم يمرّ من هنا اليوم. أمس عند العصر رأيته، كان هناك يتكلم مع منصور الذي يبيع القهوة.»

نظروا الى البقعة الفارغة حيث يقف بائع القهوة عادة في النهار.

«تعرف أين بيته؟»

«بائع البيض؟»

«لا، منصور هذا، بائع القهوة.»

دلّهم. شكروه وأسرعوا بانجاه جامع النوفرة. نادى عليهم. «انتظروا. أنا أذهب معكم.» أقفل دكانه وهرع خفيف الخطى مع أنه يميل الى البدانة. طرّقوا باب منصور مراد. كان الحيّ ساكناً مظلماً وبدت الطرقات على الخشب مؤذية، كأن شيئاً سيئاً يحدث في هذه الساعة في مكان لا تراه عيونهم لكنه موجود.

### (عالم الحدود)

منذ يومهم الأول في البساتين بدأ يحيرهم لغز العالم الحدودي الغريب الذي يستي بلغراد. الصباح حمل على النسيم الغربي فرع أجراس الكنائس. لم يسمعوا الأجراس تدوي هكذا في حياتهم كلها. حتى حنا، وبيته على حائط كنيسة مار الياس الكاثوليك في

بيروت ولا يبعد إلا دقيقة عن كنيسة مار جرجس الأرثوذكس، تجمدت يده على عقود العتب وفتح فمه. تدفق الصوت من أعلى كأنه يخرج من كوى القلعة البيضاء التي تتوّج التلّ. هذا مستحيل ويعرفون ذلك لأنهم سكان القبر تحت القلعة. لاحقاً اكتشفوا أن الهدير بجيء من الجانب الآخر للتل، من السفح الغربي لبلغراد. رئيس الحرس راقبهم بعين صفر. مثل الوكيل الذي يسمّونه صامويل البلغاري، استغرب رئيس الحرس إقبال المحابيس على الشغل. قطفوا الكرم كأنه كرم أبيهم ولم يكسروا الفروع ولم يرموا العناقيد رمية في السلال. خيّم الصمت على الكرم بينما يقطفون كأن المكان خالي من البشر. طيور السماني التي بخرت هذه السنة أوشكت أن ترتطم برؤوسهم في عبورها. اخضت وراء أشجار بلوط تتباعد على جزر صغيرة وسط الدانوب. خلقت في الفضاء رائحة الخريف. حين بلغوا حافة الحقل عند الظهرية اكتشف رئيس الحرس أمراً أغرب: هؤلاء الدروز يتجنبون النظر الى القاطنات الموزعات في الكروم المجاورة! إذا دنت من مكانهم هتافية أو صربية حمراء الثوب عارية الذراعين حدّقوا الى التراب وتركوا رؤوس أصابعهم تقطف وحدها كما يفعل العميان! وقف ومشى الى نقطة تجمع فيها الجنود يتكلمون مع نساء ضاحكات يأكلن عنياً أكثر مما يلقين في السلال. نهرهم بفسوة وبعثرهم كالماعز الى مواقعهم ثم وقف وحيداً يسأل إحدى النساء عن أغنيتها. كلّمها بالتركية والصربية ومن العبارات الأولى عرفت من أين يأتي. بدت حلزة وهي تبتسم وتقول انها لم تكن تغني. ضحك متلماً حزام البارودة ونقله على كتفه. باعد ما بين قدميه كي يرتاح في وقفته أكثر. من جيب داخلي أخرج مسبحة بيضاء الحبات.

«بلى كنت تغنين، أنت ورفيقاتك هناك. هل أنا أطرش كي لا أسمع؟ وصوتك حلو أيضاً. لماذا لم تهربي مني مثلهن؟»  
 «لماذا نهرب؟ هنّ يقطفن في تلك الجهة الآن بسبب الظل.»  
 ضحك مرة أخرى: «الظل!» وبدأ شديد السرور. ابتسمت وראى أسنانها جميلة، متراسفة، مع فراغ طفيف بين السنين الأماميين.

«صوتك رقيق كثيراً ولا بد أنك تسعدين أهلك. لكن هذه الأغنيات يا حلوتي لا تغنى في هذه الحقول. هذا ليس نهر السافا، هذا الدانوب: التيار هنا أقوى. انظري هناك!»  
 بقرة ميتة متفوخة بالغازات بانت طافية على الماء والنهر يسحبها وبأخذها معه. علقت بين جزيرتين لكن الدانوب زحزحها وقلبها وجزّأها من جديد. سدت أنفها وهي تراقب البقرة معه وتشعر بخفقة في رأس معدتها. كان طويل القامة، وسيم الملامح. لكن ما أبهاها هنا لم يكن الا صوته. أيقنت أنه هو أيضاً يغني وانتظرتة كي يتكلم عن جمال صوتها من جديد. لم تخف منه.

«تحين الرقص أيضاً؟»  
 «تأخرت وإذا بقيت أنكلم معك ترعّل مني البقيات.»  
 استدار ورفع صوته موجهاً الأوامر بالتركية الى جنود منتصبين في أحد الجلول كالنزازعات بلا حركة. أتبهم بلا سبب وظلّ صوته جميلاً. استدار وبدأ ناعساً يوشك على النوم كأنه غير وجهه وهو يستدير. غنى لها هاسماً بالصربية الأغنية التي سمعها تغنيها حين هبّ الهواء قبل قليل.

«هنا تشرق مملكة الصرب/ هنا يسكن الحجل البرّي/ على حيطان بلغراد غربت الى غير رجعة المملكة العثمانية/ هنا تشرق

مملكة الصرب/ هنا تميل زهور اليليك/ سيفه المنتقيم كسر أميرنا  
 جورج الشجاع سيفهم الهلالية.»  
 «كيف تعرفها؟ أين سمعتها؟»  
 ضحك ناظراً الى وجهها يتلون بالأحمر.

## (عالم الحدود - 2)

الوكيل سامويل راقب مجموعة محابيس تقطف العنب في بقعة لم تُنظف من الأشواك كما يجب.  
 تجرّحت أيديهم. فرقوا تراباً على جروحهم وتابعوا العمل. أحدهم تلفت حوالياً ينظر باحثاً عند حائط الجبل عن شيء ما والجنود اقتربوا وهم يهزون البواريد. انتبه لهم وعاد الى قطف العنب مقفل الوجه ساكناً كحجر. الوكيل سامويل البلغاري غاب قليلاً ثم عاد وفي يده فرع طيون أخضر. ناوله للدرزي بلا صوت. هزّ الرجل الأربعيني المجعد الجبهة رأسه هزة طفيفة لا تكاد تُلاحظ. قطف من الفرع ورقة سميكة وفركها على الأصبع المجروح. بعد أمتار قليلة وجدوا حائط الجبل متداعياً ولا يتحمل ثقلهم اذا اصطفوا معاً. لم يسمعهم حتى يتبادلون الحكّي: تحركوا حركة شخص واحد وعثروا قسماً من الحائط الدكّ برمشة عين. لم يوقفهم الا هجمة الجنود الذين خافوا حين رأوهم يحملون حجارة.

نازلي هانم استمعت اليه بينما المساء يأتي ويغلف الوادي

بضباب خفيف أصفر. لم تسمعه من قبل يتكلم بحماس عن عمال  
أجراء. قال ان المحابيس أنجزوا في يوم واحد عمل يومين أو  
ثلاثة. «متعة النظر اليهم». ولم يرَ واحداً منهم يأكل بالسرقة، ولو  
حبة تين. «مع أنها ليست تماماً سرقة كونهم يقطعون». ابتسمت.  
مرّر اصبعه على حاجبه وسكت شاعراً أنه أكثر الحكمي.

«يخافون من الجنود.»

لم يعرف هل تداعبه بالكلام.

«أو لعل الباشا يتخهم بالطعام.»

قال صامويل انه لم يعرف مقدار جوعهم الا وقت الأكل.

«ماذا أطمعناهم؟»

قال صامويل انه أرسل شاول الى السوق كي يشتري خبزاً وان  
شاول تأخر وحين وصل وجلسوا للاستراحة الاولى والاخيرة في  
النهار عند شجرات الزان كانوا مبلولين بالعرق كأنهم غطسوا في  
النهر. اغتسلوا في الأحواض التي تشرب منها العاشية لأن رئيس  
الحرس عنده أوامر مشددة بمنعهم من النزول الى ضفة الدانوب  
خوفاً من ان يهربوا.

«الى أين؟ الى اسطنبول؟»

أضيتت القناديل. انعكس شعاع أصفر تحت الحاجبين  
الابيضين الكثيفين: العيان الصغيرتان تنعسان باكراً بعد نهار من  
العمل طويل.

«كانوا جائعين أذا؟»

«كسروا الخبز وأكلوه مع البصل والثفاح والعنب الذي وزعناه  
عليهم. أطمعنا الجنود أيضاً: رئيسهم أحمد البوسني تحلى بعد  
الطعام بنصف سلة تين.»

ضحكت ورأى انها على عكس ما اعتقد مستمتعة بالحديث.  
«أكلوا في لحظة وهم ينظرون الى النهر. الجنود لفوا تيباً  
ودخنوا. الدرّوز استلقوا على جنبهم على الأرض، حيث ربطوهم،  
وناموا عشر دقائق ثم قاموا الى القطاف من جديد. فلاحون  
حقيقيون.»

«تريدني أن أشتريهم من الباشا؟»

ضحكت نازلي هانم ولعبت بالحلقة الذهب في أذنها. ارتبأه  
دائماً يسليها. تكلم ناظراً الى الطاولة.

«كنت أراقبهم طوال النهار ولم أقدر أن أتخيلهم يقتلون  
ويحرقون.»

«قد أخرج غداً الى البساتين وأنظر. يمكنك الذهاب. وقل  
لشاول اذا تأخر مرة أخرى في السوق حسابه عندي.»

### (عالم الحدود - 3)

تعب حنا في الطريق الصاعدة. تعثر بقدميه ووقع على وجهه.  
ليس فلاحاً وجسمه المفكك لم يتحمل تعب النهار الطويل. تلكاً  
في نهوضه. الجو أحمر اللون والمصافير ترجع الى أوكارها.  
بطرف عينه أبصر ديك ماء يخفي منحدرأ باتجاه القصب على حافة  
النهر. الإعياء تنقل في أنحاء جسمه مثل قطيع ثقيل من النمل.  
يباض الريش الثلجي لديك الماء سبوح أمامه بينما يقوم والحبل  
يشده. رأى حارساً يقطع قضيب رمان من شجرة ويعزبه بالسكين

ثم يسوط الهواء. أُرِّ الفضاة وراء رأسه. حين خرجوا من تحت  
 عتمة الأغصان انكشفت السماء البرتقالية فجأة واقتحمت عينيه  
 كأنفجار البارود. على الطريق الحمراء أعلى التل دمعت عيناه  
 بسبب الغبار. أثناء النهار، وهو يحمل سلتي تنب ويتبع رائحة  
 الخبز حتى شجرات الزان الظليلة، تذكر لحظة من حياة قديمة  
 وأضاع مكانه في الزمن ولم يعد متأكداً أين هو ولا ماذا يفعل.  
 جذبه الحبل من جديد وانعطف الطابور وهذه المرة أوشك على  
 البكاء بسبب جمال الغيوم البيضاء- البرتقالية. سار كالتائم وحين  
 وقع جفناه على عينيه من الإرهاق ترك الحبل يدلّ قدميه. وذ لو  
 يُترك هنا كي ينام يوماً أو يومين جنب الطريق على العشب  
 الأصفر- البتي تحت السماء الشاسعة. سمع موسيقى وهتافات  
 أولاد ونساء. فتح عينيه لحظة ورأى مرجاً يتماوج بحشرات السماء  
 المشعة وغاية تتعلق من أشجارها مصابيح صفراء وناراً يتحلق  
 حولها الفجر ومجموعة غزلان مبقعة تطير في فغزات طويلة  
 وتختفي. عبروا أمام دكاكين حجرية مقلدة وأخرى ينقل أصحابها  
 البضاعة من أمامها إلى داخلها وهم يتلفتون ويراقبون الطابور  
 النعسان. حين بلغوا قنطرة القلعة أصغى إلى إحصاء الأسماء نصف  
 نائم.

«عيد الخالق الدويك؟»

«حاضر.»

«سلوم معضاد؟»

«حاضر.»

أصوات قريبة وأخرى بعيدة وهو يميل ويوشك على السقوط.  
 بدا له أن إحصاء الأسماء لن ينتهي أبداً.

«سليمان غفار عز الدين؟»

طال السكوت.

«سليمان غفار عز الدين؟»

لكزته يد في كليته كي يستيق.

«حاضر.»

انتبه أن صوته أيضاً يبدو بعيداً. كأنه يخرج من فم سجين آخر  
 في مكان آخر. حين دخلوا القبو انطرح في ظلّمة زاويته. غاص في  
 الأرض ونام كالحطبة على بطنه حتى الصباح.

#### (عالم الحدود - 4)

«ممتاز يا نازلي. أنا مسرور أنك راضية عليهم الى هذه  
 الدرجة. يجب الآن أن تعطي ضعف ما اتفقنا عليه.»  
 سكبت نبيذاً من جرة في كأسين. سقطت قطرات قانية على  
 المخدة البيضاء.

«أنا دائماً أعطيكم الضعف.»

مالت عليه مفتوحة الفم وتأمّلت تجاعيد وجهه. انتظرت حتى  
 وضع الكأس. ابتسم وسألها هل صحيح ما سمعه عن وكيلها  
 اليهودي البخيل؟

ضحكت وقالت انه أطعمهم قبل يومين عدساً مطبوخاً وبعد  
 ذلك سقاهم قهوة وانه أراد ان يوزع عليهم تبقاً لكنهم اغبروه أنهم  
 لا يذخنون.

«هذا صحيح. قوم عجيب. سأل شرأوالي واحداً منهم لماذا لا يتزوجون الا امرأة واحدة ما داموا يقولون دوماً انهم مسلمون؟ ردّ عليه ان كتاب الله أوصى ان نعدل بين زوجاتنا ونحن نخاف الا نعدل بينهن ولهذا لا تزوج امرأتين.»

«شرأوالي سأل؟»

«أعرف، أعرف، لكن شرأوالي عنده لحفظاته. وسأله هل صحيح ما سمعه أنهم مثل أهل الهند يعتقدون ان الواحد لا يموت حين يموت ولكن روحه تترك جسمه الى جسم طفل يولد في تلك اللحظة؟ أجابه ان هذا يسمى في لغتهم التقمص ومعناه ان الروح تبدل الجسم كما تبدل نحن القميص. وشرأوالي، اسمعي هذا، شرأوالي أجابه ان هذا هو سبب زواجهم من امرأة واحدة لأن الواحد منهم عاش مئة حياة على الأقل من قبل وفي كل حياة يأخذ واحدة فيكون المجموع مئة زوجة وهذا أكثر من اربع نساء بكثير.»

«صامويل وكيلي يقول انهم نادراً ما يتكلمون. وقت الطعام يأكلون ساكتين وهم يتأملون النهار»

وعندما يسمعون الأذان ساعة الغروب يتغير لون وجوههم الى أسود.»

«تريدين أن أتركهن هنا في الليل يا نازلي هانم؟ هل أنا الذي حبستهم؟ سأخبرك شيئاً لا يعرفه كثر: هؤلاء الدرور أتوا وحدهم الى الحبس. نحن لم نقبض عليهم. عندما ذهب الوزير فؤاد باشا على رأس جيش عثماني الى بيروت سعد وحده مع حراسه الى جبل لبنان واجتمع بزعيمهم سعيد بيك جنبلاط في داره وقال له: على الدرور الذين قاتلوا في هذه الحرب أن يسلموا سلاحهم ويقدموا أنفسهم للمحكمة التي ألفناها مع دول أوروبا. سعيد بيك أجابه ان

رجالهم جميعاً أخذوا الجبل ونزحوا ليلاً عبر المضائق الى حوران على حدود الصحراء وأنهم يجمعون الآن البغال والحمير للعودة الى بيوتهم وأخذ زوجاتهم واولادهم ومتاعهم لانهم لا يريدون حرباً مع مولاهم السلطان ولأنهم يخشون غدر الجيش الفرنسي. الوزير فؤاد باشا قال له أرسل لهم أن يحضروا اليّ الآن وعائلاتهم تبقى هنا في الحفظ والصون وأنا أحميها. وهذا ما جرى. من ثلاثة آلاف نزحوا الى حوران رجع ألف رجل وسلموا سلاحهم لفؤاد باشا. المحكمة فرضت على الدرور دفع تعويضات للمسيحيين وحكمت بالنفي على 670 درزياً. هم سلّموا سلاحهم. لماذا فعلوا ذلك؟ فلاحون حقيقيون، بقول وكيلك الملعون. جنود مرضوا من سفك الدماء، أقول أنا. بلا هذه السيرة يا نازلي. قلبت عندك بنت جديدة، أين هي؟»

#### (هيلانة - 4)

أظنّ منصور مراد بشعر منكوش ووجوه بقعه النوم حاملاً شمعة تتمايل شعلتها: «خير يا جماعة؟» ألقى أبو سمعان تحية متلعثمة وسأله هل يعرف حنا يعقوب الذي يبيع بيضاً؟ نقل منصور مراد نظرتة بين الوجوه الواقعة على باهه في هذا الليل وتعرّف على وجه موسى النّاف. لكن الحيرة لم تتركه: من هؤلاء؟ ماذا يريدون؟ هل مات حنا وأتوا بتعونه؟ لكن ماذا جلب النّاف معهم؟ «حنا جارنا، بيته حد بيتنا ولم يرجع اليوم. زوجته بالها مشغول عليه.»

«لم أَرَهُ اليوم.»

وقفوا بلا حراك ومنصور مراد تذكر فجأة بينما الشمعة تقطر وتحرق يده: «بلى، رأيت على وجه الفجر، صَبَحَ عليّ وصَبَحَت عليه، كان نازلاً صوب الخان الجديد، لكن لم أَرَهُ في النهار.»

«كان وحده؟»

«وحده.»

«ولم يقل لك أي شيء؟»

«كان مستعجلاً وذهاباً كالعادة الى العينا كي يبيع البيض.»  
من الباب الموارب تسربت رائحة حبوب بَرِّ محمصة لم تطحن بعد.

«المقطوع الأصابع؟»

«لا تقل هذا!»

سكت حنا وقضم قطعة الخبز. قبل أيام كان مربوطاً اليه بحبل ولم يعرف أنه أحد أخوته: يده اليسرى ناقصة الأصابع. انتبه لأنهما كانا يلقيان الثمر في السل ذاته.

«في الحرب؟»

«لا، ونحن صغار، علقت يده تحت حجر الطاحونة.»

## (عالم الحدود - 6)

استمر خروج المحابيس اليومي الى البساتين حتى اقترح شراوالي بيك الاستفادة منهم هنا، في ترميم الأسوار المتداعية على جهة نهر السافا. جودت باشا سحب نفساً مديداً من أرجيلته ثم نفخ كالتنين غيمة رمادية- صفراء غطت أبراج الكنائس المشكاثرة فوق بيوت سملين وراء النهر. من شرفة القلعة البيضاء بانّت القوارب صغيرة في الأسفل وهي تعبر من نهر السافا الى مصبّه في نهر الدانوب فتزيد سرعتها بغتة وتندفع متأرجحة كأن بدأ عملاقة غير مرئية لطمتها للتو.

«أنت تقرأ أفكاري يا شراوالي إيني!»

عند ملتقى النهرين، حيث يرتفع تل بلغراد كبيت سلحفأة بحرية تتّوجّه القلعة البيضاء، يلتف ضباب خردلي صامت أول المساء ويغمر السفح الغربي حيث يسكن الصرب في بيوت عمروها

## (عالم الحدود - 5)

«كيف صارت ريكيتك؟»

«أحسن بكثير.»

«لكنك ما زلت تعرج عليها!»

«لا. فقط آخر النهار. تتخز من المشي.»

للمرة الأولى منذ بدأوا العمل في البساتين وجد حنا نفسه مربوطاً بحبل واحد مع قاسم. لم يكن يعرف الستة الآخرين في المجموعة لكن قبل أن ينتهوا من قطف شجرة التفاح كان حنا قد حفظ أسماءهم. تحت شجرة أخرى دلّه قاسم الى أخيه بشير ثم الى أخيه نعمان. لم يعرف شكل الأكبر بينهم حتى جلسوا للراحة والأكل: «عند الحافة هناك، جنب القصب، محمود.»

باحة القلعة وأخبرهم أنها 64 درجة. في اليوم الثاني أحصاها مرة أخرى كي يتأكد ووجد أنها 68 درجة.

«زادت أربع درجات في ليلة واحدة؟»

في الظلام الكامل سمعوا نبضات الدم في رقابهم وظلوا ينتظرون قدوم الحارس الكلسي الرائحة حتى فقدوا الأمل.

«الشمس تغرب الآن.»

عرفوا الوقت من قرقرة معدهم الفارغة. لم يجلبوا لهم طعاماً اليوم. بدأ أحدهم يقرع رأسه على الحائط وقيل أن يُنهر توفع وحده.

«الخطأ منا. لو اشتغلنا أبطاً كان القطاف استغرق وقتاً أطول.»

«الجلول التحتانية على النهر كلها ما زالت غير مقطوفة.»

«عندك سبعة جلول غير الجلول في الجهة الثانية، والجلول وراء القصبات أطول، كل جبل فيه على الأقل 42 شجرة.»

ضحكوا في الظلام لأنهم عرفوا أن هذا محمد حسن أبو مطر. عادة متأصلة فيه: يحصي كل شيء. حين يعبر سرب البجع أول الخريف في سماء الجبل تناديه زوجته ضاحكة كي يعدّ البجعيات. قيل عنه في بلاد الشوف انه يحصي حبات الفاصوليا في صحن الطبخ ثم يأكل.

«رأيت في المنام أنني رجعت الى البيت في الليل. قبل أن أصل الى العتبة رأيت المرحوم والدي في الداخل. عرفته من بياض ذقنه. كان وحده. وضوء أصفر خفيف يتحرك على الأرض.

قدم يبتنا شجرة توت، وقفت وراء الشجرة.»

او إتاعوها بثمان التراب من يوسنيين وأترك ومقدونيين نزحوا أثناء السنوات الأخيرة الى السفح الشرقي للمدينة أو الى أماكن أبعد داخل السلطنة.

«نرم هذه الأسوار أو نحمل بلغراد على مراكب الدانوب من هنا الى البحر الأسود... الى أسطنبول.»

«لا سمح الله سعادتكم، لا سمح الله!»

«من يعلم يا شراوالي، من يعلم، أنا أعرف زواريب سمليين كما أعرف الخطوط في كفي هذه، أحفظ بيوتها بيتاً بيتاً، أبي الله يرحمه بنى محراب جامعها بيديه، أنا ساعدته في نشر ألواح الخشب، والآن انظر إلينا، نرميها بالحجارة لكن لا نقدر أن ندعس فيها بلا ورقة إذن من الجمر كالتساوي!»

طارت عصافير الدوري مسسقة فوق الشرفة وعبرت المياه وتلاشت في سماء سمليين.

### (القبو)

استيقظوا في الوقت المعتاد وانتظروا. لكن القفل لم يقرع والباب لم يتحرك.

«لعلها تمطر!»

أصاخوا السمع لعلهم يسمعون وشيش المطر مع أن هذا مستحيل وهم يعرفون ذلك: القبو عميق جداً. أحدهم - هذا محمد حسن أبو مطر صاحب سهل السمقانية - أحصى في اليوم الأول لخروجهم الى البساتين عدد الدرجات من قم الدهليز الى



ناموا جائعين. ظلّ يسمع الأصوات في الليل وعندما شعر بحركة فوق رأسه فتح عينيه.

«أنت نام؟»

«لا.»

«النوم صعب.»

«تظن أنهم يخرجوننا غداً؟»

قاسم لم يرد.

«تظن يجلبون لنا الأكل غداً؟»

طلق قاسم مفاصل أصابعه. من الجهة البعيدة سمعوا شخيراً. انطلقت الأصوات وهجج القبو لكن قاسم بقي جالساً. عرف من أنفاسه أنه يفكر في أشخاص ليسوا هنا. ظلّ ساكناً حتى حرك قاسم ساقيه. الأطراف تخدر وتنام وحدها.

«أنتم خمسة أخوة؟»

«صرتنا خمسة، كنا سبعة.»

«وعاتلتك كبيرة؟»

«صبي وبنت.»

«وأخوتك كلهم عندهم أولاد؟»

قاسم لم يرد. حنا لم يعرف هل سمع سؤاله. كانا يهتمان في الظلام المخنوق الرطب وحنا شعر بحزن فطبع يكبسه نزولاً. أوشك أن يبكي وهو قاعد جنب الجثة الكبيرة للبرزي الذي يُدعى قاسم.

أصغى حنا يعقوب الى الصوت ولم يعرف من يكون صاحبه. لم يتمكن من ربطه بوجه محدد. استعرض في خياله الوجوه التي حفظ قسماً منها بين الكروم وتحت الشجر وحاول أن يضع الكلام في احد الأفواه الكثيرة. وجد ذلك صعباً. نادراً ما يتكلمون معه. يسمع النهر وهو يقطف الخوخ لكنه لا يسمعونهم. بدأ الرجل مبحوراً كان سعالاً مزمناً أذى خياله الصوتية. لكنهم جميعاً يسهلون في هذا القبو وحنا يصبق دماً في أحيان كثيرة. الصوت منخفض لكن القبو ساكن ككثير، وحنا عرف أن الجميع مثله: يصغون كي يعرفوا ماذا حدث.

«كنت أخفي نفسي وراء الشجرة ولا أعرف هل أتقدم وأطرق الباب أم أدخل هكذا من دون أن أقرع. بقيت متردداً. في هذا الوقت تحرك ضوء القنديل ورأيت أبي واقفاً في لباس النوم يخرج الى الباب وينظر الى العتمة: «من هناك في الخارج؟» سمعته يسأل ولم أرد عليه. كان وجهه صويبي يمسح البرية بنظرته. انحنيت حتى صرت على التراب كي لا يراني. «من هناك؟» رأيتة يرفع ذقنه ويميل بخره كما يفعل الأعمى ولم أفتح فمي.»

حنا سمع الأنفاس شبه مجبوسة. انتظر لكن أحداً لم يسأل الرجل ماذا حدث بعد ذلك. فتح فمه لكنه عجز عن الحكى. في الظلام الدامس حدس أن غيره أيضاً يفتح فمه الآن ويمجج عن الحكى. اذا كانت الشمس تغرب فهذا يعني أنه أول المساء وهيلانة تركض وراء الدجاجات كي تبيها في الفن.

استمرت الأنفاس تُسمع في هدأة القبو ثم تحرك قاسم من جديد وابتعد في الظلام.

•

سمعوا القفل وقاموا واقفين. لكن الحارس سدّ الطريق بالسطلين القديمين وخرج. جلسوا بلا صوت. نزعوا مئاساتهم. لم يمد أحد يده الى الأكل الا بعد زمن. عندما امتلأت «الجورة» ولم يأت الولدان العبدان لإفراغها حاولوا أن يتكلموا مع الحرس. لكن الحرس هنا بلا أذان. والحكي بالإشارة مستحيل في الظلام. باتت الرائحة قاتلة ثم شعروا بالأرض تترطب. الحارس عرف وحده وجلب مع سطلي الأكل سطلين آخرين أكبر حجماً. رمى على الأرض شيئاً معدنياً واختفى: في الظلام الخائض حدقوا الى النقطة حيث استقر الرفش.

«ربنا يحرقهم بنار جهنم ويبدل جلودهم مرة أخرى ويحرقهم من جديد.»

«هذا الرفش قصير!»

«من يبدأ؟»

حنا يعقوب تراجع في الظلمة وجرب أن يدخل في شقوق الحائط.

«من يبدأ؟»

«أنت الذي سألت يا شيخ حمزة!»

ضحك الرجل الذي قالوا انه الشيخ حمزة.

«صحيح، أنا سألت ولهذا أنا في نهاية الدور.»

«الأصفر في السن أولاً.»

«اذبحوني ولا ألمس الرفش!»

«من هذا؟»

«أنا حمد السعدي من يتلون.»

«أنت إين الشيخ السعدي؟»

حنا أدرك من سكوتهم أنهم يتكلمون عن شيخ مشهور في بلادهم.

«كم عمرك يا حمد؟»

«15 سنة يا شيخ مهراڤ.»

«أنت لڤ تلمس الرفش يا ابني. حفيدي أكبر منك. أنا أنظف عنك عندما يصل الدور اليك.»

«لا يا شيخ مهراڤ. أنا لا أقبل.»

«ماذا تفعل إذا يا إبني حين يصل الدور إليك؟»

«هاتوا الرفش!»

## (هيلانة - 5)

أطلت أم سمعان من النافذة عند الفجر وعرفت أنه لم يرجع أثناء الليل: رأت هيلانة واقفة في الباب المفضي الى السوق وجسمها يعميل في العتمة الخفيفة الى امام ثم يرجع الى خلف. لبست وخرجت. وجدت هيلانة حافية القدمين تكاد لا تبصر من شدّة احتقان عينيها. خافت أن ينقطع حليب صدرها. جرّتها من يدها وأقعدتها على العتبة. شعرت بالطفلة النائمة. هيلانة تناوت من جارتها ابريق الماء لكنهما لم ترفعه ولم تشرب. كان الضوء يطلع. أم سمعان نهضت وجلبت فردة نعل من امام القن ووقفت

حائرة تبحث بنظرتها عن الفردة الأخرى. مرّت الثواني طويلة كساعات وفي النهاية قامت هيلانة ودخلت البيت.

«تعالني معي!»

وقفت هيلانة بين الحيطان المظلمة تضم الطفلة النائمة الى صدرها. ساعدتها جارتها ومسحت وجهها وأجبرتها أن تجرع شربة ماء. «تعالني!» سحبتها من يدها حتى باب الخوري على الحائط الآخر للكنيسة. قرعت وانتظرت.

«بسم الأب والابن والروح القدس من يدق الباب في هذه الساعة؟»

«أنا جارتك أم سمعان مخول ومعني جارتك أم بربارة.»

«الباب مفتوح.»

دفعت ام سمعان الباب. اهتز وأقلت من إبطاره وانفتح عن رجل يقوم من فراشه وهو يرسم اشارة الصليب. بدا أبونا بطرس طاعناً في السن وهي تراه للمرة الأولى بلا الجبّة الكهنوتية. في الوقت نفسه بدا يافعاً جداً، مضطرب الحركة، لا يعرف كيف يتصرف وماذا يسأل الآن.

«حنا زوج هيلانة لم يرجع أمس الى البيت. ولا نعرف أين هو. أبو سمعان والأولاد فتشوا عليه الأسواق في الليل. آخر واحد رآه بائع القهوة منصور مراد. رآه نازلاً صوب المينا ومعني البيض ولم يره يرجع.»

«لعله رجع من طريق أخرى.»

«ألم تسمع يا بونا ماذا قلت لك؟ حنا حتى الآن لم يرجع الى البيت!»

أبونا بطرس ساعدها. لبس الجبّة وربط الزنار. بلّ منديله بقطرة ماء لأنه حذس من جفاف أنفه أن الصباح سيكون مغبراً. النقط الشمسية البيضاء التي أهدها إياها الخواجة اسكندر سرتق وخرج ودار في المدينة مع المرأة المسكينة المحمرة العينين. هيلانة لم تنتبه الى الرداء الكهنوتي يتبع بالعرق لأن العتمة غزت عينيها. قال الخوري «اصبري الآن نجده»، وسار أمامها الى «الزندان».

لم تفزع من الجنود المصفوفين أمام القشلاق لأنها لم ترهم. حتى الأصوات لم تسمعها. عبروا وسط جماعة من الرجال الصغار وأحدهم استدار وتأملها. أرسل خلفها صفارة ولفظ كلمات وقعت كالجمر في أذني الخوري. «الربّ يرحم الخطاة ويتنقذ من مصير سدوم وعمورة.» سمعت كلام الخوري لكنها لم تفهم. «لماذا تركته يخرج؟» هذا السؤال يدور كالطاحونة في رأسها. طوال الليل لم يرحمها السؤال نفسه: «كيف تركته يخرج؟» كانت ترى حنا في عيالها خارجاً من البيت وترى البيض يقع على الأرض ويتكسر بينما شعر حنا يشيب ويصير أبيض. «لماذا تركته يخرج؟» الخوري قال «اصبري» لكنه لم يجد حنا. دخل الى الحيس وألقى سلامه المسيحي على الجميع وأخذ اعترافات سجناء بالجملة خاتماً كل اعتراف بالسلام عليك يا مريم وبشارة الصليب يرسمها في الهواء العطن مقاوماً هجمة الحساسية. نُبّه أحد الحراس: «بسرعة يا سيدنا.» وهو يلقط قملاً عن صوف الجبّة. انتظرت هيلانة حتى دار على المحابيس جميعاً وخرج. «ليس هنا!»، قال أبونا بطرس متضايقاً. يعرف حنا، يكرّ له مودة خالصة، ولا ينسى أنه طالما تناول من أصابعه الرشيقة بيضاً مقشراً. وقف حائراً ثم فتح الشمسية كي يتقي أشعة تفلح قبة

الرأس. «الى الخان»، قال ثم أسرع وهي تتبعه كظله. لم تشعر بخدر ذراعها: ظلت تهدهد برياره. ابتعد من درب حمير محملة بالبضائع ومرّ أمام دكاكين باب إدريس كالمهم مخترقاً الزحمة. ردّ التحيات من دون أن يتوقف وحزن لرؤية مهجرين من الجبل قاعدين كالتحاذين في أسمال عند أحواض الدواب غير بعيد من المرفأ. صلّى طالباً الرحمة وأحنى رأسه داخلاً تحت فناطر. أوشك أن يزلق ويسقط على بلاط الرزاق بينما يقفل الشمسية. سمع أنيناً في أحد البيوت ولعن الشيطان وهو يفرك وراء أذنه. الخواجة نعيم طراد استقبله بالترحاب أمام باب الوكالة. طلب له وللمرأة المنكوبة ماء وفهوه وأجلسهما على الكراسي. أصغى وحين سكت أبونا لمعت شرارة في عينيه الخضراوين: «أمس عند الفجر تقول، كان هنا! أمس طوال الصباح كان المينا مقلوباً رأساً على عقب!»

«لماذا؟»

«ترحيل الدروز. أمس أخذوهم من هنا.»

مهمة صعبة. بين اليقظة والنوم أدرك أنهم سيقضون واحداً تلو الآخر ممددين بلا صوت هكذا، وهو معهم. يختنق كما اختنق أبوه؟ بدا له هذا مقروراً سلفاً منذ تلقى الضربة الأولى في ميناء بيروت. وربما تفرّز كل شيء قبل ذلك: بينما يقطع الرزاق المسقوف المظلم تحت الخان الجديد، أو بينما يودع هيلانة في ذلك الفجر جاهلاً أنه لن يعود.

عندما تراصفوا في الباحة وجدوا العالم متبدلاً. مطر خفيف تساقط منتظماً على رؤوس نبت عليها الشعر من جديد. كانت الأرض مرصوفة مبتلة لا ترتفع منها ذرة غبار. القلعة كلها بانث مفسولة شبه رمادية مكسورة الرهبة لا تنلر بشراً. الغريب أنها بدت مهجورة أيضاً. الحامية التركية في بلغراد بنوف عندها على خمسة آلاف جندي. يعجبون عادة بين هذه الحيطان كسرب دبابير تسلط على قفير نحل مملوء عسلاً. أين ذهبوا؟ هل ثار الصرب مرة أخرى؟ من الأسوار أطلت عليهم بواريد قليلة. بينما ينتظرون الحبل الذي سيقيدهم في صف طويل انشغلوا بمساعدة بعضهم بعضاً على قطف القمل.



أطلّ جودت باشا من شرفته ورأى المحاييس يرفعون حجارة ويرمون قسماً من الأسوار القريبة من النهر. في جهة أخرى رأى جنوداً يقودون بغالاً تجرّ صخوراً. لا يستطيع أن يرى المقالع من هنا لكنه يستطيع رؤية المقبرة والشواهد والمنحدر الكلسي الفاحل والخوازيق الباقية حيث عُلفت رؤوس العصاة سنة بعد أخرى. عبرت طيور السّماني وطوى الهواء صفحة المطر. ابتلّ وجهه بالرداذ البارد. تراجع الى خلف مرتعشاً وحس يدنو آلام ظهره

### (حيطان جودت باشا)

حين قنطوا من رؤية الشمس وظنوا أنهم طُمرّوا أحياء أخرجوهم. مكتوب لنا في اللوح المحفوظ ألا نلحق المرحوم غانم أبو غنام بهذه السرعة! هنا سمع كلامهم وهم يرتقون الدرج الذي لا ينتهي. انتبه الى طنين أذنيه. منذ فترة لا يتكلمون في القيو. مرّت الأيام عليهم ثقيلة وطحنت عظامهم. حتى الأكل بات

وكثفيه. كالعادة قرر جودت باشا أن يهاجم المرض بدلاً من الاستسلام له: نادى على خادمه وطلب التحضير بسرعة لرحلة الصيد.

«في أي وقت؟»

«الآن الآن.»

أراد أن يقضي فترة بعد الظهر بعيداً من هنا. بينما يكمن وراء أشجار البتولا ساعة الغروب سأله شراوالي عن ظهره. رمقه بنظرة شرسة من تحت حاجبين بلون الثلج وأسكنه. انتصبت أذبال كلاب الصيد. مرّت عصافير صغيرة لكنه تركها. كانت المشكاة متفلة بالسماهي والهداهد الآن والطيور لم تعد مرئية في العتمة. غير مكتمه وهو يشرب جرعة ماء. شراوالي بيك أدرك أن الصيد لم ينته وأن الباشا ينتظر الحجال ودجاج الأرض: فقط في هذا الوقت، عند دغشة المساء، تخرج. بعيداً فرقت بواريد. ثم ساد السكون. لم يكن نقيق الضفادع بدأ بعد. لم يصب الدجاجة البرية الأولى لكنه أصاب الثانية ثم الثالثة. قوّص على الرابعة في الظلام لامحاً حركتها لمحاً والكلب السلوقي الباقى معه منذ الحملة الأخيرة وراء الحدود انطلق كالسهم ركباً الهواء ورجع برمشة عين وطرحها على الجراب الجلد أمامه. ناوله قطعة سكر. لعق اللسان الحار كته. شعر أن ألم ظهره اختفى تماماً. في طريق العودة رأى ناراً مشتعلة في سقف قش لأحد الأكواخ. «هذه المداخن الخشب مصيبة!»، قال شراوالي. اختار الباشا أن يهز رأسه ساكناً لثلا يطرد بالحكي سكبنة تغمره. أطلّت مصابيح القلعة كأنها تتعلق من السماء. مرة أخرى بدأ الرذاذ يتساقط.

## (حيطان جودت باشا - 2)

لكن المنظر ذاته واجه عينيه في الصباح. الحركة البليدة للبخال والبشر. والأسوار التي لا ترتفع أبداً. بدا له من شرفته العالية أنهم لا يرمون السور كما أمر: بدا أنهم يبنون حائطاً داخل السور. وإذا انتهوا من بناء هذا الحائط هذه السنة قضوا السنة الآتية في بناء حائط ثان داخل الحائط الأول. وفي السنة التي بعدها يبنون حائطاً ثالثاً على قلبه! محكوميتهم عشر سنوات وإذا ظلوا أحياء يرى الحيطان تأكل الباحة! سحب نفساً عميقاً من أرجيلة الصباح المخدرة لألامه. لفت العباءة الصوف على جسمه. في هذه النقطة: حيث تلتقي الرقبة بالكتف يبدأ الحريق. ثم يلف ويقبض على كتفه ويعصر أنفاسه. لكن أشنع من ألم المفاصل ما يحدث لقلبه: كأنه يغرق في بركة سوداء، مثل تلك البركة التي رآها وهو صغير وظلّ خائفاً منها حتى بعد أن أخبروه أنها جورة تُلقى فيها بقايا الزيتون السوداء بعد سحقه لاستخراج الزيت في المعصرة. كانت راكدة قائمة كثيفة. أحد الأولاد ربط جرواً بحبل ورماء والبركة ابتلعت الجرو وظلوا يسمعون نباحه من أعماق الكتلة السوداء ثم سكت. ها هم يتحركون مثل نمال بشرية في الأسفل. مرات يحسدكم! في أبدانهم قوة ولا يفهم كيف يخرجون من الأرض صباحاً بعد صباح!

«أشعر انتي أشيخ باكرأ يا شراوالي.»

«هذا سيبه المطر سعادتكم.»

«لا يا شراوالي، هذا سيبه الزمن.»

«تقصد العصر الصعب الذي تعيش فيه سعادتكم؟»

«لا يا شراوالي، أقصد السنوات التي أحملها كالجثث على ظهري.»

بسرعة فظيعة رأى شراوالي بيك الباشا يتهدم. راقبه ينظر طوال أسابيع إلى محابيس وجنود يبنون الحيطان تحت المطر الخفيف الأسود. صلّى أن تشتد الرياح وتعصف، طلب البرق والرعد والسقوط الغزير المجنون للمطر، لعل توقف الورشة في الأسفل يبعد عن الباشا كآبته. استمر الرفاذ الرمادي الغريب. صلّى عندئذ أن تزول الغيوم وأن يحلّ الصيف باكراً. ما أفلقه ثم أفزعه كان توقف الباشا عن الخروج. حاول أن يجلب له خبراً يبعث فيه الحماس: «أسراب من الورّ الشتوي شاهدها الجنود أمس وراه الغاية، حيث يتسع مجرى الدانوب.» أجابه الباشا ب مهمة ثم قلب شفته السفلى وأغمض عينيه. أرسلت نازلي هانم رسولاً يسأل عنه ويعلمه بوصول أفراس جديدة من وراه الجبال. فتح عينيه لحظة، يبطء مثل بزافة، ثم عاد إلى اغفائه. شراوالي تسللت إليه الكتابة حتى صار يجلس مثله بلا صوت على الشرفة المسقوفة ويتأمل بينما - أرجيلة الباشا تقرقر- المحابيس العمال في الأسفل يربطون الحبال حول الحجارة ويرفعونها بالعجلة الحديد على السقالات الخشب. الباشا لا ينزل إلى تحت ولعل النزول يفيد. وصف له شراوالي إقبال الدروز على الشغل. كانوا في حماسة دائمة للخروج من الأقيية ونقل الحجارة وتعمير الحيطان، حتى تحت المطر، مع أن المطر فيه خطر، وقبل أيام انزلت صخرة وأفلتت من الأيدي الرطبة وسحقت واحداً منهم كأنه حشرة. غاص في الوحل وحين أفلحوا أخيراً في دحرجة الصخرة عنه وجدوا وجهه مبعوجاً إلى الداخل وأضلاعه نافرة من جانبيّ قصه الصدري

بسبب الضغط. هذه المرة سمحوا لهم بساعتين كاملتين من الراحة وعينوا لهم بقعة في المقبرة القديمة المحطمة الشواهد كي يدفنوا صاحبهم القليل الحظ. راقبهم شراوالي بيك يقدمون التعازي بعضهم إلى بعض واقفين تحت شجرة تين برّي عارية الأغصان، بينما الورق الأصفر-البني يغوص في الوحل تحت مدامساتهم. وجد المتظر راقباً للمعنويات وأراد إيقاظ الباشا من قيلولته كي يتفرج لكنه خاف وقوع الغضب على رأسه.

«يعملون بلا توقف. نوزّع عليهم الطعام ثلاث مرات الآن. وإذا أصلحوا الزرائب القديمة وإذا سمح سعادتكم تنقلهم إليها للنوم. في الشتاء القبو يصير مقبرة.»  
«السماه همدنا يا شراوالي. انظر كيف تشع الشمس على سملين!»

رفع شراوالي بيك وجهه تاركاً المحابيس في الأسفل ورأى أن الشمس اخترقت فعلاً طبقة الغيوم فوق النهر وألقت عموداً عريضاً من الضوء على بيوت سملين.  
«كي أرى بعينيّ الإثنين كل ما خسرت!»

### (حيطان جودت باشا - 3)

لم يفهم ماذا يهّمه في سملين! صغيرة وقمينة ورملية الحيطان ولولا قربها من بلغراد لم يسمع بها يوماً أحداً! صار يمقت الساعة التي يقضيها مع الباشا على شرفته. شعر أن المرض فيه فتاك وأنه يعدي أيضاً. رأى يعيل على الدرايزين الخشب وينظر إلى قارب أفلت

وفي جوف الصندوق الروسي المقطوعة والمحتطة لأعدائه.  
دفنوه في يوم كتيب ماطر وطمروا خزنة الروس معه.

#### (حيطان جودت باشا - 4)

هالوا التراب على الحفرة العميقة. الرفوش طويلة المسكات  
والهواء بارد نظيف. لكن الوحل ثقيل.

بعد الدفن اغتسلوا عند البركة وراء الزرائب التي باشروا  
ترميمها. منذ حادثة الصخرة صاروا يعملون بلا حبل يعيق  
حركتهم. حلفوا أمام شراوالي بيك حلفاً جماعياً صادقاً أن أحداً  
منهم لن يجرب الهروب فأمر بفك قيودهم. بعد فترة قصيرة، في  
يوم عاصف غير صالح للعمل، أخرجوهم ظهراً من حسيهم الجديد  
كفي ينظروا الى جندي بوسني فلاح قبض عليه وهو يفرّ من الخدمة.  
رأوا رجلاً زافع العينين ضئيلاً مبلولاً كخروف تصطك أسنانه على  
نحو مسموع. بينما يحرس قبيل الفجر غافل رفاقه الجنود النيام  
وركض على طول المنحدر وجرب أن يعبر النهر. يبدو أنه أساء  
تحديد الاتجاه ذلك أنه عند خروجه من الماء وجد بارودته التي  
تخلى عنها أمامه على الأرض. كانت القلعة مضغضة بلا الباشا،  
وهكذا أفلتت مخيلة رئيس الحرس، البوسني أيضاً، من العقال:  
بدلاً من العقاب التقليدي أشرف أحمد البوسني الجميل الصوت  
على بتر قدمي الجندي الفار «لأنه على قدميه ركض من نقطة  
الحراسة الى النهر»، ثم على بتر يديه «لأنه بيديه سبح عبر النهر  
الذي رده بمشيئة الله الى هنا»، وفي الختام قطعوا رقبتة. جرى

من رباطه وطفًا بلا صاحب على الدانوب. كان التيار يعضي به  
شرقاً ويبتعد والباشا ظل يراقبه حتى اختفى. مرة أخرى بذل  
شراوالي جهداً كي يرفعه من فنوطه الشتوي: «الصرب يشعرون  
بالقلق والخوف ويقولون جودت باشا يخطط لأمر رهيب.» تكلم  
ناظراً الى رقبة الباشا لا الى وجهه. بطرف عينه رأى طيوراً تحلق  
حائرة فوق الورشة التي لا تتوقف. صلى كي يسمع صوت الثعلب  
القديم يرذ: «أنت تقرأ الأفكار يا شراوالي! لكن الباشا لم يفتح  
فمه. زحف ضباب المساء على بلغراد وتعالى أذان العشاء من  
الجامع وراء رأسه. أضيئت المصابيح في نوافذ سملين. لم يتحرك  
الباشا. أحس شراوالي بالجوع. من الأسفل تصاعدت رائحة عظام  
دسمة تغلي في قدور عملاقة.

«لا أعرف يا شراوالي، لا أعرف!»

انتظروه كي يشرح لكن الباشا لفظ مع كلماته الغامضة النفس  
الأخير. ترك وصية مفصلة البنود ذكّرت أصدقاءه القدامى بميله  
الى الخطط والخرائط وبدفته في التصويب. وزع أمواله وأملاكه  
بالتساوي على زوجاته الأربع الشرعيات وعلى أبنائه وبناته وخص  
معارف وأقارب بهدايا رمزية وميّز نازلي هاتم بأعلى مقتنيات:  
مجموعة باهضة الثمن من الخناجر. أوصى أيضاً بكيس نقود  
لجامع سملين المتداعي على أن يُسلم باليد الى إمام الجامع  
الضريير كون المسلم لا يُلدغ من جحر جمرك التمس مرتين. طلب  
أن يُدفن في قلعة بلغراد، «رأس حرية الباب العالي». لم يأت  
على ذكر الخزنة الأسطembولية الخاصة التي رافقت في جميع  
أسفاره: كانت صندوقاً كبيراً مصنوعاً من خشب الكرز - الذي  
تُصنع منه الغلايين عادة لأنه يظل بارداً ولا يسخن أثناء التدخين -

الدم أسود غزيراً من الرجل. ضاع صراخه في الرعد والمطر. لكنهم حين عودتهم الى جوف الزرائب ظلوا يسمعون أتيته. هذا مستحيل لأن رأسه تدحرج أمام عيونهم. جلسوا في نقط اعتادوا الجلوس فيها خلال الأيام الأخيرة وحدقوا الى شقوق السقف التي يدلف منها الماء. الأئين لم يتوقف. عندما وقعت الفأس المستونة على يده الباقية انفضت اليد المقطوعة على الوحل: كأنها لم تنس الجسم الذي فصلت عنه! كلاب الصيد المقيدة في الجهة البعيدة نبحت كأنها أصيبت بمس وهي تشمّ الدم وتغزّ الى أمام وتكاد أن تحزّ رقابها. كُتت عن التباح لكن الأئين لم يتوقف. سلسلة بروق أضاءت وجوههم المقلقة الصامتة. في زاوية تكوّم حنا يعقوب على نفسه مغطياً رأسه بذراعيه.

خرجوا الى العمل في صباح متباعد الغيوم بارد النسيم. وجدوا الحيطان التي بنوها واقفة تنتظرهم. انهمكوا في رفع الحجارة وبينما العرق يتصبب من أجسامهم انطلق الأئين. بعد فترة غير طويلة وصل راسم باشا. استبشروا خيراً لأنه صهر الوزير فؤاد باشا المحب للدرّوز.

### عهد راسم باشا

بنوا الحيطان طوال عامين. وعندهم راسم باشا اذا أخلصوا في خدمته وخدمته الدولة العلية أن يتوسط لهم في أسطنبول لتقصير مدة النفي الى أربع سنوات. أعطاهم وعده في يوم شمس أزرق السماء أعقب أسابيع مظلمة من الثلوج والجليد. ثلاثة منهم يتقنون التركية

حضرُوا أمامه ممثلين للجماعة كما طلب. باغتهم وتكلم بالعربية. بدا فكه السفلي متصلياً كأن أضراره متضخمة في فمه. سألتهم عن طلباتهم. قالوا «الله ينصر السلطان نطلب رضى الله ورضى السلطان ورضاكم». هزّ رأسه الطويل وسألتهم هل عندهم غير هذا الطلب؟ «ردونا الى الجبل!» أدهشته نبرة الرجاء العميقة. نظر الى الرجل الذي تكلم منفرداً وعلى عجل. كان يلتف بعباءة مهلهلة مقلمة بالطول، يحيي رقبته كأنه يتألم، ويميل بأحد كتفيه الى أمام كأن الذهب المنبت من مدفأة الحطب يضايقه. سأله عن اسمه لأنه لم يحفظ الأسماء حين دخلوا ولأنه يحب أن يسأل عن الأسماء كأنه يظلم ينساها بسبب مشاغله. «أنا محمود غفار عز الدين، خادمكم.» مساعد الباشا انحنى وهو يبت عدسة فرنجية على عينه اليمنى ويمد ورقة. «عرفناكم شيخ محمود، 37 دعوى ضدك، ومعك أخوتك هنا، خمسة أخوة في حبس بلغراد، أنتم قبيلة كاملة، المقروض أن تشعر أنك في بيتك!» ضحك الباشا ورذ الورقة الى مساعده. الثلاثة تجمدوا ينتظرون كلمته بينما العرق يتشكل في قطرات حارة حول عيونهم. «جناب عمي الوزير فؤاد باشا حفظه الله مسرور من أعيانكم وعامتكم في جبل لبنان لأنهم وعدوا وصدقوا وجمعوا أموال التعويضات وأعطوها للمجلس. لولا الدم الذي ما زال ساخناً كنا نردكم الى أهلكم وأرضكم اليوم قبل الغد. لكن هذا غير ممكن. أرجعنا النصارى الى بيوتهم وهؤلاء جيرانكم والحائط على الحائط وإذا شاهدوكم في الطريق تشتعل الحرب من جديد. لهذا قررنا إبقاءكم هنا زمناً بانتظار أن تهدأ الخواطر ويبرد الدم في الرؤوس. ثم نردكم.» الله ينصر السلطان.



بالخروج. دخل جنديان ملتفان بجلود غير مذبوغة وحملوا الجثة وخرجوا. انقلقت البوابة كأنها تتحرك وحدها. وجدوا المكان غريباً بلا الشيخ أبو هرموش. كان أكبرهم سناً، قليل الحكمة، في وجهه سماحة أحياناً، لكنه صارم الرأي سريع الغضب إذا رأى شيئاً لا يعجبه. اعتاد أن يلطم فخذَه إذا تضايق: حين حملة الجنديان إلى الخارج حضرت حركته هذه في أذهانهم وشعروا بضييق. كان الميت الثالث في بلغراد بعد الأول الذي كسر رأسه على حائط والثاني الذي وقع حائط عليه.

مقابلة الباشا وضعت حدّاً للموت برداً: سأل الثلاثة بينما يتراجعون خارجين عن أخيهم الذي مات قبل يومين، ماذا كان مرضه؟

«لم يكن مريضاً حضرتكم، لكننا جئنا إلى هنا بثياب الصيف. ومنعوا إشعال النار في الجبس.»

«يا حرام، مات بسبب الصقيع! هذه العواصف تجمد من وراء الحدود، من أقاصي الشمال النمساوي، من الغاية السوداء. مثل ذئب الدانوب. نحن نقوِّص عليها من السطح، وحين نصيب تنزل على جليد النهر كأنها تنزلج. هذا وقتها. لماذا لم تطلبوا ثياباً وبطانيات؟»

ظلوا ساكتين والباشا استدار إلى مساعده وسأله هل هذا صحيح، هل مات السجين من الصقيع، هل هم بلا بطانيات، هل يُمنع عنهم الحطب في هذا الزمهرير؟ بدا صادقاً في انزعاجه وأمر أن يُفتح مخزن القلعة وأن يُوزع عليهم ما يحتاجون إليه. «واسمحوا لهم بقطع الحطب!»

مع الباشا الجديد جاء البرد. تساقطت الثلوج كثيفة وتجمد وجه الدانوب. توقفت الورشة. أدخل الجنود أحصنة وبعض الماشية إلى جزء من الزرائب مفصول عن قسم السجناء بحائط حجري لا يبلغ السقف. المحاييس فرحوا لأن الحيوانات جلبت دفناً للمكان ولأن مراقبتها وسماع أصواتها وسَماع الحبس: صارت سلوهم، يقفون مصوفين برؤوس ممدودة فوق الحائط ولا يتركون مراكزهم إلا للأكل أو للاستراحة من الوقوف أو للنوم. في هذه الفترة بدأ أخوة قاسم يبادلون حنا الكلام. كان إبراهيم جالساً عند الجرن الحجري في الزاوية. يراقبهم إلى أن ينتهبوا. عندئذ يهزّون رؤوسهم واحداً واحداً. هذه بمثابة دعوة. يقوم إليهم مصطك الأسنان وحين يقعد جنب قاسم يسمع اصطكاك أسنانهم. أوشكوا بلا نار وبلا أصواف خراف وبلا ثياب شتوية أن يموتوا في تلك الثلجة. حين ماتت غنمة من البرد جلب لهم أحد الجنود متقل جمر. تحلقوا متدافعين حول النار المعجزة ولعنوا الحياة على الأرض. أحدهم قال مقلداً شخصاً لا يعرفه حنا: «استغفروا الله! وجميعهم ضحكوا والدموع تظفر من عيونهم وقالوا «استغفر الله استغفر الله». حنا جلس مكبوساً بين قاسم ونعمان. شدّ يديه تحت ابطنه خائفاً من الورم في رؤوس أصابعه. لون أظفاره صار أزرق-أسود وهو نائم وقاسم قال له ان يفرك يديه وقدميه طوال الوقت وأن يقفز في مكانه بدلاً من النوم كي يتحرك الدم في يديه. في الليلة الخامسة للثلجة قضى الشيخ عارف أبو هرموش. أحدهم نادى عليه كي يقوم ويقطر لكنه لم يرد. لمسوا كتفه ثم رقبته. كان قطعة جليد. قرعوا الباب ورجع الجندي الذي جلب لهم الأكل - أخضر الوجه يزفر بخاراً - وسألهم ماذا يريدون. لم يسمحو لهم

بنوا الحيطان طوال عامين. اشتغلوا بلا كلل في الحر والبرد. أعطاهم راسم باشا في المقابل ما لم يحصل عليه محاييس في تاريخ السلطنة العثمانية: سمح لهم بتحويل الزرائب التي رعموها الى بيوت أو ما يشبه البيوت. وراء الزرائب كوّموا حطباً. في الزاوية عند البركة زرعوا خمس غرسات توت. فتحوا كوى في حيطان الزرائب كي تدخل أشعة الشمس. أخرجوا الفس الذي تعفن وقرشوا الأرض طيناً وحذوه على مدى أيام ورطبوه ورشوه حتى صار كالبلاد. أهابوا كلساً وقرشوا الحيطان. أقاموا الحدود بين بيت وآخر - داخل الزرائب ذات الباب الواحد - بحفر الخطوط المستقيمة في الأرض وصف المدايات وتوزيع القرشات. بات حبسهم أنظف وأطيب هواء من ثكنات الجنود داخل القلعة البيضاء. أواخر خريف 1861 وصلتهم ملابس وأحذية وأدوات طعام من البلاد البعيدة. حنا نظر اليهم يفكون الحزم ويفرشون الثياب وينفضون العبايات غير مصدقين. علت أصواتهم سعيدة ثم خفت. «هذه غياطة أختي بهية»، قال بشير وهو ينظر الى صدرية صوف ويقلبها على الجهتين. حنا بلع ريقه وجاهد لئلا يبكي أمامهم. كان يسكن معهم، في المستطيل المرسوم على الأرض: خمس قرشات يطوونها فجراً لصق الحائط ثم يخرجون الى حيث تنتظرهم المطارق والأزاميل. قاسم استدار وناوله زناً عريضاً يُشدُّ على البطن تحت الثياب فيقتل البرد. نعمان أعطاه برنيطة جلد مبطنه بصوف خروف. محمود تخلى له عن مداس سميك النعل. وحتى بشير - الذي لا يتكلم معه عموماً

ومرات يرسل صوبه نظرة صفراء تقلق نومه - مذبذبة بلا كلام وأهداء قميصاً غير ملبوس. حنا بلع ريقه ونظر الى الأرض: رأى غيمة رطبة وفي قلب الغيمة هيلانة وبربارة. ماجت الغيمة وشعر أنه سينفجر عندما ربت يد على كتفه.

ارتفع السور مطلقاً على نهر السافا بفتحات مخصصة لقفوات المدافع. في ربيع 1862 مدّوا السور الى داخل الخط الحدودي الغامض المنصوص عليه في معاهدة يوخارست. قضموا أراضي من السفح الغربي لبلغراد واقتحموا مملكة الصرب الخيالية. التمتع الشمس على مطارقهم وهم يتحركون بين الحجارة بهمة أسلاف استصلحوا منحدرات جبل لبنان وعمّروا الحقول المتدرجة. كانوا نهراً في بحرٍ من الجنود ومن شغيلة أجراء وشغيلة سخرتهم البواريد، لكنهم بالطاقيات البيضاء القطن الواقية من ضربة الشمس بدوا - خصوصاً للناظر من شرفة القلعة - العمود الفقري للورشة المرعبة. القناصل حضروا بين يديه واحتجوا. الروسي احتج باسم الصرب. النمساوي احتج باسم النمسا. الفرنسي احتج باسم الصرب والنمسا وفرنسا معاً. الانكليزي ابتسم وختم أنه يحتج معهم جميعاً. كان يحمل مشطاً عاجاً صغيراً ويقلبه كأنثى بين أصابع طرية تشبه شرائق الحرير الكورسيكي. راسم باشا نقل نظره بين مشط الشوارب والخريطة المعلقة على الحائط، ويتسهّل رآ أن المعاهدة تعطي الحماية التركية في بلغراد الحق كل الحق في المحافظة على تحصينات القلعة وترميمها ونحن لا نفعّل ما يتعدى ذلك. القنصل الروسي أجاب بلا غضب ان المعاهدة تعني بهذا البند خصوصاً التحصينات القائمة ساعة توقيع المعاهدة ولا تعني التحصينات

التي كانت قائمة قبل ثلاثة قرون ولا الأسوار التي هدمها الجيش النمساوي حين استولى على القلعة طارداً الجيش العثماني من بلغراد سنة 1717. كانت جملة مفصلة ومحضرة سلفاً، هادئة هدهدأ شاعف جرعة السم فيها. نشبت كهرياء في القاعة الساكنة الى أن تكلم القنصل الانكليزي: «أقترح اجتماعاً تحضره كافة الأطراف لمناقشة التفاصيل.»

بعد أيام قليلة قرّص الصربون من أبراجهم على بناء السور. بينما الدم يسيل على الحيطان غير المكتملة أعطى راسم باشا الأمر للدفعية وقصف السفح الغربي لبلغراد.

### (بائع البيض)

بعد أسابيع طويلة من التقصي غير المجدي، وفي صباح خريفني عليل الهواء، شاع في بيروت فجأة خيرٌ لم يتوقعه أبونا بطرس: واحد من المحاييس الدروز الذين نفوهم الى وراء البحر اعترف وهو يركب الشخورة مخفواً انه قتل بين الذين قتلهم بائع البيض حنا يعقوب المسيحي من بيروت الذي بيته جنب كنيسة مار الياس الكاثوليك. أبونا بطرس جرّب بعد سماع الخبر الغريب أن يعرف أكثر: عبثاً ذهبت محاولاته. لم يعرف أين بدأت الشائعة، بين عتابر المرفأ حيث يستلقي الحمّالون ظهراً كي يأكلوا الزوادة ويأخذوا قيلولته، أم في سوق القطن حيث يطير الحكي خفيفاً من أفواه التّذافين، أم عند فناطر الجامع العمري حيث يحتشدون تارة للصلاة وأخرى لشراء المسك المجلوب من عدن. لم يعرف كيف

بدأت الشائعة لكنه اكتشف مرة أخرى بأي سرعة تنتشر هذه الأخبار في مدينته. في يوم واحد أوقفه في الطريق عشرات من أفراد رعيته بوجوه حزينة مصدومة وسألوه هل سمع الخير عن بائع البيض المسكين حنا يعقوب الذي قتله الدروز بلا سبب قبل أن يركبوا السفن الى أفريقيا.

لم يعثروا على جثة بائع البيض. نوتية وعساكر وأولاد ومتطوعون فضوليون من هواة الغطس غاصوا في مياه الميناء بحثاً عن بائع البيض القتيل. «يكون عالقاً تحت الصخور أو في هيكل أم القحم!». صيادو اسفنج من عائلة الكوراني تركوا شوكاتهم في بطن قاربهم وقفزوا في البقعة حيث جنحت وغرقت السفينة اليونانية المحملة بالفحم قبل سنوات. أخرجوا جسماً أسود شبه متحلل لفقمة لم يعلم أحد كيف وصلت الى بيروت. «كان يذهب لشراء البيض مرات من عين المريسة. ربما قتلوه هناك!» في أيام قليلة كّفوا عن البحث عن جثته. لكنهم ظلوا كلما سمعوا عن جثث جديدة متحللة عُثر عليها في البرية الممتدة بين بيروت والقرى المحروقة عند سفح الجبل يكررون الكلمات ذاتها: «لعل بائع البيض بينهم. مسكين حنا يعقوب!»

«كان عنده أولاد؟»

«طفلة صغيرة.»

«وزوجته رجعت عند أهلها؟»

«زوجته مسكينة مثله. ما عندها أهل. تغسل الثياب وتكنس

وتمسح عند بيت بسترس.»

السور حائط مزدوج. يُبنى الحائط الخارجي ثم الداخلي الموازي ويُهال التراب في الفراغ الفاصل بين الحائطين. حنا - الذي يصبح «حاضر» إذا نادى ضابط الاحصاء «سليمان غفار عز الدين؟» - رأى الرصاص يتكسر على الحجارة ولم يسمع فرقة البواريد. كان واقفاً في نقطة عالية يتناول «جرادل» التراب ويفرغها في الهوة بين قدميه المتباعدتين. ساد الذعر ورأهم يترأكضون. لكن الخوف جثمه حيث هو، يقدم على كل حائط. عدد من المحاييس والجنود هرب صوب أبواب القلعة. آخرون احتموا وراء الحيطان غير المكتملة. رئيس الحرس -الذي يصفر لحناً مفعماً بالحنين إذا هبّ النسيم وأسقط زهور أشجار الكرز بيضاء وزهرية على وجه السافا - وقف غير بعيد من حنا، في نقطة مشرقة على السجنا، وتلقى رصاص الصرب في فمه. كثر الرصاص أسنانه ومزق لسانه ولحم وجنته. هوى في بطن السور حثاً وظلّ يكافح للخروج ساعات طويلة بينما المدافع تدوي فوقه والرصاص يتر. برمت الشمس السماء ولمح القرص القمحي اللون قبل أن يختفي. قبيل المساء انطفأت عينه اليمنى. سمع نداءات جرحى وحاول مرة أخرى أن ينادي فعلاً التراب زلعمه. لم يستسلم وتململ كتعبان الى أن تسلطت حشرات التراب على فتحات وجهه. نعمان غفار عز الدين أسقطه وابل الرصاص مع «جردل» تراب ثقيل في بطن السور. تلمس ذراعه اليسرى فابتلت أصابعه بالدم. انتزع قميصه المهلهل ورأى أنه سينجو. ربط زنده وأسند ظهره وانتظر سكوت الرصاص. كان بصره غائماً لكنه لمح حنا في الأعلى متسع فتحتي

الأنف يتنفس مثل حصان. «انزل!» الصوت خرج مبوحاً من حنجرتة لكن حنا سمعه. مع هذا ظلّ واقفاً كالقزاعة حيث يطلق الخردق. «انزل يا حمار!» بينما ينادي عليه شعر نعمان بشيء غريب: كأنه يحب هذا الرجل! كأنه يحزن إذا رآه ميتاً بعد لحظة! تحامل على نفسه ونهض مستنداً على يمينه وتحرك في بطن السور حتى صار تحت حنا. قبض على كاحله وهزّه من صدرته وطلب منه ان ينزل ويوقف معه هنا، «هنا أحسن».

هكلا جلسا في بطن السور بانتظار حلول الظلام. سقط شعاع الشمس عمودياً وفحص نعمان جرحه ورأى أنه لا ينزف. «عطشان.» ثم ابتعدت الشمس وأنت سحابة بارود وملأت بطن السور. سعل حنا ثم مال على جنبه. بدا نائماً بعينين مفتوحتين. هدرت المدافع فارتج جسمه مع الحيطان. كان معطل الذهن ويلغته كلمات نعمان من دون أن يفهمها، مختلطة بالانفجارات. «لم يقتلوني في الجبل كي يقتلوني هنا! عجب!» وقعت حجارة في مكان غير بعيد وسمعا صراخاً. الأئين أتى من الجهات كلها. ضغط نعمان بصفحة يده على حجارة الحائط واستعد للقفز والركض إذا ارتج الحائط مرة أخرى. حنا سمعه يتكلم ثم رأى عصافير أصغر من راحة اليد تتقاذف على الحافة. بيضاء وزرقاء ورمادية. زقزقت وهو ينظر إليها غير فاهم لماذا تبقى هنا. ابتعدت سحابة البارود الثقيلة الرائحة وسمع شتائم بالصربية والتركية واليوسنية والعربية. حين طارت العصافير شعر بألم في جنبه. غير جلسته ورأى الدم على فخذة. «ساموت هنا. كان أحسن لو قتلوني في المينا.» نعمان لم يسمع كلمات حنا لأنها دارت في رأسه ولم تخرج من فمه. نظر الى السائل الأسود يلمط السروال الرمادي.

مَرْقُ القماش فوق الركبة ومسح مكان الجرح برؤوس أصابعه. تأوه حنا كأنه يموت. «خدش. لا تهتم.» التقط حفنة تراب وتلطف يده. بدا فجأة مجهداً كأن دم الرجل البيروتي الصغير سبب له مرضاً. «هكذا تعذب إذا أصابني البرد.» حنا لم يسمع كلمات نعمان لأنها دارت في رأسه ولم تخرج من فمه. صبغ الضوء البرتقالي السماء. تباعدت الفترات بين الانفجارات. بدا أن مدافع القلعة تعبت. الرصاص أيضاً أخذ يتعد. «وأنا عطشان!» نعمان ضحك وهو ينظر الى حنا فاتحاً فمه. كان يجيبه على كلمة لفظها قبل ساعات، عند الظهيرة!

## (في بطن السور - 2)

«لماذا لا تقولوا لراسم باشا من أكون؟ قولوا له كي أرجع الى بيتي.»

«ماذا يفعل راسم باشا الآن؟ يقصف كنائس الصرب ويدك بيوتهم. اشكر ربك انه لا يعرف من تكون. اذا قلنا له هذا مسيحي يقطع رقبتك!»

«أنا مسيحي من بيروت. لست من بلد الصرب!»

«ما الفرق؟ وحتى لو تركك كيف ترجع وحدك؟ تعرف الطريق؟»

«يردوني بالباخرة كما جلبوني.»

لم يضحك نعمان. أراد ذلك لكن الحزن الفظيع في الوجه الراقد قره أعجزه. التفت وحدق - في عتمة أول المساء الخفيفة - الى كومة تراب تسدّ الممر. كان جرحه يقرصه.

«أخونا الكبير المرحوم علي مات قبل أن تبدأ الحرب بأيام. كان وحده وبعيداً من ضيعتنا ولم نعرف الذين قتلوه. راح الى سوق دبر القمر كي يتفق مع تاجر يشتري منه الجلود للدهابة. فرسه رجعت وحدها عند الغروب. الوالدة كانت في جل التوت تقطف الورق الأخضر والفروع الطرية من أجل دود القز. ظلت جامدة بلا صوت بلا حركة حتى وقتت الفرس قدام باب البيت. عرفت. كان الدم على السرج. محمود الأقرب لعلي. شبهه بالوجه وبالحركات وبالحكي، سبحان الخالق. ناس من كفرنبرخ وبتدين ساعدونا على تفتيش أحراج الصنوبر والبطم في خراج دبر القمر. واحد منهم لحق طير القعق وصوت التعيق: وجدته بين الصخور وراء دغل شوك. حملناه ونحن نكي. بهاء الدين الله يرحمه كان أصغرنا. لم يبك. الآن صار سليمان أصغرنا. طلب بهاء الدين الفرس وأخذها ولم يغسل سرجها من دم علي. قاتل عليها في جزين وراشيا وزحلة. قاسم كان معه. أنا ويشير كنا نقاتل في الجرد. محمود قوضوه بمعركة عين دارة. نصف الدعاوى ضده كذب. لم يحارب بعد عين دارة. لم يكن في حاصبيا.»

«ذهبتم الأولاد والنسوان في حاصبيا.»

ارتعش نعمان وخاف أن يخنق الرجل جنبه. لم يضره لأنه بدا شبه ميت. كان أصفر اللون هادياً مبلولاً بالعرق. سمع صرير أسنانه. نظر الى أعلى ورأى نجمة المساء، نقطة بيضاء تبرى في القماشة القاتمة. غلى الدم في عينه وشوه الأشياء ثم سكن وركد. اتبه أن العرق يبلّهُ هو أيضاً.

«الله يسامحك، قاسم كان في حاصبيا.»

«جميل، جميل.»

الباشا لم يحضر الدفن الجماعي. عند العصر خالف عاداته شبه الثابتة ولم ينزل الى الجامع. تناول العشاء منفرداً وطلب من مساعده تبليغ القنصل الطلياني الذي حضر من أجل جولة الشطرنج أنه مصاب بالرشح ويخشى أن ينقل له العدوى. أرسل تلغرافات الى اسطنبول ثم اعتكف في سريره يومين. في اليوم الثالث وصله الجواب. نهض وطلب الحلاق وثياباً جديدة. خرج كأنه عائد من نقاعة في القرم وفرض سلطته بينما رائحة العنبر تتصوع من أكاماه. نظم مسلحي السفح الشرقي المهجرين في ثلاث فرق قتالية وسلّحهم. أنزل عائلاتهم في أبنية القلعة وعندما اشتكوا من الزحمة الشديدة أفسح لهم مكاناً في الزرائب المرممة ورّد الدروز الى القبو تحت الأرض. كانت القلعة محاصرة بالصراب الآن لكنه شعر أنه انتصر. «انظر دقة مدافعنا يا طوران، لم يبق جرس في الكانديرية.» وفقاً على السطح يتأملان بالعين المجردة وبالمنظار الفرنسي آثار القصف. «هذا عجيب يا طوران.» اعتاد الباشا أن يكلم مساعده كأنه يتكلم مع نفسه. وجد في هذا التقليد دليلاً آخر الى رسوخ سلطته. «ها نحن قد هدمنا أبراجهم وأحرقناها. مقبرتهم امتلات. لو شئنا نظردهم بالنار الى وراء النهر. مع هذا لا نشعر بالراحة، كأننا خسرونا ولم نربح الحرب. قد تستغرب يا طوران لكنني أفهم الآن ما يقوله جناب عمي عن هؤلاء الدروز. هم أيضاً وقع عليهم النحس. ربحوا الحرب وسحقوا عدوهم لكن أين انتهوا؟ صعب أن تريح وتجد نفسك خسرت. أنا أشفق عليهم يا طوران.»

القناصل تدخلوا أثناء الليل. تنقلوا في نور المشاعل بين القلعة البيضاء والمقر الحربي الذي أنشأه الأمير ميخائيل على عجل. راسم باشا قابلهم بوجه الحضان وقال لن أقبل هدنة. القنصل الانكليزي انفرده به عند نافذة تطل على ساحة القلعة المحتشدة بالعائلات التركية والبوسنية والمقدونية النازحة هرباً من النار.

«ماذا ستفعل بهؤلاء يا باشا؟ الجندرمة الصربية تحولت جيشاً واجتاحت السفح الشرقي. كل بيت على سطحه قرميد احترق. نحن محاصرون وأنت تعرف هذا.»

«شهور وأنا أقول انهم يخزنون السلاح والذخائر وأنتم تردون هذا غير صحيح. لم يبق فلاح بلا بارودة. هم طلبوا القتل.»

«أنا في صفك يا باشا. اذا لم نقبل الهدنة نخسر. وصلني تلغراف قبل ساعة ان الجيش النمساوي ينقل مدافع الى سملين.»

«أصف سملين هذه الليلة.»

«أو نخفف خسارتنا ونرضى بالهدنة. هذه معركة لن نربحها.»

•

جمعوا القتلى في الصباح. القنصل الانكليزي سأل طوران مساعد الباشا عن الخسائر. مثل الباشا حين يتكلم العربية نطق طوران كلماته الانكليزية بلكنة ثقيلة أقرب الى قرعقة الحجارة: «فقدنا 36 جندياً بينهم تسعة على المدفعية و15 سجيناً بينهم سبعة من دروز بلغراد.»

«أنتم أيضاً صرتم تستونهم هكذا!»

جرحه الذي سُفِّي وختم بسرعة كما قال نعمان. في نومه وجد نفسه في بطن السور يكسر جوزاً أخضر ويُطعم هيلانة. فتح عينيه في الظلام وشهق. منذ دهر لم ير ملامحها واضحة هكذا. هذه القلعة تمحو ذكرياته. تحرك وارطم بشخص آخر يتحرك.

«أنا قاسم.»

«أعرف.»

«النوم صعب.»

«رأيت زوجتي في المنام. كنا نأكل جوزاً، هنا، في بلغراد.»  
«لم أعد أراهم. كنت أراهم أول نزولنا هنا، خصوصاً إيني. لا يتعد عني لحظة. في البيت أو في الحقل أتعثر به كأنه مربوط إليّ. أمه كانت تقول له ابعذ يا إبراهيم من درب أبيك أو تظل قصيماً. الآن لا أرى أحلاماً إذا نمت. أو أرى أشياء لا أريدها.»

«كم سبقي هنا؟»

«نعمان عنده أربع بنات.»

نادى صوت من الزاوية البعيدة وسأل شيئاً. سكتنا وسمعنا أجوبة وأسئلة أخرى. ثم عاد الصمت.

في وقت الأكل سألوا الحارس عن نعمان وهو من دون أن يسمع فهم ماذا يريدون. عرفوا أنه حيّ. تحلقوا حول الخبز وقبل أن يأكلوا مدّ محمود يده ويقبض على معصم حنا. سأله حنا ماذا يريد؟ «خذْ خبزتي، لا أشعر بالجوع اليوم.» مرّ زمن لا يُحدد ثم رجع نعمان. كانت خطوته غريبة كأنه شخص آخر. بتروا ذراعهم من الكتف ونجا من الموت.

انطرحوا كالعُميان في الظلام الذي استردهم ووجدوا أن أصغرهم غيبي حقاً. حمد ابن الشيخ السعدي من بتلون مدّ يده المساعدة أثناء القصف: جرّ ودحرج مع آخرين قنابل كروية ثقيلة إلى المدافع الأدرنية المصبوبة في زمن السلطان بيازيد. انفجر مدفع لم يتحمل حشوة البارود المدكوك. رأى وهجاً رائعاً يخلب الأنظار ثم انطفأ العالم إلى الأبد. عالجوا حروق وجهه ورقبته بالزيت والمرامح الرومية ولقوا دماغه بالقطن الأبيض. أعطوه عصا وصار الأعمى بين دروز بلغراد. حين حملوه إلى القبو شبه نائم لم يعرف أنه ليس في الزرائب المرممة وأخذ يتلمس الأرض بحثاً عن أغراضه. «ردّونا إلى القبو المنحوس يا حمداً»، قالوا له عندئذٍ. أمسك العصا ووقف كأنه ذاهب إلى مكان آخر وظل منتصباً هكذا بلا صوت. عندما ناموا تمدد ونام مثلهم. ظلوا يسمعون أنينه بسبب الحروق. في وقت الأكل وضعوا قطعة الخبز في يده. بعد أيام رفع أنفه مثل كلب صيد وقال هل تشمّون الرائحة؟ الشيخ مهراڻ القاعد جنبه قال «هذه غرغرينا». أحاطوا بالحارس الكلسي المقطوع الأذنين حين فتح الباب فندم لأنه تركهم بلا قيود. انظر الخنق ثم فهم أنهم يطلبون مساعدة أو أخذ جثة. في ضوء المشعل تنقل معهم بجسمه المربع البليد يفحص بنظرة العبيط جروحاً ملوثة. لم يكن ذلك ضرورياً. قبل أن يصلوا إلى نعمان غفار عز الدين سمعوه يقول: «أنا». بعد خروجه سمعوا أخاه محمود يبكي. نشيج مكتوم لا يكاد يُسمع لولا أن القبو مختوق. بشير اقترب من أخيه الكبير وأصدر همهمة. بعد ذلك ساد الصمت. حنا تلمس

أخرجوهم من القيو في نهاية الصيف. طفقت ركبهم. ترنحوا كالاشباح في النور الباهر. «الله يرحمك يا شيخ محمد. 72 درجة! أخطأ في العد.» أطرافهم انتفضت في الفضاء المفتوح، مبتهجة. حمد الأعمى رفع وجهه إلى الشمس وأحس بالحرارة: «أبيض، أرى أبيض وأصفراً» بدا سعيداً كأنه سيشفى في ساعة. نعمان نظر إلى الكتم المعقود شاعراً بذراعاه التي لا يعرف أين رموها، وارتجف. حنا مشى وراء قاسم حتى الساحة. تراصفوا في حراسة البواريد وانتظروا. حولهم فارت القلعة بالحركة والضجيج. شاهدوا صفاً من عربات مربوطة إلى ثيران وعرفوا أن شيئاً يحدث. من جهة الزرائب التي جعلوها بيوتاً أقبلت مجموعة من النسوة المحملات بالحزم والطناجير. أولاد ركضوا إلى العربات وخلفهم يتطاير ريش البط والدجاج الذي أمسكوا به من أقدامه. كانوا يرحلون. الرجال الأتراك والبوسنيون لم يشاركوا في نقل الأغراض. وقفوا ينقلون بصرهم بين المحابيس والثيران والغيوم القليلة المبعثرة كالغيم في السماء. النساء المقدونيات يملسن البديعة الألوان لم يظهر لهن أثر. أثناء نزول الدروز في القيو رحلت العائلات المقدونية باتجاه الجبال البعيدة المغطاة بالشجر. أحدهم تحدث مع جندي يعرفه. «هذه القافلة الأخيرة. إلى البوسنة.» رائحة فواكه ناشجة ملأت أنوفهم. الضوء والهواء الكثير والفضاء. شعروا بجوع لا يُصدق. رأوا القدور تعلق فوق النار أمام المطبخ. شموا رائحة اللحم والعظم والبصل. «سيردونا إلى الزرائب أخيراً.» تحت الحائط البعيد اصطف أولاد ينظرون إلى عبيد يذبحون بقرتين. خارت

الثيران المقيدة إلى العربات خوياً مقيماً. الرجال البوسنيون نادوا مرة واحدة باتجاه الأولاد الذين يتجاهلون صباح أخواتهم وأمهاتهم. جاؤوا ضاحكين يتقافزون ويتدافعون وتسلقوا أكوام العربات من دون أن يسكتوا. رموا حصى صوب المحابيس. أحد الأتراك لوح بسوطه ولسع صبياً على كتفه. تجمدوا عندئذ وأصغوا إلى الصبي يبكي. المحابيس عرفوا أن الزرائب فارغة الآن، تصفر. نظروا إلى البخار يتعالى من قدور الهريسة. ترطبت عيونهم. بلعوا ويقهم. أذن المؤذن وظلوا جامدين في صفوف. كان الهواء نقياً يُشرب كماء. عندما تحركت القافلة خارجة من القنطرة أمرهم الجنود بالحركة. المحابيس ساروا نحو الزرائب بخطى سريعة. لطمت البواريد أجنابهم عندئذ ولتتهم إلى طريق أخرى: لم يقل لهم أحد أنهم يخرجون إلى الأبد من بلغراد.

شتمهم راسم باشا بنظرة طيبة واقفاً على شرفة عالية حاملاً طفلاً شديد الشقرة إلى صدره. هذا الإبن ولد هنا، في القلعة البيضاء، قبل شهر. سمّاه فؤاد تيمناً بجناب الوزير فؤاد باشا. هزه وصتر له مثل بلبل. رفعه فوق كتفيه وتأمله وهو يضحك. استدار وأوماً برأسه. أنت المرضعة كالبرق وأخذته. كانت رومانية كبيرة الصدر فتوح برائحة اللبن. أوقعتها الباشا وهي منصرفة وطلب منها أن ترضع الطفل هنا، في الهواء الطلق. لم يحمر وجهها بينما الباشا ينقل بصره بين دوائر جسمها الملفوف بالأقمشة البيضاء، والقافلة المتجهة إلى جبال البوسنة. فتح علية فضاة ثم أغلقها. تحرك وأعطى المرأة ظهره حين انبث إلى تسارع أنفاسه. كان مسروراً بالطقس وودّ لو يستمر الصيف. ابتعدت ضجة القافلة.



لكنها ظلت مرثية. برق الضوء على صفحة الدانوب، تلالاً كحبات ماس. من الحقول التي تُحصد ارتفعت أغنية صربية. أصغى ووجد الصوت شجياً. استدار كي ينظر الى الرومانية. غضت بصرها عندئذ. صرفها بإشارة وأغمض عينيه. حين فتحهما رأى طوران أمامه.

«الفصل الطالباني وصل سعادتك.»

«كم المسافة من هنا الى لندن يا طوران، تعرف؟»

«إذا أعطيتني دقيقة سعادتك أناكذ من الخريطة.»

«أعني الوقت.»

«مفهوم سعادتك. لكن كيف تريدون السفر، بالقطار؟»

«غير مهم يا طوران، غير مهم. سنلعب الشطرنج هنا.»

### (دروب البوسنة)

ساقوهم كالماشية. كانت الدرب تدنو من نهر السافا ثم تتعد عنه، وعلى الدوام تتجه عكس تياره. مع مرور الأيام ظنوا أنهم برون نهراً آخر: كان السافا نفسه لكنه صار دافقاً هادراً مسموعاً من بعيد، بينما الجو بيرد. شاهدوا مراكب شرعية محملة بالبضائع وأخرى بلا أشرعة ومجاديف. عبروا قرى وبلدات يجهلون أسماءها. شاهدوا مصاطب عريضة مفروشة بالقاهكة للتنجيف وباللحم للتقديم. امرأة ملفوفة بالكتان الأبيض لا يبين منها غير العيتين السوداوين تأملتهم ملياً بينما تخرج حفنات الملح الحجري

من كيس وترشها على شرائح اللحم الغائمة كأنها تنثر قمحاً للدواجن. توقفوا للراحة دقائق في طرف بلدة ترتفع فوق ركام بيوتها مثقلة ببيضاء واحدة. أولاد ركضوا المنحدر حاملين قطع سكاكر ملونة ثم وقفوا على مسافة آمنة ولوحوا لهم. بدأ غير حقيقيين، كأنهم خرجوا من منام لا من ركام البيوت المسودة بالشمس والمطر والشمس من جديد. انتظروا الليل كي يتضاءل اللهب في قشرة الرأس. تسلقوا هضاب البوسنة بلا صوت في الليل وفي النهار. في وقت الراحة عند ضفة النهر شربوا ماء حتى امتلأت بطونهم وكبر حجمها. مثل إبل الصحراء خزنوا المياه للسير الطويل. مر وقت والدرب تتلوى وتتأى عن السافا. عبروا جسراً حجرياً يعلو جدولاً عميقاً والجنود منعوهم من النزول للشرب. داخوا من سماع الخريز بينما الشمس تلطم رؤوسهم وتقع عيونهم بالكدمات. احمرت وجوههم حتى ازرققت. احترقت رقابهم. حنا سار مباعداً ما بين ساقيه. الاحتكاك المتواصل شوى الجلد بين فخذيه. في بداية الرحلة التي كُتب عليهم ألا يعرفوا أين أو متى أو كيف تنتهي انتابهم شعور قريب من السعادة. كانت روائح الطبيعة تغمرهم والفضاء الأخضر الصافي الهواء يُنوم رئاتهم وعقولهم حتى تحلّل اليهم أن الحبس انتهى. لا الحبل ولا القيود الخشب ولا قضبان الرمان التي تسوط الأكتاف ولا البواريد أفسدت عليهم هذا الشعور الحلو كالزبيب. حتى السير الحثيث المتواصل لم يفسد بهجتهم الغامضة. ثم بلغوا نقطة تفرعت فيها الطريق وعربات الشيران المحملة بالعائلات افترقت عنهم. شاهدوها تتعد حتى دخلت الغابات واخضت. أسراب طيور كبيرة الحجم انطلقت من الأشجار كأنها تهرب من النار، وبدلاً من أن

كثلي ثم تخفتي وبينما يترنحون ويقعون ثم ينهضون استولت على بعضهم فنانة عجيبة: «لن يلمسنا الموت على هذه الدرب!» كان ذلك وهماً ولكنه منحهم قوة ولعله أنفذ عدداً منهم. قطعان أغنام وأبقار قطعت طريقهم مرات لا تحصى. رأوا بقرأ غريباً وبقراً أليفاً يشبه بقر بلاد الشام. الرعاة ركضوا مع كلابهم وأبعدوها خوفاً من البواريد. دخلوا قرية تطرقها سنديانات عملاقة كأنها تخفيها عن العيون. نسوة عجائز مكشوفات الوجوه جالسات أمام عتبات البيوت نهضن على مهل واختفين في ظلمة الأبواب. «خافوا منا!» لكن العجائز خرجن يحملن ماء وخبزاً للجنود والمحاييس. عجوز تبدو في المئة من عمرها انحنت على رجال مكشوبين نأ العظم من جلودهم وتكلمت معهم بالنظرات وشرحت لهم أنها تسقي الجنود فقط كي يسمحوا لها أن تسقيهم. دروز بلغراد شربوا من يدها ماء أذابت فيه سكرأ. أخذوا الخبز وأكلوا بسرعة وهم يخفون أفواههم عن عيون الجنود.

## (دروب البوسنة - 2)

خرجوا من قرية السنديانات الظليلة ومروا بمحاذاة مقبرة. أبصروا رجالاً عجائز يتحركون كالأشباح بين الشواهد ويحملون أغصان غار. سمعوا جرساً يقرع. مع حلول المساء التفتوا وشاهدوا شموعاً مشتتة وحدسوا أنها المقبرة التي مروا جنبها عند الغروب. ساروا في الليل يتبعون حمد الأعمى والبيغال البيضاء المحملة بطعام الجنود. حمد السعدي تعثر في بداية الرحلة وهشم

يسروا برحيل العربات التي أطعمتهم الغبار فتك بهم قنوط مفاجيء. الجنود أيضاً بدوا حزائى. تسلقوا جبلاً أصفر التربة يغطيه الشوك والبطم والوزال اليابس. تعرجت الدرب ثم استقامت وبان سراب الماء. شعروا أنهم يتحركون بلا جهد كأنهم يتدحرجون. عبروا أرضاً تتباعد فيها أشجار بلوط قزمية وهم يكشون الحشرات عن عيونهم فتقتحم آذانهم. سهلت أحصنة الجنود بينما يشرفون على هاوية من صخور حمراء مستنة تنوزعها العظام. كان المنظر مخيفاً. ارتجفت ركبهم. توسطت الشمس السماء في يوم فظيح الحرارة والأحصنة ابتلت عرقاً. اللبان ملا عيونها. أوقفهم للراحة عند بركة حجرية ومنعومهم من الشرب الى أن شبت الخيول. جفت البركة. رفعوا ماء من بئر وشربوا. هذا الماء البارد أنامهم كالأفيون، بلا أكل، تحت الشجر. فتحوا عيونهم بينما الشمس تغرب والجنود يزعمون. عند هبوط الليل أكلوا عنباً من كروم تجاور الطريق. عناقيد يغطيها غبار شبه رملي، تصر بين الأسنان، حباتها مضروبة متبسة شبه ناشفة كأنها جلود بلا عصير، التهموها وقضموا بزورها ويلمعوا، وحتى فروع العناقيد مضغوها مثلثذين. عندما توقفوا في الصباح كي يخبز الجنود ويقطروا تحملوا رائحة العجين ثم الحطب الذي يخبز العجين. انظروا على بطونهم وعزوا ما استطاعوا من ظهورهم ثم انقلبوا وفعلوا العكس. آخرون فركوا أوراق نباتات شافية على جروح وقروح. ناموا كالموتى وأيقظهم الزعيق وحوافر الخيول. أضعوا الزمن كما حدث لهم من قبل، أول نزولهم في ظلمة بلغراد. تحركوا طابوراً على طريق عالية ضيقة تطل على قرى حمراء القرميد كأنها قرى جبلهم البعيد. كانت البيوت تظهر في

ركبته وكسر عصاه. ربطه جندي بعد ذلك الى بغلة وصار اذا نال منه الاعياء يستند نفسه الى البغلة ويرتاح. لولا عماء كانوا قتلوه. دخلوا مدينة كثيرة المتاجر قبلها نهر بجسور وبعدها نهر بجسور. لم يروا أحداً لكنهم شعروا بالسكينة تحت النوافذ المضامة بالمصايح. في مدينة أخرى عبروها أثناء النهار قطع طريقهم رجال خارجون من صلاة الجمعة: تجادلوا مع الجنود وأجبروهم على إراحة المحاييس. سمعوا لغات كثيرة لكن الكلمات العربية وقعت في آذانهم مثل السحر. المشايخ المسلمون داروا عليهم بالماء والتمر. أعطوهم خبزاً خارجاً من الفرن وأطعموهم طبخاً خُضر للتو. لم يعرفوا لماذا تباكي النساء الواقفات على مسافة وخافوا أن يكونوا ذاهبين الى القتل. تحركوا متقلين بما أكلوا وشربوا. خلال الليل مُنعوا من التوقف وقضاء حاجتهم حتى قرر الجنود ذلك. حنا تلوى من الألم لأنه أكل «قمر الدين» والمشمش المجفف المُحلى أذاب بطنه. قبيل الفجر تساقط عدد منهم وتوقف الطباير.

«احملوهم أو نتركهم هنا!» أوقفوهم وأستندوهم وتحركوا من جديد. عبروا سهلاً في ضوء النجوم. مثل النيام نظروا حائرين الى جبال تمتد عن الجهتين. أركمت أنوفهم رائحة السنايل المحصورة والمكومة. أطلت من فوق الأكوام الضخمة وجوه ناعسة وبواريد تحرس المحصول. توقف الجنود. تكلموا مع الفلاحين. بدأ أنهم أضاعوا الطريق. أحد المحاييس ركع على ركبته واحدة ونام: ارتفع شخيره. تحرك الطباير. أسند حنا نفسه على قاسم وحين سمعه يقول «وراء هذا الجبل بلاد الشوف» لم يفهم أنه يمزح ولبرهة وجيزة ظن أن هذا صحيح. امتد السهل المغطى بالزرع في الليل كأنه سهل البقاع. حين أطلت مع الفجر مدينة يحضنها نهر

كثير الصفصاف أخضر الضفة قال أحدهم: «هذه زحلة!». لم يضحكوا لأنهم كانوا نائمين. مال نعمان على بشير الذي يصحبه كظله. بدأوا شخصاً واحداً نبت له رأسان. تحركت غيوم في الأعالي وغيّرت حرارة الجو. كان سيرهم بليداً الآن وشخر جنود وهم يتهادون. بانث قرية صفراء الحيطان كأنها منحوتة في سفح الجبل. «لم أعد أقدر!» سمعوا الجملة كما سمعوها من قبل كثيراً، لكن هذه المرة ارتطم أحدهم بالأرض مثل جرة ثقيلة. كان هذا الميت الأول في رحلتهم. الجنود أعطوهم وقتاً قصيراً للراحة، ورفشبن. حفروا بسرعة ودفنوا بسرعة الشيخ عبد الخالق الدويك.

### (دروب البوسنة - 3)

قضى في الرحلة الى حبس الهرسك تسعة بينهم جندي أسقطته ضربة شمس عن حصانه. الباقون قتلهم الاعياء والجفاف. نجا حنا يعقوب لأن قاسم عز الدين حمله كالخروف على كتفه. وقعت عليهم أمطار الخريف في الوادي الذي يستونه وادي رامة. الجنود أشعلوا ناراً وأكلوا بينما المحاييس يتلاشون. بعد تلال وأودية أبصروا قرية رأوها من قبل وحدسوا أن الدروب تستدير تبعاً لخطة لا يعرفها إلا الربّ والجنود. أنهكهم العطش والجوع. تحجرت عضلاتهم المجهدلة حتى صاحوا ألماً. «هكذا سنموت إذا، بلا رصاص، على الطريق!» ارتاحوا عند ضفة موحلة. تقافزت الضفادع بينهم جاحطة العيون تتفقدهم. تحرك محمود بين الأجسام كأنه يزحف. حنا نظر عبر ضبابة الى شفتين متشققتين

كحيوان ثم دخل في حائط واختفى من العالم. أيقظوه في الصباح للآكل ووجد كاحله مقيداً بسلسلة حديد الى حلقة مطروقة في الأرض. اكتشف سائلاً أصفر - أسود يتدفق من قروح قدميه. حاول أن ينزع مداسه فخرجت الصيحة كالطوطاط من جوفه وغفقت بين المحابيس حتى خبطوا الهواء بأكفهم وشمته. «نريد أن نأكل!» حدجه أحدهم بنظرة فظيعة. زحفت يد على الأرض وأمسكت مداسه. هذه المرة عض على صرخته فخرجت أنبناً. كان عليه تقشير المداس عن قدمه المتورمة كما تقشر حبة فاكهة. الرجل الذي ساعده كرواتي من الشمال، أهله في زغرب، سرق ماشية خارج سراييفو، وانتهى - بعد عراك مع جنود - هنا. نكلما بمزيج عجيب من أربع أو خمس لغات، كلمات متوقفة كالريش من طيور مهاجرة. ميّز هنا كلمات حفظها في القلعة البيضاء غير متأكد الى أي لغة بالضبط تنتمي. سأل الكرواتي بالحكي والإشارات أين هم الآن. «نحن في الحبس». ضحكات فرقت كالبيارات من الزوايا المظلمة. بان وجه محطم الأسنان يلوك خبزاً وشمته بلغة تشبه التركية. ثم اختفى. الكرواتي أجابه على سؤاله: «الهرسك». نور النهار تسرب الى القبو من كوة عالية شبه مسدودة. العمود الأبيض الرقيق كقصبية سقط في نقطة تضيء سطل الخبز الفارغ. حين تحركت بقعة الضوء امتدت قدم مقلوعة الأظافر وزاحت السطل فسقط على جنبه. مرات لا يقع السطل وتير النقطة جنبه. في اليوم الأول في حبس الهرسك لم يكن هنا يعقوب يعلم أن هذه النقطة الشمسية البيضاء على جنب السطل ستصبح تقليدًا ثابتاً وجزءاً أساسياً من حياته. قبل الظهيرة تبدد العمود المشع ولم يبق غير عيط النور الشبهي الذي لا يشبه النور لكنه يدل الى الوقت في

بلون الملح. «أحمله عنك؟» لم يدرك أنه المقصود بالحدث حتى بعد أن رفعه قاسم من جديد. عند الغروب تناولت الظلال. سمع بشير يقول لأخوته شيئاً عن النبي أيوب. حنا أراد أن ينزل ويمشي معهم. فتح فمه لكن قبل أن ينطق سقط في نوم عميق. هكذا دخل حنا حبس الهرسك نائماً. الشيخ مهرا من قرية الدبّية في بلاد الشوف مات في مدخل حبس الهرسك. كان الميت الدرزي الثامن بعد الخروج من بلغراد. لفظ كلمة واحدة: «أخيراً!» وهوى نازف الأنف على البوابة المرصعة بالمسامير. دفنه شغيلة الحبس في المقبرة المجاورة، تحت أشجار زلزخت. حمد الأعمى الذي غافل الجنود مرات وركب البغلة تحت ستر الليل ونجا، رمى نفسه أرضاً عند البوابة كي يحمله الباقون. سأل من الذي مات الآن؟ أخبروه انه الشيخ مهرا. بكى وظلّ طوال أيام بيكي كلما مرّ الشيخ في ظلام دماغه أو خيل اليه أنه يسمع ضحكته. ساعده الشيخ مهرا على الطريق مرات لا تُعد، وساعده قبل ذلك، قبل أن يخرجوا في هذه الرحلة البوسنية اللعينة التي لن ينساها حمد السعدي حتى يموت عجوزاً في قرية أبيه في جبل لبنان.

### (حبس الهرسك)

فرقوهم. طرحوا حنا متورّم القدمين مشقق الفم في قبو مملوء بمحابيس غرباء تظهر وجوههم من الظلام ثم تتراجع وتختفي. سألوه بلغات كثيرة ما اسمه ومن أين يأتي ولماذا حبسوه. كان عاجزاً عن تحريك لسانه كأنهم لطموا أسنانه مرة أخرى. همهم

الخارج . تحامل على نفسه وجرب الوقوف . بدنه المحطم عوى كذب . استند الى الحائط ثم تراخى وزحف ودب باتجاه نقطة يقصدها الآخرون . أحدهم قبض على سلسلته ومنعه من بلوغ «الجورة» . عند الغروب أخرجوهم في «نزهة» الى باحة الحبس . أشفق عليه أحد الشغيلة وأعطاه نصف سطل ماء كي يغسل الوسخ عن فخلديه وإلبته . خاف أن يموت وهو يبكي . سألت فتحات وجهه كلها . انتظر «النزهة» في اليوم التالي لكن الباب لم يتحرك . اكتشف أنه كان محظوظاً لأن «النزهة» لا تحل كل يوم . أحياناً يطول الإنتظار عشرين يوماً . في إحدى الفترات ثبثوا «النزهة» في موعد محدد: يوم الجمعة . لكن ذلك لم يطل . مع حلول الشتاء واشتداد البرد أعطوهم جلود حيوانات غير مذبوغة . التفوا بها وفركوها فركاً شديداً على أبدانهم قتلاً للقمل والبراغيث . اصطكت أسنانهم في الظلام وازرقت أطرافهم لكن القمل العجيب لم يتأثر بالصقيع وضاعف نكاثره . قضى أحدهم ولم ينتبهوا الا عندما لاحظوا غياب يده الموشومة: كانت سريعة كمخلب أسد وتنفذ على الخبز انقضاضاً . لم يشتموا الجثة بسبب الجليد . بعد فترة جاء حارس وأخذ الكرواتي الذي ساعده . لم يرجع . لم يعرف حنا هل أطلقوه أم نقلوه أم . . . ذات صباح وزعوا عليهم قطعاً من اللحم المقدد لأنه العيد . لم يفهم حنا أي عيد يعنون ولم يسأل . منذ شهر لم يفتح فمه كي يتكلم . تلمس اللحم الجاف بأصابعه تائهاً في كيس أسود . استند بجهته الى الكيس الغامض وبحث عن ثقب ينفذ منه الى الخارج . لم يكن متأكداً من وجود ثقب أو حتى كيس . برم رقبته . خاف أن يقع رأسه . كان مفككاً والعفن يسبب له حكاكاً تحت إبطيه وبين فخلديه وفي دبره . سمع في الظلام أنهم

يأكلون . قضم القطعة القاسية ولاكها . بدت أليفة الرائحة كأنها قطعة منه ، قطعة من الجلد غير المذبوغ الذي يلقه مثل جلد ثاين فوق جلده . أخرجوهم في «نزهة» وشاهد الأشجار عارية الأغصان تطل من فوق السور وتشبك بالغيم الأسود . كانت الريح قارصة ، تعمي العيون ، لكنهم تحركوا قافزين في الباحة ولم يبالوا بالجليد . طالت «النزهة» للمرة الأولى وأخرجوا محابيس من أقبية أخرى . ارتش حنا حين أبصر وجهاً يعرفه . سار في خيط مستقيم حتى بلغ الرجل الأصفر اللحية الملفت بجلد مقبع مثل ثعلب مريض . كان يترنح ويبدو عجوزاً بسبب سعاله وانحناء ظهره .

«هذا أنا يا شيخ محمود . أين قاسم؟»

## (حبس الهرسك - 2)

أمسك به الشيخ محمود غفار عز الدين من كتفيه وهزه بأشأ كأنه وجد إنبأ . شدّه اليه بقوة غير متوقعة . ترنح الهيكلان المتصدعان بلا صوت ثم تباعدا .

«فكرنا أنك مت!»

«قاسم معك؟»

«لم أَرِ قاسم منذ فرقونا لكننا نعرف أنه هنا . رأيت بشير ونعمان مرتين . لم يفترقا . في قبوي أربعة غبري من جماعتنا . الباقون أغراب . وأنت؟»

«لا . وحدي.»

بدا الصوت ضعيفاً، مريضاً، يستصعب تسلق الجبال كي يخرج من الفم.  
«ضربوك؟»

لم يرد حنا. نظرته تاهت أعلى من الكتف المنحني تمسح الوجوه الجديدة التي أطلت للتو غارحة من بطن الأرض. كانوا غابة وجوه مشعرة محطمة، سوداء وشقراء وصهباء، والعيون متطفنة تحاول أن تشتعل من جديد ويصفعها البرد. اكتظت الباحة وعلت الاصوات. استدار الشيخ محمود يبحث مكتوف الذراعين عن أخوته. كرّر جملة: «فكرنا أنك مت!»

•

دروز آخرون ظهروا وتجمعوا. سلّموا على حنا وسألوه عن صحته وسألوه هل معه دروز في قيوه. بعضهم كان يتكلم معه للمرة الأولى منذ خرجوا من ميناء بيروت قبل ثلاث أو أربع سنوات. أحدهم - هذا الشيخ عماد الدين محمود من الباروك - تأخر قبل أن يبصر المجموعة المتكتلة في زاوية الباحة هرباً من الريح، وحين أبصرهم جاء راکضاً كأنه ولد منادياً أسماءهم من بعيد قافراً فوق أغراب متجمدين كالجثث. عانقهم واحداً واحداً وباس أكتافهم وباسوا كتفيه. حين وجد نفسه في مواجهة حنا نقل نظره بسرعة البرق الى الشيخ محمود غفار عز الدين ثم ضحك وضمّ حنا إليه: «أين كنت يا شيخ سليمان؟ خفنا أن يكونوا فتكوا بك!». أرعدت السماء. انهمر المطر خفيفاً. برقت عيونهم. «أين حمد السعدي؟» سكن الهواء لحظة. بدا المكان مسحوراً بلا صفرة الريح. «حمد في المقبرة.» سمعوا قرع حجارة والفتوا بينما العاصف ترهم في أجنابهم والضحكة الطفولية ترتفع. «اذكر الذهب!» كان

هذا حمد الذي سمّوه «المحفوظ» لأنه لم ينزل في أقبية الهرسك. أخذه الجنود للعيش مع العميان في مساكنهم على حائط المقبرة. أخرج من جيوبه زيبياً وقضامة محمصة ووزع عليهم: «عيدية!» كان الرسول وجامع الأخبار والمتنقل بين أبنية الحبس كلها بلا اعتراض أو حاجز. سألوه أين الباقون وقال المكان لا يتسع للجميع، هذا أكبر حبس في السلطنة العثمانية. تلمسوا كتفيه بلا انتباه.

«رأيت الشيخ خطار وُسلم عليكم.»

ضحكوا لأنه يقول «رأيت» من دون أن يضحك.

«وقلت له انتبه لصحتك لأن وجهك مضراً!»

السجناء الأغراب التفتوا مبعثرين ونظروا الى المجموعة الضاحكة المتكتلة. كان المطر ستارة شفاقة مخرمة. وراء الستارة ضحكوا كأنهم أصيبوا معاً بمرض غير مفهوم.

«من هؤلاء؟»

«دروز بلغراد. يقولون انهم جاؤوا مشياً على الأقدام من

بلغراد الى هنا بلا أكل وبلا راحة!»

«وأنت أبهلي كي تُصدق؟»

### (حبس الهرسك - 3)

دارت عليهم السنة - من «العيد» الى «العيد» - وطحتهم كحبات قمح تحت حجر الطاحونة. تفرقهم حقلهم. حين اجتمعوا من جديد، في «نزهة العيد» في باحة الرياح والرياح ذاتها،

تعانقوا بلا صوت. عيون رطبة رمشت تقاوم الهواء والصقيع. هذه المرة حضر الأخوة عز الدين جميعاً. بشير ونعمان سلماً على حنا معاً، كأنهما شخص واحد. بتروا ذراع نعمان في بلغراد فانقطع لسانه. لم يسمعه حنا يتكلم منذ جلسا في بطن السور تحت غيمة البارود. حفرت جبهته تجاعيد. وجنتاه غارتا كأنه قد أسنانه. بدا أخوه بشير يافعاً جنبه مع أنهما متقاربان في السن. الشيخ محمود ظهر أحسن صحة من المرة الماضية لسبب واحد فقط: غياب السعال. وقف قريباً من حنا ووضع يده على كتفه. حين أطلّ قاسم آتياً من بعيد عرفوه على الفور: لم يتبدل، كأنه أمس فقط افترق عنهم! ألقى عليهم السلام وكسر السحر: سمعوا صوتاً محطماً خافتاً كأنه يخرج من أعماق سحيفة. طال عناقه لأخيه الكبير محمود. كان يجرب الابتعاد فيحضنه الشيخ محمود من جديد. سلّم على حنا ونظر إلى أسفل. سمعوا بعد أيام، متفرقين في أقيمتهم، أنه قضى سنة كاملة في «البئر». زلزلة حجرية ضيقة عميقة في الأرض لا يبلغها ضوء ولا صوت، يُعاقب فيها السجين بأن يُحبس وحده تماماً ولا يرى وجه انسان آخر. الخبز يُلقى إليه في الظلام حتى لا يموت. الماء يتسرب من شقوق الحجر. لعلها بئر غار ماؤها. تبادلوا الأخبار وحين سألوا قاسم عن قبه والمحاييس معه أجاب وهو يبرم رقبته ناظراً إلى الباحة ورؤوس الأغصان فوق السور: «مثلي مثلكم. لكن مرات يؤلمني ظهري لأن المكان ضيق.» أشار إلى طير يعبر السماء وجلس على الأرض. وهكذا جلسوا. بدا أصفر اللون، جلده مطفأ أقرب إلى بياض الشمع. نقل نظرتهم بين وجوههم كأنه يسترجعها من النسيان ويحفظها من جديد. أخبرهم أنهم منذ فترة نقلوه إلى قبر جديد وهذا أحسن من

الذي قبله وفيه ضوء شمس وبعض المحاييس معه يعرف التركية قليلاً من العربية وهكذا يتكلمون ويمضي الوقت. اقترب دروز آخرون. نهضوا وسلموا عليهم ثم جلسوا معاً في حلقة. ظلوا يرفعون عيونهم إلى السماء ويفتحون أفئدهم لالتقاط قطرات المطر. لم يأت الشيخ عماد الدين محمود. لكن حمد الأعمى أخبرهم أنه رآه قبل يومين. «عنده حمى. ودود في البطن.» سألوه أين الشيخ حليم أبو خزام؟ أخبرهم أنه مات في الصيف. سألوه لماذا لم يخبرهم؟ «أخبرتكم الآن.» تهديج صوته. «أنت مثل أبيك يا حمد، الله يردك إليه ويسعد بك وتسد به.» اقتربوا من الأعمى ورتبوا على كتفيه. سألوه كيف مات الشيخ حليم الله يرحمه؟ «مات أحسن موة. وهو نائم.» ترحموا على الميت وسَمُوا أولاده وأهله في قريته. سكتوا ولم يكملوا العد ولم يذكروا بقية أقاربه في أنحاء الجبل. تعبوا. «أنا والمشايخ العميان صليتنا عليه. دفناه جنب الشيخ مهران.» حنا سمع كلمات حمد الأعمى بينما الجرس يُقرع. حارس أشقر إلى حد البرص دار يرن الجرس منتقلاً بين مجموعات المحاييس. أسرعوا واصطفوا. اقترب من الدروز وتوقف لحظة عن هز معصمه وأمرهم بالتركية: «أنتم ابقوا هنا. الياشا سيُشرفكم برؤيته.» ثم مضى قارعاً الجرس.

### (أخبار طيبة)

لم يبقَ غيرهم في الباحة. بدت واسعة فجأة. كفت الرذاذ عن التساقط. الجنود الواقفون على مسافة في صف شبه منتظم نظروا

عادوا في صحة جيدة ويدعون لكم، أرسلوا الرسل ويسلمون عليكم. قُرب الفرج وأظن أنكم أنتم أيضاً تخرجون في وقت غير بعيد. هم كانوا محكومين فترة أقصر منكم، سبع سنوات فقط، لكن سلطاننا المفخم أحب أن يتكرم عليهم وسامحهم بثلاث سنوات، وأنا أسمع أن جناب الوزير فؤاد باشا يسعى من أجلكم ولعلكم تخرجون قبل العيد. كلوا، تفضلوا، لكم أيضاً هدايا أقمشة ودنانير لكننا نحفظها لكم حتى يحين وقت خروجكم من ضيافتنا. أنا لا أجد هذا المكان مكانكم، أنتم جاهدتم من أجل رضى السلطان كما أسمع لكن الاحوال شاءت ان تنتهوا بعيداً من أرضكم. جناب راسم باشا كتب لي وسألني عن أحوالكم. يقول انكم بناة مهرة وعمرتم حيطاناً متينة فترة نزولكم في بلغراد. يقول انكم تحبون الشغل. اذا حلقتم امامي انكم لن تحاولوا الهروب أخرجكم للعمل في الحقول. هكذا تصير محكوميتكم أسهل وأخف عليكم بانتظار صدور الارادة السنية. تشاوروا الآن وهاتوا جواباً.»

### (بلا سلسلة)

لم يلمس النوم رموشه تلك الليلة. دخل القيو تصحبه رائحة التفاح العجيبة وحتى الذين اعتادوا لظمه أو مدّ الساق امامه أو شدّ سلسلته خافوا منه. شعر بهم ينكمشون. الحارس الذي أوصله الى باب القيو لم يدخل معه ولم يقيده الى الحلقة. قضم التفاحة الفواحة العطر وأعلمه بتركية صار حنا يفهمها أنه لن يربطه بعد اليوم. انتظره حتى بلغ زاويته ثم تراجع مع المشعل وأقبل الباب.

الى الدروز المتراضفين وابتسموا. كان ذلك غربياً. أمروا حمد الأعمى أن يصطف مع الباقين فوق في الخلف وصار يطرق الرجل امامه بالعصا. حين انفتحت البوابة الكبيرة في طرف الباحة ودخل الباشا على فرس سوداء توفقوا عن التنفس. عامر بيك البوشناقى صاحب الهرسك رئيس الحبس يُعرف بالباشا هنا لأن سيادته مطلقة: رجل نحيل لين كتعبان تهادى على فرس تنقاد للرسن الحرير بين أصابعه انقياد جارية. دخل وحده. اتغلقت البوابة خلفه واخضت خضرة البرية الملونة بالأصفر. لمحو العالم الخارجي لحظة ثم عادوا الى جوف الباحة العالية الأسوار. ضوء الغروب تكاثف الى درجة السيلان، أحمر كالدم، على مدامات ممزقة وأقدام حافية. أوماً الباشا وهو يدنو فتتحرك الجنود وأفسحوا لشغيلة خرجوا من مكان خفي يحملون سلالاً ثقيلة. وضعوا السلال أمام الدروز: كانت مملوءة تفاحاً.

«السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.»

تكلم عامر بيك البوشناقى من فوق السرج. كان نطقه العربي سليماً بديعاً كاملاً.

«كلوا، تفضلوا، هذا هدية لكم مرسله من أهلكم في جبل لبنان. أهلكم يعرفون أنكم هنا الآن وفي وقت قريب ان شاء الله نردكم اليهم. أحمل لكم أخباراً طيبة. أخوتكم المنفيون في طرابلس الغرب صدرت الارادة السنية بالأفراج عنهم وهم الآن بين أولادهم ونسائهم في منازلهم التي رجعوا اليها في بلدكم. لم يرجعوا كلهم لأن عدداً منهم قضى في الحبس، هناك الطقس شديد الحرارة، أنتم ربما لا تعرفون الصحراء، صحراء افريقيا رهيبه، الرمل والعقارب، لكن رحمة الله واسعة والقسم الأكبر من أخوتكم



تقريباً. حاول أن يتذكر صف الدكاكين الصفراء بينما تُقفل والوجه الودودة التي تردّ تحتها والاسكافي الأبيض الحاجبين الذي يتأخر ويشعل القنديل المعلق قاعداً في باب دكانه الضيق وهو يبدو مهموماً بسبب أشغاله وبسبب الضوء الضعيف. وبعد مصطفة حمادة الخياط الذي لم يره مرة بلا خيط يقطع بأسنانه، سبيل الماء والدرج المبري المسقوف الذي يسبق حارة اليهود بالأبواب الخشبية الخضراء القديمة وأحواض الحيق والمردكوش عند القنطرة، والمرأة السمينة التي لا يعرف اسمها والتي تخرج في تلك الساعة مكشوفة الكتف وترمي مياه الغسيل في القناة ثم تختفي مرة أخرى. كم سنة مرت؟ أراد أن يقيس الوقت واكتشف أنه لا يعلم كيف بالضبط وقرر أن يسأل الآخرين حين يراهم. «تخرج للعمل في البساتين كما فعلنا في بلغراد؟ متى؟ الشتاء لم ينته بعد. في الصيف؟» سمع هديرأ بعيداً. كأنه رعد. من الكوة العالية تسرب هواء بارد. «تتشو في بيروت الآن؟ يدلف سف بيتنا؟ هل حدثت هيلانة السفف وحدها في غياي؟ أهملت حمله بعد الشتوة الأولى وتشقق التراب والطين؟ هل هيلانة في البيت، بيتنا؟ ضايقه حكاك كاحله، كأن اللحم افتقد السلسلة. قبض على منطقة الحكاك وأصغى الى سجين يتكلم في نومه. كان معناداً على هذا. فهم عدداً من كلماته اليوسنية وأدرك أنه يحكي مع أمه عن حمار أو بقرة وعن سياج مكسور. بعد الحكى أخذ يصيح ويلعن كأنه تعارك مع أمه التي لا تسمع أبداً ما يقوله. ثم لطم نفسه - أو لطمه أحدهم - وهمد. «هيلانة في البيت مع بريرة؟» اتابه خوف شديد. ارتجف وحضن ركبتيه وظل هكذا.

وجد نفسه قاعداً بلا سلسلة! كان هذا شيئاً عجيبياً لا أحد في القيو أعطي هذا! حتى الألباني الملقب بالثور والمستبد بالمحابيس حوله كأنه السلطان في أسطنبول، حتى «الثور» مقيد بسلسلة! تقدم الليل وأصغى اليهم يشخرون كما فعل طوال الستين الماضيتين لكن في هذه الليلة بالذات كان شخيرهم مختلفاً. شعر أنه يطير أعلى فأعلى. كأنه سكران. كأنه ملا جوفه نبيذاً. تلمس الجلد الميت لكاحله. مذيده في الليل ولمس الحلقة الحديد المطروقة في الأرض كأنه يداعب قطعة من جسمه. «هذا حقيقي؟ أنا مفكوك؟ اذا وقت الآن لا أسمع قرعقة؟ أفدر أن أمشي فوق النيام الى الجهة البعيدة وأرجع؟» لم يتحرك من مكانه. «يُفرجون عنا؟ هذا حقيقي؟ لكن الباشا قال ذلك! أنا سمعت! لسانه دار في فمه، لمس قشرة نفاخ عالقة بين أضراسه. «أرى هيلانة وبريرة؟ أسير في الأسواق؟ أنام على فراشي في بيتي مغسول الجسم شعبان البطن لابساً قميصاً نظيفاً؟ أنهض في الفجر سامعاً الدجاج في القن وراء الحائط؟ معقول؟ أخرج؟ هذا حلم أم حقيقة؟» عض على شفته وأدعاها ولحس الدم: طعم الكبدة النيئة. «أصل الى بيتي وأحمل بريرة بين يدي وأشتم رقبته؟» أغمض عينيه ثم أستدعها الى قبضتيه كأنه يخشى وقوعهما من المحجرين وقوع الخوخ الناضج عن الشجرة. شذ حتى رأى خيوطاً بيضاء في قلب الظلمة. سدّ أذنيه مانعاً أصوات القيو وحاول أن يتذكر الطريق أول المساء من المرفأ الى البيت. اعتاد أن يرفع وجهه عند بلوغ سوق الفشخة كي يرى البرج الحجري لكنيسة مار الياس الكاثوليك يطلّ من وراء جامع السراي الذي يسمونه «جامع عساف»: هذا البرج بجمره النحاسي امتداد لبيته. يقطع السوق متمهلاً بعد رؤيته لأنه وصل

تساقط المطر أياماً لا تنتهي وتحول القبو الى مستنقع. ذات ظهيرة مظلمة سمع المفتاح في القفل وظنّ أنهم جلبوا سجيناً. كان شبه نائم لكنه رأى اللهب. تحرك المشعل فوق رأسه فقام مذهوراً.  
«جئت كي أرى وجهك يا شيخ سليمان.»

لم يفهم ماذا يحدث بسبب قوّة الضوء المنصب في عينيه. تحرك المشعل متراجعاً وعندئذٍ فقط ميّز الوجه المشوه بحروق البارود. كان هذا حمد الأعمى. وجد أخيراً الطريق الى قبو حنا. أتى رطب الثياب يحمل اليه سلام أخوته وحفنة ورققات تشبه ورق البلوط هدية.

«ما هذه؟»

«دواء لوجع البطن والاسهال. مرّة كالتقصعين لكن نبتتها قصيرة كجذبّ الفرفحين تلتصق بالتراب تقريباً. لا تنمو الا في البوسنة والهرسك. وراء المقبرة تقاثل النساء على قطعها.»  
وقفا في الدهليز المبلول خارج الباب المرود والمتروك بلا قفل. على بعد خطوات جلس الحارس يعضغ تبغاً ويتسّم. بدا مخبولاً أو على حافة الخبل.

«متى نخرج يا شيخ حمد؟»

«من يعرف يا شيخ سليمان؟»

«سكنتك أحسن من هنا يا شيخ حمد؟»

«أين؟ حدّ المقبرة أم في قرينتا في الجبل؟»

نظر الى الوجه المحروق يضحك واستغرب كم صار هو -  
بائع البيض - عاجزاً عن الضحك.

«لم أعد أقدر يا شيخ حمد.»

«اصبر يا شيخ سليمان، اقترب الفرج. اشكر ربك أنك مفكوك ولست وحدك في القبو. هذه نعمة من ربنا. أخوك الشيخ قاسم تركوه في البئر سنة بأكملها لا يرى وجه مخلوق ولا يسمع الا نفسه. أنا وأنت في نعمة. لو تركوه تحت أطول كان ققع قلبه. الآن مرتاح وسألني عن صحتك. هو قال لي بعظمة لسانه: كيف تتحمل بلا نور يا حمد؟ هكذا سألني. قلت له يا شيخ قاسم أنا أرى، أسمع أصوات أخواني وأشعر بهم يتحركون أمامي وأشمّ جلودهم. أمّذي وبدي والمسهّم. أحفظ وجوههم من قبل وأعرف كيف تنظر عيونهم التي وأصير أراهم كأن المدفع لم ينفجر قدامي.»  
«أنا لست مثلكم يا شيخ حمد. أنا حتى لا أعرف كيف

صمدت حتى الآن.»

«ما هذا الصوت؟ ماذا يفعل الحارس؟»

«ينقر الأرض بسكين. ويصفّر.»

«كم عمرك يا شيخ حنا؟»

«أكبر منك يا شيخ حمد. لكني لا أعرف عمري. ولدت قبل سنة القصف الانكليزي. أظن عندما أخذونا من بيروت كان عمري 23 أو 24 سنة.»

«وعندك بنت صغيرة؟»

«هزّ حنا رأسه.

«لماذا لا ترد؟»

«عندي بنت صغيرة.»

«ماذا أسميتها؟»

«بريارة.»

«سمعتني أبكي وسألني لماذا أبكي. اشتقت للبيت، قلت له، وخاف على أبي. قال لي كل ليلة قبل أن تنام تكلم مع أبيك كأنه هنا وأخبره ماذا فعلنا في النهار. هكذا يسمعك في الجبل وهو قاعد ينتظرك.»

### (حكاية مصطفى مراد وبناته الثلاث)

منعهم هذيان الألباني من النوم لكنه سكت مع أذان الفجر وناموا. أيقظتهم جلبة الحارس وبينما يضع سطل الخبز أعلموه أن «الثور» قفى.

«عظيم. أراح البقرات هنا وفي الخارج.»

ضحك وتوارى مقللاً الباب. ظلت الجثة بينهم حتى الغروب وعند المساء أتوا وأخرجوها. حنا نظر الى ثلاثة أولاد حبشيين يتصارعون مع الجثة الثقيلة وهم يجرونها. الموت ضاعف ثقلها مع أنها كيس عظام وحسب. الحارس حَقَّق الى الميت بايِّم الوجه. لهب المشعل تراقص حوله. حين أقفل الباب من جديد مسح حنا العرق عن وجهه وحاول أن ينام. لكن سجيناً آخر بدأ يهذي. ابتعدوا عن المحموم والتسقاوا بالحيطان. هجعوا كالدجاج في موجة حر. بعد نصف الليل تسرب الى القيو ضوء حليبي عجيب. حنا الساهر تحرك من مكانه ورأى قطعة من القمر. سمع شخصاً نائماً في أعماقه يئن. القطعة البيضاء بياض الجبنة سدَّت الكوة العالية. أصغى وعرف أنه أنين المريض: كَفَّت عن هذيانه لكنه يبكي الآن. حين جلبوا حنا الى هنا قبل سنوات رأى هذا الرجل

«أنا عندي أبي. أخذوني من الجبل قبل أن أتزوج. كنا نعدّ العدة وعمتي تتحضر مع أبي لزيارة أهل البنت عندما بدأت الحرب، وأبي زوّجني البارودة. أنا طلبتها. لا أعرف كم مسيحياً من ملكك قتلت يا شيخ حنا لكنني لم أقتل ولدأ ولا امرأة. حتى الآن يدي لم تمس بنتاً. أمي وقعت وماتت في حفل الزيتون وأنا طفل. أبي ربّاني وحده. حين حبسوننا في دار المختارة قبل أن نزل الى بيروت أخرجوني كي أقابله دقيقة. قال لي «توكل على الله» وأراد أن يكمل لكنه لم يقدر.»

مدَّ حمد الأعمى يده ولمس حجارة الحائط. عثر على فاصل بين حجرين. حركَ رؤوس أصابعه كأنه يُقلد عنكبوتاً. الحارس تابع نقره بالسكين بلا اهتمام. جلسا على الأرض. من مكان بعيد جاء هدير رعد.

«أردت أن أموت عندما راح بصري. لا أقدر أن أخبرك ماذا شعرت. كنت أسمعكم في القبو وأفكر: اذا أخرجونا لن أخرج معهم لأنني أعمى الآن. عذاب الحرق ينتهي لكن العمى كيف ينتهي؟ أبي ينسخ «رسائل الحكمة»، هذه عندنا مثل الإنجيل عندكم، ننسخها باليد لأن طبعها حرام. مع أن أبي عجوز جاوز السبعين، يده لا ترجف أبداً. خطه أجمل من سمك النهر. علّمني الكتابة وأنا صغير. خطك مع السنوات سيصير أجمل من خطي، هكذا يظنّ يقول لي. عندما عميت فكرت أنني لن أرى وجهه مرة أخرى.»

تنفس حنا كأنه يهتق ولم ينطق.

«أردت أن أطير الى البيت كي يراني ويقول لي كلامه. لا أعرف كيف تحملت تلك الأيام. لولا الشيخ مهراڤ كان قلبي قفص.»

في الزاوية الأبعد من «الجورة» ينقر برأس اصبعه الحائط. كان في العقد الخامس أو السادس، مغطاً الجلد، مترهل الرقبة، يشبه خواجات بيروت أصحاب الوكالات والمخازن على المرفأ. عمامة خضراء لفتت قبة رأسه في ذلك الوقت لكن زمن الحيس رققها ثم بذدها. لم يسمعه يتكلم الا نادراً. عتق الحفرة في الحائط حتى صار اصبعه يخفي فيها. في تلك الليلة المقمرة التي أعقبت موت الألباني سمع الرجل المحموم ينادي عليه بالعربية. قبل ذلك لم يسمعه يتنطق الا بالتركية.

«يا شيخ سليمان، يا شيخ!»

نظر الى وجه مستدير يرتعش مغموراً بالعمق ويراقيه بعينين أصغر من حبيتي عدس.

«ماء. نقطة ماء.»

لم يتحرك. رأى لحية شقراء ترتجف بينما الرجل يحاول أن يرفع جذعه.

«لا تخف. أنا لستُ مريضاً مثله. لن تمرض.»

جلب للرجل كوز ماء.



في خان أكمكجي زادة في مدينة أدرنة امتلك الحاج مصطفى مراد متاجر ومستودعات. جد عائلته الكبير حسين رسمت كان طباحاً في بلاط السلطان مراد الثاني ومن بعده صارت كنية العائلة مراد.

أصابوا ثروة مع الفتوحات العثمانية في بلاد المجر وهكذا نشأ مصطفى مراد طفلاً محاطاً بالحرير والعبود في قصر أبيه المطل على جامع السليمية، أجمل جامع في العالم. قبل أن يتزوج حجّ مع عمه الى مكة المكرمة وطاف الكعبة وزار قبر الرسول الأكرم.

أعطوه بنتاً أسطمبولية من عليّة القوم. رُزق منها ثلاث بنات. قضت زوجته بعد وقت قصير من هجوم الروس على أدرنة. حين خرجوا وزال الخطر عن عاصمة السلطنة اكتشف أنه لم يفقد زوجته أم بناته وحسب بل تجارته أيضاً: احترقت في القصف مخازن أكمكجي زادة. لم يتحطم واستندان مالاً وبني تجارته من الصفر وصار يرسل قوافل الى أقصى الغرب، الى تخوم السلطنة، ويستقدم قوافل. كان يكفيه النظر الى أقماره الثلاثة كل مساء عند رجوعه الى البيت كي يجد شبابيه. تزوج خالتهن لا حباً بها بل من أجلهن. حين بلغت الكبرى سن الزواج صدع الطالبون القرب رأسه. أعطاها لتاجر مؤمن كريم يجاوره في خان أكمكجي زادة. بعدها بسنة زوّج الوسطى لتاجر صاحب سفن أصله من طرابزون على البحر الأسود لكنه مقيم بين أسطنبول وأدرنة. حين أتى الخاطيون في طلب الصغرى التي ستأها هند رفض تزويجها. كان متعلقاً بها الى حد الوله والخالة التي صارت زوجة لم تقل شيئاً. هي أيضاً أرادت بقاء هند في البيت. تاجر يسافر ثلاث مرات في السنة بين أدرنة وسراييفو محملاً بالأقمشة وأنايبق عطر الورد وأقفاص الطيور المغردة تناول طعام العشاء مرة واحدة في ضيافة الحاج مصطفى مراد ورأها. كانت تعبر الممر ولاحت منها نظرة فأصابته في قلبه. التاجر اسمه سيد خيرى. في سراييفو ينادونه سيد الأدرني. حاصر الحاج مصطفى مراد حتى استسلم لرغبته. لم يبقته الذهب الذي بذله سيد خيرى مهراً بلا تردد. أقنعتة هند. أرادت أن تتزوج.

«لكن سراييفو بعيدة يا ابنتي. هذه وراء بلاد البلغار، في

جبال اليوسنة.»

«أعرف أين هي يا أبي. أنت قلت لي. تشتري منها ومن مدينة  
 موستار وتبيع فيها.»  
 «أريدك قريبة مني يا هند. انتظري وأجد لك زوجاً في أدنة.»  
 «أنا دائماً قريبة منك يا أبي. حتى في سرايفو.»  
 كسرت البنت ارادته. أعطاهما لسيد خيربي. كان رجلاً وسيم  
 الملامح عسلي العينين نظيف الثوب لا يظهر إلا الودة والصدق ولا  
 يتأخر يوماً في تسديد ديونه. إذا وعد بتسليم حمولة تصل مهما  
 هبت عواصف أو ثارت فتن. وإذا حمل بضاعة بالأمانة حرص  
 عليها فلا تلف في الدرب ولا تصييك خسارة. ذهبت هند معه إلى  
 سرايفو مثقلة بهدايا تزيد عن المهر الذي دفعه. رأها الحاج  
 مصطفى تنظر إليه من فوق اليهودج وأراد أن يمد يده ويلقط رسن  
 الجمل. لكن القافلة تحركت وهند كما يعرفها ضاعت إلى الأبد.

### (حكاية مصطفى مراد وبناته الثلاث - 2)

الصوت الذي يحكي همساً في القبر النائم ملاً حنا بذكريات  
 لا يدري كيف فقدتها. زمن طويل مرّ لكن ماذا حدث في هذا  
 الزمن؟ لا عامر بيك البوشناقى أخرجهم إلى الحقول كما وعد ولا  
 حمد الأعمى رجع كي يزوره. روى الحاج مصطفى قصته فرأى  
 حنا خان أنطون بيك في بيروت بدلاً من سخانات أدنة وشاهد  
 القوافل الداخلة من باب الدباغة يقودها شوام بدلاً من القوافل  
 البوسنية الخارجة من أكمكجي زادة. كلما قال الحاج «هند»  
 غصّ. جوزة رقبته بدت متورمة. تحرك كأنها تبتض.

«استان ولم أزها وكلما أتى إلى المدينة يخترع حكايات كي لا  
 أذهب إلى سرايفو لرؤيتها. في السنة الثالثة لم يأت. كنت قاعداً  
 في المتجر بين أكوام القماش، أطلس ثمين وحرائر رومية، ورأيت  
 أنني خسرت كل شيء. كنت فعلاً بدأت أخسر في تجارتي: من  
 دون بناتي لم أعد أحب ما أفعله. حزمت أغراضي وذهبت إلى  
 أسطنبول ونزلت يومين عند ابنتي وزوجها وفرحت بأحفادي. لكن  
 هذا لم يزدني إلا شوقاً لصغرى بناتي. وهكذا سافرت إلى  
 سرايفو. سألت عن بيت سيد خيربي في الأسواق حتى دلوني إليه.  
 شربت ماء من سبيل يقطرة أمام نكية يكثر في مدخلها الحمام لأنهم  
 يرمون له الحب ثم قرأت الفاتحة. أنا تعلمت القرآن على والدتي  
 الله يرحمها. كانت حلية من بلادكم وأغوالي كانوا يأتون لزيارتها  
 بعد عيد الفطر وينزلون عندنا، وفي الأضحى يجلبون معهم الخراف  
 وأنا أساعدهم في ذبحها. بينما أفرع باب بيت سيد خيربي فكرت  
 في أمي التي سميت ابنتي هند على اسمها. انفتح الباب ورأيت  
 امرأة تتراجع خائفة. هند. إينتي. لا أعرف كيف تحمّل جسمي  
 الصدمة. بدت أكبر من عمرها بعشرين سنة. لكن ما قتلتني كان  
 نظرتها: حطّمتها سيد خيربي تحطيماً. حتى مني أنا بدت خائفة مع  
 أنني لم أرفع كفي في وجهها مرة كل حياتي! حضنتها. بكت حتى  
 ابتلّ قميصي. خرجت وهي تتعلق بي وتقول «لن يقبل!». سرت حتى  
 الخان الذي دلوني إليه ووجدت سيد خيربي هو هو، لم يتبدل  
 شعرة. ركض صوبني ضاحك الأسارير وباس كنفني وعانقني.  
 أجلسني بين سلال القصب وجلس قبائتي وهو يلعب بقصبة. أرسل  
 عبداً كي يجلب قهوة وماء وكعكاً وسألتني عن الطريق ومتى وصلت  
 وكم يوماً وليلة استغرقت الرحلة. ظننت أنه سيقبل اقتراحي عندما

فتحت فمي . قلت له سأعطيك المهر وأزيد عليه لكن هند تذهب  
معي الى أدرنة . من دون كلمة أخرى عرف أنني رأيتها . كان فكي  
يرتجف وخفت أن أموت هناك بسبب قلبي .

«اهدأ يا حاج ، وجهك أحمر مثل الشمندر ، السفر أهلكك .»  
برمشة عين بذل وجهه ونبرة صوته وصار شخصاً لم ألتقه من  
قبل . ابتسمم والتقط سكيناً عن الطاولة وأخذ يسنّ القصة بينما  
يتكلم . رأيتة كأنني راكب على فرس سريعة . وبيننا غبار أحمر .  
قطع القصة طويلاً ورمى نصفها .

«ابنتك يا حاج لا أردعها لك ولو بوزنها ذهباً . أنت لا تعرف  
قيمتها . لكنها قصة خضراء مثل هذه عليك أن تطويها وبعد ذلك  
تتركها في الشمس كي تنشف من الماء وهكذا تبقى مطوية . أتيت  
من دون أن تعلمني . لماذا فعلت هذا؟ ثم تقول لي هذا الكلام  
الذي لا يقبله رجل . ما علاقتك أنت؟ هذه زوجتي وليست  
زوجتك .»

دخل العبد حاملاً الصينية .

«اسمع يا حاج ، أنا لا أريدك أن ترجع الى بيتك متضايقاً .  
نذهب ونأكل لقمة وترتاح حتى الصباح ثم نذهب . وزوجتي تحضر  
لك شيئاً تأكله على الطريق . الطقس في سراييفو هذه الأيام لا  
يطاق . ربما نذهب ونزوروك في الصيف . اذا سمح الوقت .»

وضع القصة والسكين جنب الصينية .

«أخذ شربة ماء يا حاج . تيدو مريضاً .»

«اسمعني يا سيد خيري ، أنت تاجر ذكي وتعرف مصلحتك .  
قلّ لي ماذا تطلب كي آخذ هند معي . أعرف أنها لم تنجب لك  
وأعرف ما تفعله بها . أموت هنا ولا أذهب وأتركها في بيتك .»

تراجع على مقعده . رأيت يديه تلمسان زناره العريض الأحمر .  
«أقول لك شيئاً يا حاج . أنت تعرفني . كلمتي لا تصير  
كلمتين . ولا أتاخر معك هنا بقر أو صوف أو كنارات . هند ملك  
يدي . لو نزلت السماء على الأرض لن أردعها . باقية في فراشي  
وتخدمني . وأنت ترضى أو تذهب من وجهي .»

شرب فنجان القهوة وردة .

«اشرب فنجانك يا حاج . أم تريد أن تسافر الآن؟ هذا وقت  
جيد للركوب .»

رأيتة يمدّ يده ويجذب من الكومة سلة خيزران مفككة . كان  
يشدّ مسكتها صوبه وحين التفت كي يرى ماذا أفعل غرزت السكين  
في رقبته وذبحته .»

### (اشغال الطرق)

أخرجوهم لتصليح طرق أفسدتها السيول . وجدوا أقدامهم  
تغوص في سهول الوحل . ومداساتهم تعلق ولا تخرج . نهار  
رمادي من الغيوم . وعصافير تتفاقر على أخصان رطبة عارية . كانت  
بهجتهم لا تُصدق . لا الهواء لسعهم ولا السياط . شربوا الهواء  
النفثي الكثير وسكروا . لو سمحوا لهم كانوا غنوا وديكوا . عامر  
بيك البوشناقي مرّ من بعيد على فرس زرقاء . رفع يميناه فأنفصل  
عنها صقر من ذهب . انطلق كسهم ملتهب . اختفى كأنه غاص في  
الوحل حيث نهوي الأرض صوب نهر يُسمع ولا يُرى ، ثم خرج  
أكبر حجماً ومن مخالبه يتدلى أرنب فضي يبرق مثل سمكة . طرح

وقف في بابه العالي ينظر اليهم عاتدين أول المساء. رأى  
سقوط وجوههم بينما أحدهم يودع الباقين. لفظ جملته في لحظة  
غامضة استعصى عليه فكّ لغزها الغريب:  
«ديروا لهم قبوراً واحداً واجمعوهم فيه.»

### (البرج)

في طرف السجن الذي كان من قبل حصناً ينتصب برج  
حجري ضيق استخدم على التوالي وعبر أربعة قرون منارة للمراقبة  
والحراسة، ومخزناً للذخيرة، وزرية للماشية التي تنتظر الذبح،  
وقبواً يلجأ إليه أخط الجنود لممارسة الفحشاء مع البهائم، وقتناً  
للدواجن، وخربة للتبول وقضاء الحاجة، وقصصاً لنمر آسيوي  
عجوز، ثم مستودعاً للذرة والثوم والبصل. عندما جمعوا الدروز  
فيه كان خالياً يفوح برائحة التبن الرطب والبصل المعطوب. البرج  
طبقتان مع درج حجر داخل في الحائط وكوي عميقة للبواريذ  
والقصص تطلّ على سلسلة تلال يغطيها القندول والوزال والصخور  
البيضاء الصقيلة. نقلوهم الى هنا في فصل الربيع. عند هبوب  
النسيم اجتاحت رائحة الزهور البرية الريح فشعروا أنهم في الجبل.  
حمد الأعمى هجر بيوت الطين والقش الواطئة حد المقبرة وانضم  
اليهم. أحصوا عددهم - ما بقي منهم - واكتشفوا أنهم 44 ومع  
حنا يعقوب الذي سمّوه سليمان غفار عز الدين عددهم 45. بعد  
ثلاث سنوات تقريباً من التفرق أدركوا - بينما أحدهم ينظر الى  
وجهه منعكساً في وجوه أخرى - كم تبدلوا. لم يستغروا كم كبروا

الطريدة أمام سيده فضهلت الفرس. هبّ الهواء محملاً برائحة تشبه  
الزعرور. جرفوا وحلاً. جمعوا حجارة ورصفوها حيث اتخذت  
الطريق. جرّوا محادل حجرية. ففزوا فوق المحادل وبعضهم جرّ  
الأخر. أكياس عظم ولا يعرف أحدهم من أين ترجع اليه القوة.  
أراحوهم ظهرأ عند بلاطة صخرية شاسعة بلون الثلج. أطعموهم  
غيزاً وحبوباً مطبوخة ساخنة. ناموا دقيقتين في الهواء الجامد ثم  
قاموا وحملوا المعاول والرغوش. تحركوا بلا حيل. سرعتهم بعد  
الظهر تضاعفت. بعيداً بان جاموس يجرّ سكة المحراث وفلاح  
ضئيل أحمر الفميص يقف على السكة كي يفرزها عميقاً، ويجلد  
الحيوان البليد. طائر الذهب زعق فوق رؤوسهم. بلغوا هضبة  
وأطلّوا على بساتين تخرج منها نسوة محملات بالحزم في  
جماعات. كان النهار ينتهي وصلّوا ألا يحلّ الليل أبداً.



راقبهم من بعيد في حركتهم البطيئة. لم يسمع مفاصلهم  
تطرطق وعظامهم تتراطم. سمعهم ينادون أسماء وينبادلون تحيات.  
بسرعة، بينما يتعرقون الى وجوه التهمها الشعر والمرض، تحولوا  
الى شغيلة، الى عمال حقيقيين. تأكد من هذا بعد الظهر. صفر  
رافعاً عينيه فعاد اليه الصقر. انتبه كيف يتحابلون على الجنود وهم  
ينقلون الحجارة أو الأثربة: لاحظ الأفواس المحنية المتطاولة التي  
ترسمها حركة أجسامهم بينما أحدهم يسعى للاقتراب من مجموعة  
بعيدة. رأى حماستهم تضاعف بعد انضمام الفرد الجديد اليهم.  
حدس أنه يمضّ اليهم بصلة دم. أطعم صقره قمحاً من راحته  
واستغرب كيف مرّ الوقت. تأملهم يدرجون صخراً ويهتفون. تذكر  
زناً قديماً ووجوهاً لم يرها منذ دهر. تهذّ. همز الفرس عاتلاً.

يكون. بدأ تائهاً في مكان آخر. انتظروه هنا وبعد زمن، حين ظن  
أنه لن يجيب، أخبره.

«ضربت واحداً.»

«واحداً من الجنود؟»

«لا، من المحاييس.»

قضوا سبعة أيام بعيداً من البرج يُبَلِّطون بالحجارة قسماً خطراً  
من طريق وعرة تُسمى «طريق دوبرفنيك» مع أن مدينة دوبرفنيك  
وراء الحدود، بعيدة على الساحل ولا تظهر من هنا. حين بلغوا  
قمة هضبة ورأوا البحر للمرة الأولى منذ سبع سنوات وقفوا  
مشدوهين. «البحر!» كانت الكلمة المنطوقة همساً معجزة.  
«البحر!» صارت الهمسة مفتاحاً سحرياً يدلّ الذي لم يتبّه بعد، لا  
إلى البحر البعيد الذي بان أزرق متموجاً بالفضة من بين جبلين،  
ولكن أيضاً إلى العالم اللامرئي القابع في انتظارهم وراء البحر:  
بلادهم. «لو أن نعمان معنا!» ندم بشير على جملته حين سمعها.  
بدأ أخوه نعمان ميتاً لا قاعداً وحده في البرج يحصّي أصابعه  
الخمسة وينتظر زيارة من حمد الأعلى الذي يخرج صباحاً في  
جولاته ولا يرجع حتى الغروب.

## (البرج - 2)

أبقت حركة نعمان قبيل الفجر. في البدء لم يفهم ماذا يفعل  
ثم اكتشف أنه ينتزع من الشقوق بين الحجارة أعشاباً نابته. حاول

في الحبس لأن هذا ما تفعله الوحدة. لكنهم استغفروا مرور  
الوقت: كيف صمدوا هذه السنوات كلها بعيداً من الأهل  
والزوجات والأولاد والبيوت، بعيداً من الأحصنة والبغال والحقول  
وأشجار التوت؟ اغتسلوا ذات مساء بعد نهار صيفي منهك طويل  
قضوه في بناء حائط دعم أسفل طريق جبلية ذابت الأتربة تحتها  
وانهارت، وبينما يجلسون في الطبقة التحتانية الأبرد جواً كي  
يأكلوا لقمة ويشربوا فتجان زهورات مغلّية سمعوا واحداً منهم يبكي  
ثم يشق ويكتفم نفسه لثلا يسمعه الباقون. لكنهم سمعوا. شربوا.  
الزهورات وسألوا الشيخ حمد من أين يجلبها. أرادوا أن يسمعوا  
أصواتهم ومع جواب الشيخ حمد تفرغ الحديث. وقت النوم  
انفصلت المجموعة المقيمة في الأعلى عنهم. بينما هنا يرتقي  
الدرج وراء قاسم شعر لبرهة وجيزة أنه سيرجع إلى بلده، شعر أنه  
لن يموت في الحبس ويُدفن تحت أشجار الزلزلت مثل كثير  
سبقوه. ضوء النجوم تُسرب من الكوي مثل وعيد غامض. نعمان  
استند إلى الحائط المستدير ينظر إلى التلال بصخورها الظاهرة في  
الليل. أحياناً يسهر وحيداً ويمدّ ذراعه الباقية كأنها قسطل بارودة  
في الكوة العميقة التي أن تبلغ أصابعه فضاء الخارج حيث يتحرك  
الهواء. حين يفعل هذا يبدو داخلياً في حجارة البرج كأنه قطعة  
منه. لم يعد يتكلم. الجنود تمنعوه من الخروج مع أخوته إلى  
الأشغال لأنه بلذراع واحدة. بشير ظل يلتصق به في المساء، حين  
يرجعون، ويحاول جرّه إلى حديث الجماعة. قاسم قال له: «أتركه  
يا بشير، أنت لا تساعد حين تصرّ عليه.» هنا رأى الشيخ محمود  
يمنع دمهته. قاسم أيضاً بات نادر الكلام. سأله هنا ماذا فعل حتى  
حبسوه سنة في البئر؟ نظر إليه كأنه يفحص وجهه، كأنه يجهل من



جوز معمرة يُقال إنها أقدم شجرة جوز في الجبل، نَسَبَهَا جوزة السلطان سليم، وتتموّن منها جميعاً. كل حبة مثل بيضة النسر. بهاء الدين الله برحمه كان يريد أن يبني جنب بيت قاسم. الله كبير. أنا أردته أن يبني جنبتي لأنني كنت أحب أن أرى وجهه أمامي طوال الوقت. وجهه يضحك لك كأن النور يضوي منه. في هذه الجهة حد بيت أبي بثر الماء. وبعد البثر عربة كانت بيتاً عاش فيه أحد أجدادنا. يقولون كان صاحب كرامات والطيور تأتي من آخر الأرض وتجلب حبّ قمح إلى بابه. وراء بيت نعمان مرج القمح وبعد البيدر كروم العنب والتين تغطي الجلول التي ترتفع حتى تصل إلى الخلوات. هذا المكان الذي نسهر فيه لقراءة الحكمة وللصلاة ليلة الجمعة. بُنيت في زمن بناء خلوات الزنبية في كفرنبرخ. من بعيد تشبه بحجرها وقناطرها خلوات البيّاضة في حاصيا. بيت قاسم يطلّ على النهر والجلول الممتدة من النهر إلى بيوت الضيعة مزروعة توتاً وتفاحاً وتملكها بالتساوي. أبي قسمها بيننا منعاً للخلاف، والحدود بينها أقيّة سقاية وشجيرات سماق لكننا لا نهتم بها لأننا نشتغل في الأرض كما لو أننا ملكنا معاً. هنا، وراء بيت أبي، شجرة صيّار ثمرها أحلى من العسل في آخر الصيف، أحبّ كثيراً أن أقطف وأكل منها وهي باردة بالندى في الصباح وأقشر للأولاد وزوجتي. إذا ربّنا سبحانه تعالى ربّنا إلى الجبل أحياء ستأتي وتأكل منها معنا يا حنا.»

«وأخوكم سليمان، أين بيته؟»

«سليمان لم يترك بيت أبي. تزوج وظلّ في البيت.»

أن ينام من جديد لكن ذهنه أخذه إلى بيت بعيد. رأى بريارة وقد كبرت تحمل مكنتة وتساعد أمها. تتعثر بالعبئة أو تضحك ناظرة إلى الدجاج الخارج من القن. حاول أن يتخيل وجهها فامتلا زلعموه بالدموع. كان عاجزاً عن تخيل الوجه. الشيخ محمود أخبره عن أصغر أبنائه الذي سَمَّاه كنعان مثل جده لأمه. تركه ابن سنتين وحين يراه في المنام يتنابه خوف شديد. يستيقظ مرتجفاً ويقضي النهار مليد المزاج معتكر النظرة. سمعه يتكلم مع قاسم وعرف أنه يخاف على ولده من الحيّات. وراء بيوتهم في الجبل أحراج سنديان وكثيراً ما قتلوا حَيّات سامة على العبئة وعند مسكبة النعناع. شمس الهرسك قشّرت آذانهم. استراحوا ذات ظهيرة خارج قرية متكئة البيوت هاجعة في غفرة بين تلتين متشابهتين مثل طربوشين. شربوا وأكلوا بينما ينظرون إلى عمود دخان يرتفع فوق البيوت المحاطة بالشجر. شتوا راتحة مربي يُعقد للنو على النار. راتحة الفاكية الناضجة والفطر والحطب. رسم الشيخ محمود يعود يابس علامات في التراب ودلّ حنا إلى مواقع بيوتهم بالنسبة إلى بيت أبيه الشيخ غفار عز الدين. العرق برد على جلده وهو ينظر ويسمع.

«هنا بيت المرحوم علي، على الحائط الغربي لبيت أبينا. أرداني أن أبني جنبه لكنني أحبّ الشمس وبنيت هنا، حيث الأرض ترتفع، والجهة الشرقية مفتوحة على جبل صنين. بشري بنى جنب بيت علي وخلفه عند صخرة البيدر بنى نعمان. جلينا الحجارة على ظهورنا والعتيات الكبيرة على البغال. بيت أبي عقوده أعلى وحيطانه أسمك، العبئة فوق بابه جلبوها من عينال. جرّها جمل. قاسم بنى أبعد، على كتف الوادي. قدام بيته شجرة

«بشير طيب القلب. لا تهتم.»

«يظن أنهم وضعوك في البئر بسببي؟»

«البئر مثل الحبس. من دونك أيضاً كنا سنأتي الي هنا. ابعذ من طريق بشير وهو لن يقترب منك.»

•

وقعت أمطار الخريف الأولى بينما يرمون جسراً على نهر درينا. تحركوا محاذرين وسط الورشة المكتظة بشغيلة أجراء وشغيلة سكرتهم البواريد. أخطر الحوادث تقع في هذه الظروف. «لا تنقل التراب الي هناك، تعال معي!» مضى حنا خلف قاسم. ظهر الشيخ عارف عبد الباقي حاملاً مطرقة محتنت الوجه مبلولاً. كان يشتم همساً وبعض اللحم الحي في بطن فمه. هز قاسم رأسه. بادله التحية. بدا أهدأ الآن بسبب هذا القرب الجسماني. حترهما من القرويين وقيل أن ينهي كلامه سمعوا صرخة في الجهة البعيدة ورأوا صخرة تغطس في النهر. اجتمعوا حول بوسني سحقت الصخرة المتدحرجة قدمه. بكى الرجل زاعقاً وهو يُحمل الي عربة ثيران. مضت العربة بليدة تتسلق تلاً مخضراً تسيل منه السواقي بيضاء كالملين. سمعوا عندئذٍ للمرة الأولى الخبر الغريب: باشا بلغراد السابق يسكن في قرية وراء تلك التلة.

«عزله السلطان؟»

«أنتم من أين؟»

«من جبل لبنان.»

«وماذا تفعلون هنا؟»

«نصلح هذه القنطرة.»

بشير نظر اليه بعينيّ اليوم الصفراوين وهو يراقب نعمان. أذان الفجر أيقظ أهل البرج. لبسوا بسرعة ولحظة انفتحت البوابة خرجوا منتظمين واصطفوا بلا صوت. حنا رأى شرراً يتطاير من تلك النظرة. لم يفهم السبب. أثناء النهار نقلوا تراباً وحجارة. قبيل الغروب استراحوا في ظلال البطم. انطرحوا على ظهورهم ناظرين الي غيوم الصيف تسبح خفيفة كالقطن وتمرّ. حنا اتبه الي النظرة الصفراء المسلطة عليه. مذبذبه وأمسك مرقق قاسم. طارت حساسين مزققة واختفت وراء أشواك أبيضتها الشمس. أخبره قاسم أن بشير هكذا، غضوب. كان بعيداً عنهم وأزاح نظرتة.

«وماذا فعلت له أنا كي يغضب علي؟»

«لا تهتم. لم تفعل شيئاً.»

«لأنني مسيحي؟»

«لا. لأنك هنا.»

«لا أفهم.»

«أنت مثل الخروف الذي أنزله الله من السماء الي النبي إبراهيم كي لا يُضخّي بدينه. أنت هنا لأن أبي أخذ أعمامنا الي البيت.»

«أنا مثل الخروف؟»

«بشير يظن أن كل ما يصيبنا يحدث لهذا السبب. أننا نُعاقب

لأننا جبلناك الي هنا.»

«يظن أن نعمان فقد يده بسببي؟»

«لكن ماذا جلبكم الى البوسنة؟»

«فانا السلطان.»

«أنتم دروز بلغراد؟ المحاييس في الهرسك؟»

«لم تخبرنا لماذا يسكن باشا بلغراد في قريبتكم؟»

«عنده زوجة وبساتين هنا. بلغراد أهداها السلطان في العيد الى أمير الصرب.»

«أهداء بلغراد؟ بنتنا الحيطان لراسم باشا في بلغراد.»

«هذا الباشا اسمه واصف باشا. راسم باشا قطعوا رقبة قبل

زمن بعيد.»

«أين يذهب هذا النهر؟»

«الى الشمال.»

«أين يصب؟ في البحر؟»

«لا. في السافا. أو ربما في الدانوب.»

«كيف تذهبون الى البحر من هنا؟»

«لا تذهب.»

#### (البرج - 4)

من الكوة رأى حنا البرق يضيء التلال. كان الجذر الأزرق ينفضر فوق الصخور البيضاء كأنه سيشقها نصفين. الرعد منعه من النوم. شعر بالبرج يميل على السور وخشي أن ينهار السقف على

رأسه. وقت طويل وهو ينظر الى الخارج ولا يسمع غير الرعد والشخير والمطر. نعس قاعداً هكذا والهواء الرطب يبيل وجهه الذي يسد الكوة. منذ أيام لم يخرجوا.

«النوم صعب.»

«متى سنخرج يا قاسم؟»

نادى صوت من الأسفل. استيقظ البرج. حمد الأعمى كان الأعلى صوتاً وسألهم ماذا يحدث، لماذا أيقظوه؟

«الشيخ عماد الدين مريض.»

تحركوا في الليل المضاء بالتماعات البرق وتجمعوا قريباً من الشيخ عماد الدين محمود. حنا نزل مع الآخرين على الدرج ويده على الحائط. كان الشيخ يئن والعرق يسيل كالماء من بدنه. أبعادوا الغطاء عنه وانتظروا ثم غطوه من جديد. جلسوا ونظروا اليه يحاول أن يقول لهم شيئاً. أعجزته الحمى عن النطق. فتح عينيه نصف فتحة وبدأ أنه لا يراهم.

«ماذا يفعل الآن؟»

«يريد أن يتكلم يا شيخ حمد.»

«قبل أن ننام قال لي انه تعبان لكنه لم يكن مريضاً.»

رطبوا فمه بقماشة مبلولة.

«المس يد يا شيخ حمد. أصابعه تحرق كالجمر.»

«لماذا ألمه؟ أنا أصدقك.»

لم يضحكوا لكنهم ابتسموا.

«الله يلعن الحبس وساعته.»

أبعادوا الغطاء من جديد وانتظروا وقتاً أطول ثم غطوه.

## (الخروج من الهرسك)

فتح الشيخ عماد الدين محمود عينيه. رأى نور الصباح يملأ  
البرج. ناولوه ماء. شربه كأنه قطع الصحراء لنتو. نظر الى الكوز  
المتقور من خشية سنديان وقال «هذا شغل الشيخ نعمان!» تلقى  
التفاهي بالشفاء وهو يرفع جذعه ويسند نفسه الى الحائط. «عذبتكم  
معي يا جماعة.» أعطوه ابريق الفخار. شرب حتى أفرغه. برقت  
عيناه الخارجتان من الحمى وهو ينظر الى الوجوه ويلفظ الأسماء.  
حمد الأعمى سأله عندئذٍ ماذا رأى وهو محموم؟

«رأيتنا يا شيخ حمد في الجبل. كلنا. ورأيت أولادي يذبحون  
لنا غنماً ويشون اللحم.»

«رأيتنا كلنا؟»

«كلكم. ورأيت عشيرة المرحوم عرفان أبو كروم معنا  
وسألوني عنه وأخبرتهم أنه مات في الطريق من بلغراد الى الهرسك  
وأنا دفناه وصلينا عليه.»

«أخبرتهم أين؟»

«لا، قلت دفناه في مقبرة.»

«وسألوك كيف مات؟»

«الواحد يموت اذا أتت ساعته.»

«ورأيت عائلتك وأولادك جميعاً بخير؟»

«رأيتهم.»

«هذه بشارة.»

«يا رحمان يا رحيم.»

«ادعوا وربنا يسمع ويُجيب.»

مسحوا العرق عن وجهه ورأسه ورقبته. بينما يمسحون كتفه بانث  
ندبة بنية عميقة.

«هذه من وقعة جزين.»

«لا. هذه من عين دارة. أسألوا الشيخ عثمان.»

«من عين دارة. كان وراء الشيخ سلام بيك العماد.»

حمد الأعمى تركهم وتحرك مطرطقاً بعصاه حتى بلغ كوة.  
سدّها بوجهه.

«ماذا ترى يا شيخ حمد؟»

قاسم أيضاً نهض وابتعد الى كوة يضيئها البرق. حنا ظلَّ  
حيث هو، يسند خده الى كتفه. مرة أخرى أبعادوا الغطاء عن  
المحموم وانتظروا. قلبوه على جنبه ورفعوا قميصه ومسحوا العرق  
عن ظهره. قبل انطفاء البرق بانث ندبة أخرى، طويلة وتمند  
مستقيمة كأنها رُسمت بمسطرة، من رفش الكتف حتى الخاصرة.

«هذه من جزين.»

أصواتهم بدت غريبة، شبه مطفأة، هامة. سكنوا فجأة  
وغطوا الشيخ من جديد. ما حدث لغيرهم قبل لحظة أصابهم  
الآن. واحداً تلو آخر تحركوا صوب الكوى كي ينظروا الى  
الخارج. حنا نظر الى الوجوه القليلة الباقية في جوار العريض.  
كانوا يمسحون لحاهم ويدعون أدعية خافتة. أحدهم رفع وجهه  
على مهل. حنا حدّق اليه كأنه يريد أن يسأله شيئاً. لم يتكلما لكن  
الوجه ابتسم له.

أبعد الغطاء عن ساقيه وقام واقفاً. ترنح ونقل قدمه وتوازن.  
«على مهلك.»

مشى حافي القدمين حتى بلغ الكوة الأقرب الى فرشته. ظلّ وقتاً طويلاً واقفاً على رؤوس أصابعه ينظر الى الخارج. كأنه نسيهم. حين استدار شاهدوا وجهه صافياً شبه شفاف. «سبحان الخالق!» بدا صوته أتياً من الخارج، من سلسلة التلال المغسولة التي تأملها للتو.

قضوا يوماً بارداً بلا مطر يشقون بالمعاول والفؤوس طريقاً فوق غابة عفص. رأوا عدداً لا يحصى من النسوة والأولاد يتحركون كالنمل في الأسفل ويجمعون البلوط عن الأرض.

«ماذا يفعلون به؟»

«بيعهونه.»

«للاكل؟»

«لدباغة الجلود وصبغ القماش.»

عند الظهيرة رأوا جامعي البلوط يتحلقون في مجموعات متباعدة حول نيران أشعلوها لتدفئة أصابعهم. كانت الأرض رطبة، باردة، مع أن الصقيع لم يحلّ بعد. عند الغروب تبدّل الهواء وبانت الشمس. كانت تخفي لكن شعاعها الأخير بحث دفتاً في أوصالهم. بلغوا الحبس بعد هبوط الليل ووجدوا منظرًا عجبياً بانتظارهم: أمام باب البرج الذي صار بيتهم جلس عامر بيك اليوشاقي على مقعد من الخيزران المجدول يُدخن الغليون التركي الطويل ويتكلم مع رجلين جالسَيْن على مقعدَي قش صغيرين.

مصاييح معلقة أضامت المكان بنور أصفر خيالي. تراصفوا في حراسة البواريد. رأوا الرجلين يأكلان تيناً أخضر وتيناً أحمر كبير الحبة من سلّة قش على الأرض.

«نعمان وحمد!»

لم يفهموا ماذا يحدث. الثلاثة يتكلمون كأنهم أصدقاء التقوا بعد فراق طويل. عامر بيك أوما من غيمة الدخان. سمعوا ضحكة الأعمى. وللمرة الأولى منذ سنوات سمعوا ضحكة نعمان أيضاً. خفقت معدهم وشعروا أنهم على حافة. نهض عامر بيك وسار محفوقاً بحراسه وتجاوزهم. توقف كأنه رآهم بعد مروره والتفت.

«السلام عليكم.»

تراقصت المصاييح حوله وهو يبتعد.

«والله معكم.»

ذهب، وبدأ الاحصاء المعتاد في باحة السجن قبل دخول البرج. مدهوشين أجابوا «حاضر» واحداً بعد آخر بأصوات غريبة لا يدرون من يملكها. نعمان وحمد وقفوا أمام باب البرج، في الخارج، كأنهما ينتزهان. انتهى الاحصاء وتحركوا في طابور صوب الباب.

«ماذا يا شيخ حمد؟»

«انطلق يا شيخ نعمان!»

كان الأول يطرق عصاه على أجنابهم ضاحكاً والآخر يعانق أخاه الكبير محمود ويرتج بالكاء.

«أطلقونا. أطلقنا السلطان!»

البريد. وهكذا اكتشف باريس وفيينا وروما من جديد: وجد مدناً ليلية بهيجة لا تشبه المدن المشمسة التي زارها طفلاً مع أهله في عطل الصيف. حين قرّر جارهم الفيسكونت أنطوان فرعون شراء قصر في نابولي احتلّ نقولا بأبيه الكونت نسبة ده بسترس وجرب أن يقنعه بشراء قصر في فيينا. «عندنا قصر هنا!» لم يفهم يوماً سرّ تعلق أبيه بحبّ السراسقة. كان مكاناً حديثاً نشأ في العقدين الأخيرين فقط على هذه الهضبة شرق سور بيروت العتيق. المسافة التي تفصل الحيّ عن بيوت المدينة القديمة طيّبت هواه. لكنه ساكن، رخامي بارد ممل! جلبوا مصمم حدائق من توسكانة سور القصور بأشجار سرور وصنوبر وشربين وفق تخطيط بارع يمنع عن الشمعدانات والفنسيات والنوافذ نسيم البحر المشبع بالملح المفسد للمعادن من دون أن يحجب منظر السفن والموج والبواخر وغروب الشمس. استتبت التوسكاني زهوراً للزينة لم تُزرع من قبل في هذه البلاد: عجيبة الألوان والشكل والرائحة لكن نقولا بسترس وجدها أدنى قيمة من الورد الجوري الذي طالما زيّن أحواض أمه في بيت العائلة القديم الصيفي في الجبل. «أنت لا تثبت على رأي!» لم يتضابق يوماً من انتقاد الآخرين لأرائه. تلقى ذلك بابتهامة فلسفية جعلته قريباً من القلوب. عمّه ميخائيل اشترى القصر النمساوي المطلّ على نهر الدانوب بأعمدته البديعة والرصيف المخصص للقوارب والغاية الـ 16 فدأناً في الخلف يصيدون فيها الوعل والغزال والطيور المقيمة. في موسم البط يستقلون مركب شركة لويد البخاري إلى بودابست. ميخائيل بسترس اعتاد في نهاية النهار أن يسير وفراعه تلقى كنف ابن أخيه: «ماذا يفعل أخي نسيب الآن يا نقولا؟» الضحكة تزخر الجواب قليلاً بينما المساء يحلّ على

قاومته هيلانة قسطنطين يعقوب سبع سنوات. ساعدها في التهرب تنقله الكثير واقاماته الوجيزة في بيروت. ساعدها أيضاً أنه تأخر كي ينتبه لها. احتشدت قصور حي السراسقة في ذلك الوقت بعاملات فقيرات منكوبات تهجّر مع أولادهن من دمشق ووادي التيم وجبل لبنان. الكنيسة ساعدتهن وديرت لهن مأوى وأعمالاً مؤقتة. نقولا بسترس لم ينتبه أنها بيروتيّة إلا بعد رحيلهن. كنّ كثيرات كفراشات الربيع وعندما بدأ رجوع المسيحيين إلى قراهم افتقدهن. مع أنه في البدء قال لجاراته الست الكونتيّة إميليّا سرسق انهن كسرن سيقان البنفسج في حديقته. كان كثير الثروة طريفاً أنيقاً، خواجة، يعجّ بطاقة لم يركزها يوماً في مسار واحد لأنه وجد العالم واسعاً مملوفاً بالتجارب وشاء التماهي معه بأن يبعض نفسه على أمكنة وبشر وأمزجة. لم يقبل أن يكون الذراع اليمنى لعمّه المقيم ليلاً نهاراً في مكتب معتم فخم كأنه تمثال آخر تحت الخرائط البحرية الجامدة وثعبان الذهب المجدول الذي يوطر براءة ملك فرنسا لويس الثامن عشر يمنع بها شرف لقب فارس من فرسان قبر الخلاص لاليايس بسترس. بدا له عمّه مالك البواخر اسماً في ورقة معلقة على جدار مطبخ بالخشب! لم يستوعب كيف يدوخ عمّه إذا ركب البحر! تقرب أكثر من عمّه الآخر ميخائيل، صرّاف الأسرة الخديوية المصرية وماسك دفاترها. لا حبّاً بالبورصة والحسابات الذهبية لكن رغبة في السفر، السياحة والجنّولان. كلّفه عمه بمهمات أوروبية تتعلق بالبنوك التي تقرض الخزينة المصرية ذهباً. كانت مهمات بسيطة تُجنّب عمّه التعامل مع

جاوزوا المقبرة وأشجار الزلزخت انتهبوا: «لسنا محاييس!» مشوا بعد ذلك في مجموعات صغيرة مبتهجة وخطوتهم خفيفة كأن جاذبية الأرض تعطلت هذا الصباح. أطلّوا من رأس التلّ على البرك الصخرية حيث تتجمع الأمطار. رأوا السوق والميدان والإبل الباركة تشرب. عدد كبير من الأولاد تجمع حيث تُذبح العجول. بخار حار ارتفع من قناة الدم. الخيم المفروية خفت مرسله صوتاً حلواً امتزج بزعمق الأطفال ونداءات النساء. فتيات صغيرات تجمعن في حلقة يلعبن بالخرز ويجمعن الحبات في عقود. ماجت الألوان والأقمشة. لكن العربات التي تجرّها ثيران متسخة بالوحل والمحملة بأثقال الصناديق والسلال والطناجر والقدر والثياب والبطنيات وأدوات الفلاحة والدواجن المربوطة، العربات الخشب التي بدت على وشك التحطم، زرعت كآبة مستترة في المشهد الصباحي الفوّار بالنشاط. كانوا يشهدون الهجرة المعاكسة شرقاً للترك والبلغار والمقدونيين بعد تسليم القلاع العثمانية في بلاد الصرب وتكاثر الفتن على امتداد جبال البلقان. بين المسافرين التقوا عائلات انتقلت أولاً من بلغراد إلى سراييفو ثم حزمت أمرها أخيراً للرجوع إلى الأناضول. كانوا يتكلمون التركية على نحو مكسر غريب حتى أن السامع لا يصدق - لولا السحنة - أنهم أتراك. الدرّوز عرفوا المقدونيات من مناديلهن الباهرة وعيونهن الواسعة. الحرية المفاجئة بعد السجن الطويل رفعت وجوههم: كان العالم موجوداً كي ينظروا إليه. حدقوا مرتبكين إلى جمال النسوة ولو أبصرهم صامويل وكيل نازلي هانم في ذلك النهار لم يعرفهم. تعلموا أن يميّزوا البلغار سريعاً: رجال يتحركون ببلادة، قاماتهم قصيرة، بوجه بيضاوي

صفحة الدانوب. «أبي ينظر إلى البحر ويسبح بحبات المسبحة.» ميخائيل بسترس المقوّس الرقبة يشعر في تلك الساعة أنه لم يحرم نفسه لذات الحياة. «وماذا يفعل أخي الياس الآن يا نقولا؟» الضحكة ذاتها بينما المصاييح تضاه لتلو والبهد الدافئ المشكوك مثل عنقود يهتز ويرتطم بأعصان خفية. «عتي الياس ينظر إلى الخريطة ويقيس بالخيط المسافة من مرفأ بيروت إلى مرفأ الاسكندرية.» بينما يتلقى الرثة على الظهر سمع ضحكات نساء واندفع ذهنه شارداً: رأها هناك، في بيت أبيه في حيّ السراسقة، هيلانة الممتنعة التي مرة تلو أخرى تملصت من شبكته ولم يفتنها فراشه.

## (الخروج من الهرسك - 2)

أعطوهم ثياباً وزنانير وأحذية. وزعوا عليهم قروشاً بصرفون منها إذا احتاجوا شيئاً. أطلقوهم من حبس الهرسك وضمّوهم إلى فرقة الهندسة في الجيش العثماني كي يخدموا - قبل الانصراف إلى بيوتهم - سنة واحدة إلزامية في صيانة الطريق الرومانية المستقيمة التي تربط صوفيا بإسطنبول. هذه الطريق شكّلت طوال قرون الشريان الحيوي للقسّم الأوروبي من الامبراطورية العثمانية، خط الجيوش والقوافل الذي يتشعب بعد صوفيا، باتجاه صربيا حتى بلغراد وبتجاه البوسنة حتى زغرب. غادروا حبس الهرسك متحركين بلا انتباه في طابور. كانوا بلا حراسة والمطلوب منهم الالتحاق بالقافلة الآتية من موستار والمتجهة إلى صوفيا. حين

وأنف مستقيم وفك ثقيل. البلغاريات مشين وراء العربيات يحملن أطفالهن لكن الرجال ركبوا الحمير! في مؤخرة القافلة تجمعت العائلات الألبانية. الأولاد الألبان ضجوا كأنهم أصيبوا بمس. في المقابل استقر البلغار الصغار ساكتين على قيب الأحمال التي تجرّها الثيران. بدوا مختارين. الجنود المولجون حراسة القوافل انقسموا مجموعتين والدروز التحقوا بالمجموعة الأمامية. أثناء الأيام الأولى للرحلة استكشفوا طرقاً أليفة، ومواقع انخسفت وأصلحوها في الشهور الماضية. ففزوا على حواف المحيطان. وتأكدوا من مائة البنيان. الجنود راقبهم مستغربين. ارتاحوا عند سفح جبل تغطيه الغابات. رائحة الرماد فاحت من الوادي. لولا الطريق الفاصلة كانت النار بلغت هذه الغابات أيضاً. احتموا بصخور سقت جانباً من الفسحة. تأملوا أمطار الغروب يطوبها الهواء باتجاه تبن تلتهمه بهائم تنضور جوعاً. شربوا وأكلوا من مطبخ الجيش المتفل. وجدوا الحصة المعينة لهم مشبعة، والطعام شهيماً. أحد الضباط الألبان اقترب وجلس معهم وكلمهم بمزيج تركية وعربية. أخبرهم أنه خدم سنوات في بلاد الشام ويعرفها جيداً وعنده عائلة في حمص وعائلة أخرى في صيدا. كان أزرق العينين مثل نعمان، تلك الزرقة الشديدة التي تترك الناظر أحياناً. ولسبب ما ظلّ يحدق باتجاه الأخوة عز الدين وهو يتكلم. سألهم أين خدموا من قبل؟ انبه الى ترددهم فأطلق ضحكة. «أعرف أنكم خرجتم من الحبس.» التفت الى الأعمى الذي يغمس خبزته في يخبنة الحبوب ويأكل متهللاً وسأله كيف يستطيع أن يصلح الطريق بلا عينيه؟ حمد ردة عليه باللهجة المنهكة ذاتها كأنه يكلم صديقاً عزيزاً: «أنا أوزع الأشغال.» ضحكوا والضباط شرح لهم أن

الطريق من هنا قد تصير خطرة وعليهم ان ينتهبوا بسبب العصاة وقطاع الطرق واللصوص.

«من يقطع الطريق على العسكر؟»

التفت الضابط ومدّ رقبته ورفع حاجبيه.

«بعد تلك البحيرة، هل ترون التلة التي تشبه قرن النيس، هناك حدود جديدة: يغيرون علينا ليلاً من الجبل الأسود ويهربون. يسرقون ويحرقون. وتدفن قتلاتنا وهم ينظرون البنا من بين الشجر. انتبهوا! اذا رأيتم أي حركة غريبة أخبرونا! أنتم عيون القافلة الآن.»

حمد الأعمى ضحك والضابط صار يضحك معه كأنهما اتفقا على الحكى من قبل.

«والطريق الى صوفيا طويلة؟»

«ليست قصيرة. المهم أن نصل قبل الثلوج.»

«الثلج ما زال بعيداً. لم يبرد الطقس كفاية بعد.»

«انتظروا حتى نبغ الجبال.»

«صوفيا في الجبال؟»

«هذه البلاد كلها جبال. لهذا نسميها البلقان: الجبال المغطاة

بالشجر.»

«ومن صوفيا الى أسطنبول الطريق طويلة؟»

ابتسم الضابط وهو يُخرج كيس تبغ الصغير:

«مثل مسافة الطريق من أسطنبول الى جبل لبنان.»



اخذت. لم يروا دخاناً يرتفع من المداعن. نبحت عليهم كلاب ثم فزت خائفة. رياح باردة هبت من الشمال. تسلقوا تلاً، والعربات الثقيلة أحرقتهم. صرّت العجلات كأنها تنكسر. بلغوا خاناً بعد وقت. تجمعوا حيث لا يصل المطر. فكّوا الشيران عن العربات وجزّوا المعالف. بدت الشيران مريضة، غير قادرة على الأكل. الجنود تبعثروا واختفوا داخل الخان. الدروز اختاروا زاوية قريبة من الزرائب وأشعلوا ناراً في موقد حجري. صبي يمزّ راکضاً حاملاً صينية واسعة ثقيلة على رأسه هتف بالتركية ودلّهم الى البئر والى مطبخ الخان. كان البخار يرتفع من الأطباق وحين عبر الصبي مساحة غير مسقوفة اختفى البخار لحظة. لم يزل على الوحل. والصينية ظلّت ثابتة على رأسه. القافلة ملأت الخان بباحته واسطبلاته وأبنيته. استمر سقوط المطر ووصلت قافلة أخرى، صغيرة، والدروز راقبوا الجدد من بعيد. الجنود المكلفون بمطبخ الجيش تراكضوا يحملون بصلاً وطحيناً. لم تُعلق القدور بعد والأكل سيتأخر. أرعدت السماء وهوت الأمطار قريباً. امتلأت الأتنية. بانت جلود الحمير مبقعة. أولاد قفزوا وصاحوا بينما صبية الاسطبل يطرحون شعيراً أمام البهائم. الدروز تخلصوا من مداساتهم ومدّوا أقدامهم صوب اللهب. عيونهم تعلقت بالأحصنة. حيوانات كبيرة الحجم ساخنة يغلفها البخار نابضة العضلات يبرق شعرها. نفضوا ثيابهم المبلولة ودفأوا أيديهم حول الموقد. حنا مال ناعساً تعباً. سمع الضجة وشعر بالنوم يشغل أطرافه. رويداً رويداً ابتعدت الأصوات لكنه ظلّ يسمع فرقة الحطب وأكواز الصنوبر. أسند ظهره الى ظهر قاسم ونام قاعداً. حين أيقظوه رأى جملاً عالياً توشك حديثه أن تعلق في قنطرة الخان. المطر لم

خافوا من غياب الحيطان. من المدى الفسيح ونقاء الهواء. سنوات طويلة من العيش في أقبية موصدة بسلاسل حديد أفضت بهم الى هذه الهاوية الغربية. لم يتخيّلوا ذلك: في الليلة الأولى من حياتهم الجديدة عجزوا عن النوم. استلقوا غير بعيد من الجنود وتأمّلوا الليل والنجوم والأشجار. كان العالم ساكناً والقافلة هاجعة. حتى البوم كفت عن النعيق. لم يبق غير نقيق الضفادع الذي يستمر الى الفجر. على مرتفع مجاور بانت نقط حمراء، توجّ وتتحرك. دورية حراسة ولقافات تبغ مشتعلة. في الأعالي انطلق مدّنب مشع وهوى شرقاً، وراء سلسلة الجبال.

«ماذا تظنّ وضعوا في البرج؟ محاييس غيرنا؟»

«كنت أفكر قبل دقيقة في غرسات التوت التي زرعتها جنب البركة في القلعة البيضاء.»

«ماذا ذكّرك بها؟ يكون الماعز أكلها الآن؟»

«خفت أن أموت في الحبس. أمس أيضاً لم أنم ساعة. خفت أن أموت وأنا نائم.»

«لا أصدق حتى الآن أننا خرجنا. أخشى أن أستيقظ بعد لحظة وأجد نفسي ما زلت في البرج.»



هطل المطر غزيراً مبالغاً بينما يعبرون قرية مقلّة البيوت. من أكوام الحطب الذي لم يُقطع صغيراً ويُرصف مرتباً بعد، تتساقط قطرات ماء. ظهرت عجوز بيضاء الجدائل من باب موارب ثم

ثلاثة أسراب بيضاء كالثلج عبرت السماء الزرقاء: السرب الأخير بدأ الأسرع بينما كأنه يكافح للحاق بالسريرين الآخرين. في ثلاثة أيام قطعوا خمسين ميلاً. حنا تصلّب جسمه من الضرب بالمعول. قبل أن يصلوا الى الهضاب المغطاة على برشيتينا سقطت زخة حبات البرد. تركوا الطريق المكشوفة ودخلوا غابة للاحتباء. خافوا أن تصاب البهائم بالذعر وبهذه الاسهال. من بين الأشجار البعيدة ظهرت أربعة وعول حمراء اللون قصيرة القرون رشيقة الخطوة مدورة العيون. الجنود سددا التنادق اليها. الضابط الألباني الذي يأتي ويتكلم مع الدروز أحياناً نظر من فوق صهوة حصانه. فرقت البواريد. ترد صداها بين الجذوع وطفى على طقطقة البرد. حين تبدّت غيمة البارود شتم الضابط الجنديين الأقرب اليه. الوعول اختفت بلا أثر. الضابط همز حصانه وهو يحني رأسه متجنباً الأغصان. تمايل هادئاً الى أن وصل الى الأخوة الخمسة.

«من الصياد بيتكم؟»

الدروز تجمعوا وراقبوا ما يحدث.

«شيخكم الاعمى يقول ان أحدكم مشهور في جبل لبنان ويصيب المسمار في القاطع المقابل!»

التفتوا الى قاسم. بدأ محاصراً متزعجاً. لم يره حنا هكذا من قبل.

«هذه نسميها وعول كوسوفو، أسرع من الباشق، هنا يتجنبون صيدها لكن في الأقاليم المجاورة طاردوها حتى أبادوها. لا يصيدها أهالي المنطقة لأنهم أصحاب خرافات. في زمن لالا شاهين باشا قائد جيوش السلطان التي فتحت بلاد المجر لم تكن هذه الوعول موجودة هنا. لالا شاهين باشا نقل فقراء الأتراك معه

يسكن لحظة. شرب ماء واقترب أكثر من الموقد. قاسم وقف ينظر الى السماء. الشيخ محمود وقف جنبه. مرة تلو أخرى لمع البرق وتفرغ كأغصان شجرة. فاحت رائحة شواء. أولاد الألبان اقتربوا ونظروا الى الدروز المتجمعين حفاة، يشربون زهوراتهم المغلية الآن ويأكلون خبزاً ولبناً. سألوهم لماذا لا يحملون بواريد مثل بقية الجنود؟ تكلموا بالاشارات ولفظوا الكلمات التركية القليلة التي حفظوها في مواضع غير مناسبة وأضحكوهم. رؤوس الصغار المبلولة ضاعفت الشقاوة في ملامحهم. فركوا شعراً أسود رطباً.. نقلوا أقدامهم على الأرض كأنهم يرقصون. كانوا محتارين لأن الجنود يحملون المعاول أحياناً لإصلاح الطريق لكنهم بعد ذلك يردونها الى العربة ويستعيدون بتادقهم.

«لماذا أتم بلا بواريد؟»

«نحن لسنا جنوداً.»

«لكنكم تأكلون من مطبخ الجنود!»

كسروا خبزاً وغمسوه باللبن وتناولوا الأولاد كي يأكلوا.

### (وعول كوسوفو)

قضوا تلك الليلة في الخان. ناموا نوماً عميقاً. قبيل الفجر قاموا عن الأرض الصلبة كأنهم ولدوا من جديد. خرجوا واغتسلوا. السماء صافية والهواء قارص. أفتطروا على عجل في نور المصابيح. بينما القافلة تخرج الى الطريق بانت أسراب بجع.

## (أصوات الجبل)

بعد عشرين يوماً بلغوا جبلاً مكتظاً بغابات كثيفة. هذا غير ما لوف لأن بلاد البلغار باردة وقطع الأشجار للمحطب لم يترك غابات متكئة هكذا. سمعوا أنه جبل منحوس والماء في الأحاديث المحيطة به فطبع الراتحة. في لغة الأقليم يُسمى جبل الموت. يُقال إن أحداً لم يدخل إليه ويخرج منه. القوافل تتجنبه، تدور حوله، والعجيب إن فيه طريق قدم لم يسدها الشوك ولا الشجرا اشتد البرد حتى صاروا يزلقون على الدرب المتجلدة. لكن الثلوج لم تتساقط. خيموا عند سفوح تلال صخرية فيها كهوف غير عميقة تضيء من ظلمتها عيون صفراء. أشعلوا ناراً فاخفتت العيون. أصوات الجبل منعتهم من النوم. كأن أشجاره تحكي. الهواء ساكن حيث استلقوا والسماء شاهقة مزروعة نجومياً. قبل قدم الغيوم لن تنكسر موجة الجليد. اصطفت أسنانهم وهم يلتمسون النار حطباً. في ضوء النجوم شاهدوا غابات الجبل تميل. كان الرياح تطويها. مع أن الجو جامد وإذا سقطت ورقة من شجرة قرية تهوي في خط عمودي مستقيم وتلتصق بالأرض.

عاتبوا الشيخ حمد لأنه أخير الأرناؤوطي (الألباني) عن قاسم. جاء وحده تقوده عصاه وجلس أمام الأخوة عز الدين. طأطأ رأسه وانتظرهم كي يعاتبوه. استعد للموقف. لكن صوته تهجد وهو يعتذر.

«أطلب سماحك يا شيخ محمود. زلّة لسان لن أغفرها لنفسي. أخذني الحكى ونحن تبادل السوالف في آخر الليل. أتم

من الأناضول وأسكنهم أرض الصرب والمجر كي يحرثوها ويزرعوها حبوباً والآن نحن نرة أحفاد أحفادهم الى الوطن الذي خرجوا منه. جلب أيضاً قبائل مسلحة من حدود الهند وهؤلاء سكنوا هذه البقاع وتزوجوا مع سكان المنطقة. أصابهم طاعون وبعد أن طعموا موتاهم اكتشفوا هذه الوباء. مع أنهم يصلون في الجامع ويصومون رمضان اعتقدوا ان أرواح موتاهم سكنت في هذه الحيوانات. لذلك يطعمونها من أكلمهم. نحن نقتلها ونشويها لأن لحمها أطيب من لحم الغزال. خذ، هذه بارودتي، انكليزية، امسك يا شيخ قاسم!

رفع الشيخ قاسم غفار عز الدين أصعباً وأشار الى عينه اليمنى:

«بصري لم يعد كما كان.»

«لست عجوزاً بعد. امسك! الحيس لا يُعْمى.»

الشيخ محمود غفار عز الدين فتح فمه وتكلم. ظلّ البرد يقطر بينما الجميع يصغي.

«أخي لم يعد يصيد يا سيدي. نذر نذراً للشيء أيوب أنه لا يقوِّص بارودة أو غدارة في حياته.»

«نذر؟»

«هذا عهد تقطعه أمام ربنا ولا تنجد عنه. مثل الحلف.»

«أعرف. لماذا حلف ألا يقوِّص بارودة؟»

«أخونا الأصغر يا سيدي، بهاء الدين الله برحمه، مات نازفاً بين يدي أخي قاسم. أصابوه بالخرق في بطنه ورقبته ووجهه وساقه، لكنه نرف وقتاً طويلاً لأنه لم يكن يريد أن يموت.»

معزتك عندي مثل معزة أبي. لا أتحمّل زعلكم أبداً.

«نسيتا يا شيخ حمد. أنت عزيز ولم نزعّل. لكن استغفربنا.»

«حفكم عليّ. زعلت مني يا شيخ قاسم؟ لماذا لا تقول شيئاً؟  
أسمع أخوتك لكن لا أسمعك.»

«لم أزعّل. أنت أخونا يا حمد.»

حنا يعقوب أوشك أن يبكي وهو يصغي الى الأصوات المحطمة. في هذه الساعة الغربية كان واحداً منهم، كأنه حقاً يُدعى سليمان غفار عز الدين، مع أنه حنا يعقوب، يانع البيض.

«أنا لن أنسى يوماً كرمكم معي وأنتم تعرفون. في هذا العمى لا أجد القوّة الا في أصواتكم. من دونكم لا أقوم وأسير. أسألو نعمان. أنا لا أقدر أن أخبركم لكن هو يقدر.»

«يخبرنا ماذا يا نعمان؟»

كانت النار تشرق وتحتل حنا رأى نعمان يرفع ذراعه الواحدة كأنه يتخيّب خلفها. لعل الدخان من الغصن الأخضر دخل عينيه. سعل الشيخ محمود وهو ينتظر. بشير سدّد عينين متوهجتين الى أخيه الذي لا يفارقه. قاسم لم يرفع وجهه. ظلّ يحدّق الى عيدان تجلّد قلبها حتى صارت تفرقع كالذرة في جوف النار. حنا انتظر محديقاً الى فم نعمان.

«لماذا يا حمد؟ حين كلّمنا عامر بيك اتفقنا على رأي واحد.

واتفقنا ألا نقول. لماذا تفعل هذا الآن؟»

وجه نعمان كلامه الى الأعمى شاعراً بعيون أخوته تحرق خدّه. بشير سبق الأعمى الى الحكى: «معقول؟» كان يرفج غيضاً وبدا على حافة البكاء. حنا لم يفهم ماذا يحدث الا بعد أن نطق الشيخ حمد.

«بلى، معقول يا شيخ بشير. غير المعقول أن تفعل غير ذلك. كيف تريدنا أن نرجع وحدنا من دونكم؟ لا أنا ولا نعمان نقدر أن نترككم ونذهب. عامر بيك البوشناقى لم يصدقنا في البداية. قال أعمى عبيط وأكتع عبيط، أنا أقول لكما اذهبا الى بيتكما وأنتما تردان لا نذهب ونترك الباقيين. قلنا له جئنا معاً ونخدم ستة مثلهم ونرجع معاً. قال لم يمزّ تحت يدي محابيس أغراب مثلكم. قلت له بضوته ذاته: أعمى عبيط وأكتع عبيط. صار يضحك. لم نخبركم أنا ونعمان لأننا عرفنا أنكم لن تقبلوا قرارنا.»

وقفوا بلا اتفاق. كان القعود لم يعد ممكناً. وجوه راجفة في الليل تحت نجوم باردة. كانوا ستة، وخمسة منهم حدسوا أن أحدهم - مع أنه بلا عينين - سوف يسبقهم الى البيت.

### (عراك ودفن)

الشيخان وهبي أبو ضرغم وعارف عبد الباقي تعاركا مع جنود. سحابة غبار طوّقت المتقاتلين. حين انتهوا الى دنو أحصنة تفرقوا بسرعة واختفوا في زحمة الغافلة. الا الشيخ وهبي أبو ضرغم والجندي البوسني الذي كان عالقاً بين ذراعيه. ضابط شركي متجههم الوجه ضخم الأسنان بصق تبغاً ممضوغاً على الاثنتين معاً وأمرهما بالنهوض عن التراب. نساء مقدونيات تجمعن ودافعن عن الدرزي. شتتهن الضابط بنظرة شرسة مفردة. بصق مرة أخرى وأمر بجلد الثغرين عشرين جلدة. كان ثابتاً كجلمود صخر على حصانه الرمادي وعندما بصق للمرة الثالثة امتلأت عينا الشيخ

وهي بالدم . قبل أن يتحرك لطموه وأسقطوه أرضاً . ربطوه مع  
الجندي الرفيع كقصبة وجهاً لوجه الى شجرة صنوبر . اجتاح  
رائحة الصمغ أنفه والتصقت رقبته بلحاء الشجرة . الجندي الرفيع  
لم يبك . لكن وجهه اختلج كأثني . راقبه الشيخ وهي بينما الغضب  
يعمي بصره . سال الدم على ظهره . لم يلتفت مرة واحدة الى  
الحشد لثلاث ثلثي نظراته بأحد أخوانه . شعر بسكوتهم . عرف أن  
السياط تلهب ظهورهم أيضاً وهم ينظرون اليه . كان العار مضاعفاً  
45 مرة ، على عدد المجموعة التي خرجت حية من الهرسك . شعر  
بالعار لأنه لم يعد سجيناً . حين انتهى الجلد رموا على الاثني ماء  
مملحاً ثم فكوا الحبل . لبس قميصه ومشى مقفل الوجه . كانت  
الشمس تغرب . ساعة العشاء جلبوا له طبقاً ساخناً . لم يلمسه .  
ناموا وهم يلتفتون اليه بين حين وآخر . مكث جامداً عابساً يحدق  
الى الطبق البارد حتى أخلدوا الى النوم . في الفجر أيقظهم مؤذن  
القافلة . كان رجلاً لطيفاً من ريف سراييفو أصهب اللحية مثل  
الشيخ بشير عز الدين ويساعد في تقشير البصل في مطبخ العسكر .  
حين وصل الى البقعة حيث ينام الدرود توقف ينظر حزيناً الى  
الرجل الذي جلدوه وقضى الليل ساهراً . في العتمة الخفيفة عرف  
أنه ميت . ظلّ عابس الوجه عاقد الحاجبين حتى بعد أن غسلوه  
وحفروا قبره . كان الميت الدرزي الأول والأخير على الطريق من  
الهرسك الى صوفيا .

•  
«تحمل سنوات الحبس كلها»  
«هذا أصعب»  
«لو عرفنا كنا سهرنا معه»

«الله يرحمك يا شيخ وهي»  
«لو قال قمّ معي كنت ذهبت»  
«ماذا يرفع؟»  
«معك حق . لكن منظره حرق قلبي»  
«ماذا ستقول لأولاده؟»

«في معركة زحلة وقعت عن الفرس وأخرجني من بين  
الحوافر . كلما تذكرت أريد أن . . .»  
«نحن ندفع يا شيخ عثمان . نحن ندفع»

**(شككات صوفيا)**

عدد كبير من عائلات التوماك البلغار الذين يشبهون الترك  
شكلاً ، انفصل عن القافلة قبل بلوغ صوفيا . تساقطت الثلوج على  
عرباتهم المتباعدة في طرقات جبلية متعرجة تتعطف وتختفي وتكمل  
فجأة على ارتفاع مختلف . كانوا ذاهبين الى قرى أسلافهم .  
الطلوع والهبوط أهلكا البهائم . حتى في السهل ارتفع لهاثها .  
تفطعت القافلة . شاهداً صفاً من شجر التنوب تتدلى من أغصانه  
مسلات جليد ومشائق . جثت متجمدة في الهواء النقي ، بأعناق  
ملوية والسنة مخضرة ، تأملت مرورهم البطيء . كانت عمودية  
مستقيمة كأن أطفالاً غير مرئية تتعلق من أقدامها .

«من هؤلاء؟»  
«على رأسي كتيت نسج الثلج قلنسوة بيضاء»  
«عصاة بلغار تكويهم جهنم . نصارى حمقى أغواهم قبصر

روسيا بالفرو والذهب والذخيرة حتى هاجوا في وجه السلطان. «  
الأولاد غامت أبصارهم في البرد. الأمهات سترن عيونهم  
لثلاث تبقى جثث المشنوقين عالققة في رؤوسهم. اختفى اللون  
الخريفي الأصفر وتغطى العالم بالبياض. بانث أكواخ متفحمة  
يتجمع الثلج على بقاياها. عجايز لم يتحملوا مشقة الرحلة لفظوا  
غيمة البخار الأخيرة وسقطوا من العريات. الفرقة الدرزية المولجة  
بالطريق حفرت قبوراً على عجل. تكسّر الوحل تحت أسنان  
المعاول قطعاً زجاجاً. بينما يتحركون من جديد للحاق بالقافلة  
عرجوا على أقدام متورمة. ثقل الرفوش تضاعف. تقرّحت  
راحاتهم. وجدوا البرد البلغاري فظليماً صاعقاً يُجمد النخاع في  
بطن العظم. رغم أنهم أبناء جبل. وقعت حمير مينة. مثقلة وتجرّ  
أثقالاً. جرّوها الى جنب الطريق ودفعوها الى الهوة. تدرجت  
مشيرة غباراً ثلجياً ثم علقت بجذور وصخور. خرجت دوامة سوداء  
خافقة من القعر. طيور زرعت القضاء نعيماً. ارتفع نواح الأطفال.  
شاهدوا ثعابين مغلغة بالجليد لا تتحرك. الصقيع قشّر أنوف  
الأولاد. بدت الرحلة بلا نهاية.

«هل ترون تلك القمم البيضاء؟»  
«صوفيا على رأس الجبل؟»  
«لا، وراء الجبل. صوفيا محاطة بالقمم كأنها في قم بركان.  
السهل حولها بديع في فصل الربيع.»  
لم يتوقفوا للراحة تلك الليلة. «إذا ذابت هذه الثلوج سنغرق  
في بحر وحل.» الأتراك ساطوا الثيران مع أنهم عادة لا يفعلون  
هذا. ساعدهم الطقس لأن الضباب ظلّ قليلاً ولم يحجب الرؤية.  
لم يبصروا قرى جنب الطريق. بين حين وآخر شاهدوا دخاناً بعيداً

ويوناً شبه مخفية عند سفح جبل أو في قعر وادٍ مستحيل الوصول  
اليه.

«يخافون من الطريق. من الجنود.»

«ما هذه الأرض؟»

انتهى الجحيم على أبواب صوفيا. لم تنتج عليهم الكلاب.  
امتدت البيوت عن الجهتين بدخان يرتفع من مداخنها. أخرجتهم  
نوافذ مضادة من الفسوط. تقدموا على درب ميلطة، ساكنة وشبه  
جافة. الهواء البارد مرّ في الأعلى صافراً فوق السقوف. توقفوا  
أمام فرن يفتح ليلاً نهاراً وأكلوا خبزاً ساخناً مع الثوم.  
«هذه بلاد الخبز والثوم. لا يأكل أهلها شيئاً غير هذا.»

تدفأوا واقفين في مدخل الفرن العميق الغائر بين جامع معتم  
وعمارة مضادة بالقناديل عرفوا لاحقاً أنها المستشفى العسكري.  
هنا انفصلوا مع فرقة جنود لاحقاً عنها القافلة. كان الوقت متأخراً.  
الأولاد ينامون على الأحمال. والأطفال يختفون ملفوفين في  
كتنرات أمهاتهم. شيموا العريات التي لم تنته رحلتها بنظرة حزينة.  
بنت دون الخامسة رفعت وجهها محترراً بالصقيع وابتمت لهم. حنا  
يعقوب تابعها ناعساً حتى ابتلعها الظلام. غاص في كومة قش دافئة  
عثر عليها قاسم وأكل خبزه نصف نائم. رقاقت ثلج تهادت معلقة  
أمام عينيه. أصابع قدميه ظلّت تؤلمه بسبب الجليد. نخزته ركبته  
التي عَطِبت قبل سنين. بينما يمضغ الخبز تضائل الألم. بعد فترة  
انفتحت بوابة السكنة من أجلهم ودخلوا. كانوا مدهوشين. «مثل  
قشلاق بيروت!» السراي العثماني نفسه. الشرفة ذاتها والقناطر  
والنوافذ ذاتها وكذلك القرميد والبرج المجاور. حتى الشجرة في  
قلب الساحة! تراصفوا مع الجنود في ضوء المشاعل. ترنحوا

تعباً. أحصوهم وشطبوا اسم وهبي أبو ضرغام لأنه لم يصرخ «حاضر». وشطبوا اسم جندي مقدوني وقع وقضى منبطحاً بين حوافر الثيران قبل ليّتين. وزعوا عليهم أوصافاً وجلوداً. عَيّنوا لهم مكاناً للنوم ودلّوهم إلى بئر الماء وإلى بيت الخلاء. تساقطوا أرضاً. ناموا كالقتلى.

## (ثكنات صوفيا - 2)

أفطروا في الصباح خبزاً وثوماً مع مثني شخص في فرقتهم الجديدة المسؤولة عن صيانة الطريق وحفر الأتية جنبها على امتداد ستين ميلاً ما بين خانين مشهورين شرق صوفيا. لم تذهب الرجفة عن حنا. طوال ذلك اليوم الجليدي عانى إسهالاً فظيماً. كان يترك معوله في بطن القنّاة ويركض إلى وراء صخرة ثم يرجع عرفان الوجه. عند المساء، عائدتين إلى الثكنات، سمعه قاسم يبكي. مشى جنبه وحمل عنه رفته.

«سامحتا يا حنا.»

الأرض والسماء اصطبغتا بالأحمر ذاته، كأن الأفق يشتعل.

•

أقاموا في الثكنات شهراً ثم عَيّنوا لهم سكناً في قرية غير بعيدة من الطريق. الدرّوز انقسموا على أربعة بيوت مهجورة. أصلحوا سقفوها القش بينما يسطر وجوههم. ساعدتهم فلاحون بلغار عبراء في البناء بالطين والقش والخشب. في يوم صافٍ نقلوا من

الثكنات في عربة يجرها ثوران أدوات عملهم وما حصلوا عليه من المستودع - ثياب وطناجر وسكاكين - ومن المطبخ: طحين وثوم وجرة سمن. أمين سرّ المستودع أعلمهم أن عليهم تدبير أمرهم مع الأهالي والا جاوعوا.

«لا تتسولوا ولا تنهبوا. لكن إذا منعوا عنكم البيض والسمك كؤموا الثلج والوحد أمام أبوابهم. ولا ترجعوا إلى هنا. احرقوا وازرعوا. تعرفون كيف تزرعون؟»

«تعرف.»

«عفارم عليكم. اذهبوا إذا!»

«وأين تزرع؟»

رفع أمين السرّ حاجبيه كأنه يتكلم مع مجانيين.

«في أي مكان قريب من بيوتكم. هذه كلّها أرض السلطان.»

«نحن خدمتنا ستة واحدة فقط.»

«اسمعوا من عقلي وازرعوا. ستة العسكر تطول.»

كان حليبي الأصل يعرف العربية والتركية ونتفأ من الأرمنية لأنه عاش زمناً وسط أرمن أسطنبول ولأنه تزوج أرمنية ثم طلقها بسبب لسانها الطويل. صادقه حمد الأعمى كما يصادق الجميع وسمع أخباره وعرف أن زوجاته مبعثرات على طول الدرب من هنا إلى أدنة، وعنده أيضاً عائلة صغيرة في جبال طوروس. «مثل السلاطين. لكنه أمين مخزن في قشلة صوفيا.» الشيخ خطار عبد الملك سأل الشيخ عماد الدين محمود بينما يتساعدان على حمل الطحين لماذا يلهث هكذا، هل رجعت الحمى؟ «كبرنا يا شيخ خطار. لكن إذا حملني ربّنا إلى نهر الباروك الآن أركض مثل ولد

نزلت مرة مع الشوفان المطبوخ: بلعوا ويقهمن ونظروا الى النار في الموقد. حين رأى البلغارى راعية الغنم كان واقفاً في جدول بارد اكتشفه وراء حقل يندق في الجهة الأخرى من التلال. الرمح الذي صنعه لصيد الثرويت بدا لها طريفاً. لم تخف منه ومدت اليه كوزاً مملوفاً بالحليب من دون أن يعلب. شرب الحليب الساخن الخارج من ضرع المعزاة لتتو وحاول أن يتكلم معها. لم تفتح فمها ولم تفهم كلامه. استردت الكوز ومضت مع الكلب الأسود الذي يبرم حول القطيع بلا نباح. في المرة الثانية أفلح في صيد سمكتين قبل ظهورها. سمع الشفاء وانتظر حتى بانث. كانت تلتف بالفروة ذاتها لكنها عقدت متديلاً آخر على شعرها. ابتسمت وهي تحلب المعزاة وتنظر الى السمكتين في يده. لم تأخذهما وظلّت يده ممدودة. حين طفع الكوز وسال الحليب على الوحل نهضت واقتربت منه ورفعت الكوز الى فمه. أوشك أن يقع في الماء. توازن وشرب الحليب واستسلم ليدها. السمكتان خفقتا على الوحل.

### (كعك الفصح)

أبونا بطرس يسمن بمحبة الرعية في عيد الفصح. ملا سلاً بالمعمول والكعك وانتظر صباح الديك ثم خرج وفرغ باب أم بربارة. القادرات يتبارين في تسقية العجين بالسمن. يُقَرَّى وعند قضمه يلذوب في الفم. في كل فصح يتذكر طفولة شبه خيالية بسبب المسافة البعيدة: يتذكر والدته تعد الكعك نهار السبت استعداداً

ولا أنتعب. حمد الأعمى مشى أمامهما وهما يصيحان به «ابعد من الدرب!» وهو يضحك. لكنه استدار فجأة وبدا مشغول الفكر مكتئباً بينما يواجه الشيخ عماد الدين كأنه يراه.

«أخبرني يا شيخ عماد، هل كان الشيخ وهي الله يرحمه معنا عندما رأيتنا في حملك وأنت مريض، هل كان معنا في الجبل؟»

كيس الطحين أخرج غباراً أبيض وهو يستلقي في مطرحة.

«لا أذكر يا شيخ حمد، لكنني كنت أشعر بكم جميعاً معي.»

«وأولادك ذبحوا لنا الغنم؟»

«صحيح. وعشيرة عرفان أبو كروم الله يرحمه جاءت وسألت عه. عزّيناهم. وأكلوا معنا.»

«وأنا كنت؟»

«كنت أشعر بكم جميعاً حولي يا شيخ حمد. وأنت بالذات كنت أسمع صوتك وأنت تحكي مع حسين إيني. كنتما تتكلمان عن موسم القَرّ. سترجع يا حمد. توكل على الله، سترجع.»

### (نعمان والبلغارية)

أخفى عنهم خبرها. أضناهم ذوبان الثلوج والسيول التي انحدرت وسدّت الأقبية بالوحل. عذاب فتح الطريق لا ينتهي. كانوا يخرجون فجراً ولا يرجعون قبل حلول الليل. تولى نعمان مسألة الطعام يعاونه الشيخ حمد المواظب على زيارة قشلة صوفيا. قال ضاحكاً أمام أخوته انه تحوّل امرأة يفقدان يده. كانوا متحلقين ليلاً حول طبخ حضّره في غيابهم. ضحكوا معه. لكن كآبة نبرته



عنها الا بالخير وهذا نادر الحدوث لكنه أحسن أن الفقراء حقاً ملح الأرض. عذبه اللغز وطوال السنوات الماضية لم ينقطع عن السؤال. صلّى أن يعود بانع البيض. لم يصدق شائعة مقتله. لسبب مجهول ظلّ وانثأ أنه حيّ يرزق. في البده انتظر رجوعه في أي ساعة. تعاقبت الفصول وكثت عن الانتظار. لكنه ظلّ يذكره كل فصيح بسبب البيض. الأولاد يكسرون البيض المسلوقة الملون أمامه وهو يصلّي أن يرجع جاره. لاحظ أن صلاته فائرة وقال لنفسه ان أوجاع كتفيه وظهره أفسدت متاجاته الربّ. بات يصلّي لراحة بدنه أكثر مما يصلّي لخلاص أرواح الرعية. كانت الوالدة تمزق قطعة من الطريوش القديم الأحمر وتغلبها في الركوة وحين ترفع البيض يراه مصبوغاً بالأحمر كأنه مغمس في دم سيدنا المسيح. حين أخيره الخواجة نعيم طراد عن ترحيل الدرّوز نقر قلبه. هل أعذوه خطأ من الميناء؟ لعل العسكر أرادوا واحداً يكتس الباخرة ويمسحها! فكر في هذا بعد سنتين أو ثلاث سنوات من اخفائه واقتنع به حتى صار يرى حنا في حلمه ماشياً على ظهر باخرة تبرم البحر حاملاً مكنته في يده. أنت اليه الصورة مثل إلهام ربّاني وهو يسير مع السّت سارة بسترس في جنائن القصر. حانت منه التفاتة ورأى هيلانة داخل النافذة تمشح الدرجات الرخام محنية الظهر. «مسكينة. لا نسمع لها صوتاً.» السّت سارة تكلمت من دون أن تلتفت كأنها تبصر بلا عينيتها. اتحتن ولمست وردة صفراء مخملية البتلات وقالت «هذه يستونها وردة بيزا. مثل المدينة في إيطاليا.» شعر أنه ثقل الجسم أخرق الحركة ضيق الأنفاس كما يحدث له كلّمّا أتى الى حيّ السراسقة. حرّك نسيم الأغصان. شمّ رائحة عطنة تفوح من ثوبه الكهنوتي. ابتعد قليلاً عن السّت بسترس وبينما يستدير كي يسمع

لنهاية الصيام الطويل. مساء الجمعة الحزينة يراها تكيل سكرأ وطحيتاً خائفة ألا يكفيتها الموجود. بينما تحشو الأقراص تمرأ صباح السبت يسمع الجارات عابرات في طريقهن الى فرن الدركاه يحملن الصواني. شرشف أبيض مفروش على الأرض في بيت يجاور بيتهم. يراه من النافذة. وهو يركض في الزقاق يشمّ روائح ماء الزهر والحليب والسكر الناعم المنثور على المعمول بالجوز والمعمول بالفستق. ما تصنعه أمه يتوزع هدايا في أحد الفصح على أقارب وجيران. السلة القصب المخصوصة للخوري بالكعك المغطى بالمسمم في الأسفل وأقراص التمر في طبقة مزدوجة فوق الكعكات المدوّرة كالأساور وفي الأعلى حبّات المعمول البيضاء الرطبة محشوة بالجوز والفستق الحلبى، السلة الثقيلة الهشة المحتويات تغطيها الوالدة بقماشة تفتنا بيضاء وتشر على القماشة رشة ماء ورد وتقول «باسم الصليب»، تلك السلة وضعته على هذه الدرب، وما هو يسكن في الغرفة القديمة. ورث رعية الخوري القديم وسكن مكانه على حائط مار الياس الكاثوليك وبعد سنوات قليلة أو كثيرة ينتقل مرة أخرى ويلحق الخوري العجوز الى قبره. لم يتبه أنه تقدم في العمر الا أثناء السنوات الأخيرة: اختفى جاره حنا يعقوب بانع البيض وأتت زوجته هيلانة قسطنطين تطلب العون. منذ قرعت بابه في ذلك الصباح البعيد لم تعد حياته هي نفسها. أحبّ المرأة واتخذ طفلتها حفيذة. اذا مرّ عليه اليوم من دون أن يرى الصغيرة يشعر بنقصان في جسمه كأنه تناول طبخاً يرغبه لكنه وجده كثير الملح أو متروكاً وقتاً زائداً على النار. رأها تنمو أمام عينيه وحين وقفت وركضت وراء الدجاج للمرة الأولى كان حاضراً. دبّر عملاً لزوجة حنا واعتنى بها مثل إبنه ولم يندم. الناس لم يتكلموا

سؤالها رأى من فوق كتفها هيلانة في الداخل جامدة الى الأبد على الدرج الرخام.

### (بيت في بلغاريا)

أطلت شمس الصيف على أطلال رَمَومها وصارت بيتاً في بلاد البلغار كما فعلوا من قبل مع زرائب بلغراد وبرج الهرسك. بيت الأخوة الخمسة كان الأجمل لأن نعمان كَرَس له الليل والنهار واعتنى بمنظره عناية أم برضيعها. الأربعة عادوا ذات مساء يجزّون المجارف خلفهم مهدودين تعباً. لم يعثروا على بيتهم في مكانه. وجدوا بيتاً آخر شبيهاً بيوت القرية المجاورة تطوقه حديقة مسوّرة بالخشب الأحمر وبشكلات خضراء تشبه نبات العطر الذي ينمو في جبل لبنان. صنع نعمان معجزته في نهارٍ واحد. نشر الأخشاب بلا معونة وحصل على الشتلات من الجارات ونقب الأرض وجلب تراباً خصيباً طوال أهام من دون أن يشعروا. كانوا يعودون بعد حلول الليل ويأكلون اللقمة التي حضّرها ويهجعون بلا صوت في نصف جملة: «صرت ست بيت!» ويعلو شخيرهم. رتب لهم فرشاة قش وطوى عليها أغطية مغسولة. دبّر حليباً وروّب لبناً ثم قطع جيناً. شاهدوا الكيس الكتان يقطر معلقاً من الشجرة وفغروا الأفواه عجباً. بنى بالطين فرناً تنوراً للخبز. نظروا اليه يعجن بيد واحدة كأنه وُلد هكذا! سمعوه يصفر كرعاة الماعز بينما يشعل وقدأ عند الفجر. استغربوا التحسن الذي طرأ على مزاجه وعلّلوا ذلك بقُرب الفرج وأمل السفر الى الجبل قريباً. لكن

هذا التعليل قادهم الى حيرة جديدة: كل يوم يضيف تحسينات على البيت كأنه ينوي البقاء هنا سنوات طويلة! الشيخ محمود أريكه هذا الانشراح ولم يعرف كيف يتعامل معه. لم تثبت لنعمان ذراع مكان المقطوعة لكن حدوث ذلك أقرب الى العقل والمنطق من الضحكة البشوشة التي تستقبلهم كل ليلة! كأنه أصيب بالحمق! كأن عذاب النفي خيل الرجل! ناقشوا المسألة وهم يقدّون الخطى الى ورشة الجسر على نهر إيشكار. حرث قطعة الأرض وراء البيت وحده ويلزها قمحاً وشعيراً. أخبرهم عن شجر ينبت هنا ثمره كالنفاخ لكنه حامض المذاق وأصفر حبة. «لا يتأخر كي ينمو ويُطعم!» شرح لهم خطة لجرّ الماء من ساقية غير بعيدة. أخرجهم الى أمام البيت في الليل ودلّهم الى كواكب تبرق في السماء وقال عندما يغيب ذلك النجم لنذر الشوفان. لم يعرفوا كيف يتكلم مع البلغاريات لأن كلماته التركية قليلة. فاجأهم بسك مشوي ولم يصدقوا كيف قدر أن يصيده وحده. الدرّوز الآخرون أتوا من بيوتهم يتبعون الرائحة. ضحكوا بينما يتفاسمون الوليمة ويمصصون الحسكات ونخاع الرؤوس. «سمكة نعمان مثل سمكة المسيح!» بعد أهام شاهدوه ينظف ثروبتاً من الأحشاء ويملاه ملحاً. كان يقذّه للششاء! بينما يرتاحون على ضفة نهر إيشكار سألوا جندياً حموياً صادقوه في الفترة التي قضوها في قسلة صوفيا، هل يعرف أين يصب هذا النهر؟ «في الدانوب.» تعجّبوا من جوابه وبدا لهم أن جميع أنهار هذا العالم تصبّ في الدانوب بدلاً من البحر. «أنتم تفكرون في بيوتكم!» ابتسم وجلس على التراب جنبهم. كسروا خبزاً وناولوه. بلّوا الخبز بالماء وراقبوه وهو يرسم لهم برأس عنجره طريقاً من حيث يجلسون الى مدينة

دمشق. «ومن هناك فشحة الى جبلكم». الشيخ محمود هز رأسه. بشير كفت عن مضغ اللقمة ناظراً الى الخريطة. حنا يعقوب لم يصدق عينيه ولا أذنيه. لم يعلم قبل هذه الساعة أنهم يخططون للهرب! حدق الى قاسم لكن وجهه بقي موصداً لا يتكلم. رجعوا الى البيت عند المساء ووجدوا وزة بيضاء تنتظرهم في الحديقة. «هذه للبيض». نظروا الى الرجل العجيب المقطوع الذراع. ثم حدقوا الى الورثة تبادلهم النظرة وترعق.

### (في حقل القمح)

شعر في الليل بحركة. خشى أن يهربوا من دونه. فتح عينيه ورأى قاسم غارقاً في النوم. ضوء أبيض غريب تعلق كشرانق الحرير من ثقب السقف. القمر كامل لكن نوره لا يتسرب من التوافد بسبب السقف البلغاري الذي ينحدر ممتداً أبعد من الحيطان كي يحجب ريح الشتاء وشمس الصيف. جلس على الفرشة شاعراً بعضلات جسمه. ميّر الشيخ محمود من شخيره والشيخ بشير من لحيته الحمراء. لم يجد نعمان. القطة الهاجمة في الزاوية أخرجت صوتاً عميقاً ثم سكنت من جديد. الجردان والفرنان شمّت رائحة بيت مسكون وأغارت على كيس شعر قبل أسابيع، ونعمان جلب قطنتين من القرية. قطة شقراء أقامت والأخرى اختفت. وقف حنا وخرج من البيت. سمع بكاء يأتي من حقل القمح. وجد نعمان قاعداً بين السنايل الخضراء. رآه يتلمس سيقانها باحثاً عن الحيات بيد ترتجف. القمر خفّف الأشياء حتى بدا الحقل طافياً

على ماء، يموج كوجه بحيرة في النسيم. لم يتبه نعمان الى وجوده الا بعد وقت. مسح وجهه وقال ماذا أيفظك؟ خرج صوته واهناً كأنه مريض ويخفي مرضه. «لا أعرف. القمر بدر». تحرك نعمان وأفسح له مكاناً جنبه فلا بدوس على السنايل. فاحت رائحة القمح الأخضر. سمعا اللقائى في أعشاشها: أحياناً يوقظها القمر. أخيره حنا أنهم أسقطوا عش لقالق بينما يقطعون شجراً في جبل فيتوش قبل أيام. «كبير مثل طبق الفش». وفيه ريش طويل وقشور بيوض قديمة. «نعمان أشار الى جبل أبعد من سلسلة التلال وأخبره أن اللقائى تتكاثر في أديرة مهجورة هناك ووراء الجبل دبر مشهور قبالة منحدرات مخيفة تجري فيها السواقي الشتوية مثل الشلالات حتى منتصف الصيف ومرات الى نهايته. «والرهبان عندهم بقر وأرانب ودواجن. ويربون الخنازير أيضاً».

«ويسمحون لهم؟»

«يربون الخنازير حيث لا يرى الجنود.»

«ذهبت الى هناك؟»

قال نعمان انه يتجول أثناء النهار حين ينتهي من شغل البيت.

«الصيف هنا يشبه بلدنا.»

«اشتقت الى بيتك يا حنا؟»

«وأنت؟»

«أكثر مما أقدر. في الليل اذا رأيت بنتاي في المنام أبكي ولا

أعرف حتى يسيل أنفي وأقوم. لا تنقل لأخوتي انني قلت لك.

بالهم مشغول عليّ، أعرف. وأنت أيضاً. أخاف أن ترجع ويحدث

ما أراه.»

«ما تراه؟»

من التلال. صباح الجمعة ذهبوا الى قسلة صوفيا من أجل الاحصاء  
الأسبوعي. نادى الضابط اسم حمد السعدي ولم يرّه أحد.

«حمد السعدي؟»

انتظروا صرخة «حاضر» اعتادوا نيرتها شبه الساخرة، كأنه  
يقول أنا هنا لكنني أعشى ولست هنا تماماً أيضاً.

«حمد السعدي؟»

عرفوا عندئذ أنه ذهب.



اشترى سكرًا من الدكان تحت الجامع. وقفوا أمام الفرن  
حتى داخوا من رائحة الخبز. نظروا الى نسوة صوفيا في الطريق  
ونظروا الى نوافذ السراي. «مثل قشلاق بيروت!» ثلاثة غزلان  
حمراء مربوطة بحبل واحد كما يُربط المحابيس مرّت أمامهم.

مشوا الى سبيل الماء وانتظروا دورهم واقفين بين الجرار وشربوا.  
كان الماء بارداً طيباً. دمعت عيونهم وهم يسيرون على مهل،  
متنقلين في الطرقات المزانة بالحدائق، بين بيوت بقرميد وأخرى  
خشبية السقوف. سمعوا هديرًا بعيداً لم يعرفوا سرّه. لم يهتموا.

كانوا سعداء بهذا السير البطيء بلا هدف، في هذا اليوم المغمم  
برائحة الحقول. على القمم البعيدة التي تُرى من أي شارع لم تسدّه  
العمارات شاهدوا بياض الثلج، ثابتاً مثل صخور الملح، يرسل في  
النفس شعوراً حلواً. جلسوا على قارعة الطريق وعندما اقترب  
البائع الجوّال يطفق بفناجينه التركية اشترى منه قهوة وشربوا.  
داعبت الشمس إبريقه النحاس. تفرجوا على زحمة السوق  
تنضاعف بانتهاء خطبة الجمعة وخروج المصلين جماعات جماعات  
من الجامع. من شرفة حجرية أطلّت امرأة مكشوفة الوجه في ثوب

«بناتي لا يتكلمن معي حين نصل. أنا أقف جنب أخي بشير  
وهم حوله ويتعرفون اليه لكن أنا لا. بسبب يدي المقطوعة.  
وأستاني المكسورة.»

«وزوجتك تعرفك؟»

«لم تكن في البيت.»

«أنا أرى ابنتي، بريارة. دائماً تكون طفلة كما أحفظ شكلها.»

«كم عمرها الآن؟»

«سبع سنوات.»

«وزوجتك؟»

«أراها أيضاً. وتعرفني. لكنها تبدو مريضة. ونظرتها غريبة،  
كأنها لا تريد رؤيتي.»

«وتحككي معها؟»

«لا. أحاول أن أحكي. لكن أستيقظ قبل ذلك.»

«أنا مرات أسمعتك تكفي وأنت نائم.»

«لماذا فعلوا هذا يا شيخ نعمان؟ ماذا فعلت أنا كي يضربوني  
ويجرّوني الى حبس بلغراد؟»

### (الهواء الأصفر)

قلّت القوافل على الطريق. سمعوا ان الهواء الأصفر انتشر في  
أسطنبول وأدرنة. حين ظهرت حالات حمى في القرية المجاورة  
كفّت نعمان عن جلب البيض من هناك. كان يبادلّه بقطر برّي يجمعه

الى جنب الحقول المحروثة والبساتين العارمة الخضرة. تعجبوا لأن الماعز لا يتعدى على الشجر والقمح. كان هذا سابع المستحيلات بالنسبة اليهم وشرحو إِيحُنَا أن ماعز الجبل طالما أهرق دماً وتسبب بمعارك. قافلة آتية من الشرق نقلت اليهم خبر تراجع الهواء الأصفر الذي يستونه هنا كوليرا. استبشرو خيراً وقالوا من الآن الى الشتاء يكون الوباء تبّذ.

«وفي الشتاء نرجع الى البيت.»

تكلّموا مع أهل القافلة في يوم أحد. تذكروا اليوم بسبب قرع الأجراس في بلوفند. قبل أن يدور الأسبوع عليهم قضى منهم تسعة كأنهم أعدموا بلا إنذار. القرية أيضاً خرجت منها مواكب دفن. الحمى والاسهال والغثيان الذي يُخرج الأحشاء مزقاً من الفم، مخلّب الهواء الأصفر أشدّ بطشاً من الرصاص. سحقتهم الضربة. في الأسبوع الثاني قضى خمسة. القرية دفنت ثلاثين ميتاً في عشرين يوماً. ضُرب الحجر الصحي على صوفيا لكن الهواء الأصفر تسلل مع الخضفر والفواكه والحلويات المخبوزة في الريف. لم يُعرف لماذا تراجع الكوليرا بسرعة كما أنت لكن في هذه الأثناء لمس الموت النفوس برأس أصبعه وغثيها. الدروز دفنوا في مساحة من المقبرة تُحصصت لهم 16 رجلاً. الشيخ عماد الدين محمود أو شك أن يكون السابع عشر لكن الرجفة عبرت وجسمه استرد حرارته الطبيعية. مرض مع صاحبه الشيخ خطار عبد الملك في النهار ذاته وواحد فقط منهما لم يُطمر في المقبرة البلغارية. الميت الأخير في نهاية الاسبوع الثالث دفنوه على عجل وهم يلقون وجوههم بالقماش. لم يتبادلوا التعازي ولا الشّد على الأيدي ولا حتى النظرات. طمروا الشيخ عثمان أبو غنّام وتبعثروا

أخضر كثير الكشاكش. كانت تحمل مروحة صينية وتحرك معصمها متمهلة وهي تميل على الدرايزين وتنظر الى تحت. امرأتان غيرها ظهورتا بعدها في ثوبين مشابهيين. ثم خرج رجل في بذلة فرنجية زرقاء معتماً قبعة فرنجية. كان يدخن غليوناً ويضحك وهو يصغي الى النساء وينظر الى أشياء تشير اليها الأجلل بينهن بمروحتها المطوية. ظهر بعده رجل آخر، أكبر سنّاً، وحين نزع قبعته ونظر اليهم شعروا برهبة مباغتة. «كأنه جودت باشا!» ضحكوا والرجل على الشرفة ضحك أيضاً.

«نحن نضحك لأنه يشبه باشا ميتاً لكن هو ماذا يضحك؟»

مشوا بين البضائع وقطعوا السوق القديم الى السوق الجديد ونظروا الى متاجر بواجهات زجاج وأبواب لا تتراصف الأكياس في مدخلها. وجدوا الشمس قاسية هنا ورجعوا الى السوق المسقوف واشتروا كعكاً وأكلوا. لم تنهكهم دوامة الألوان والأصوات والعطور. بائع الجلاب ملأ أفداحهم بالسائل اللاني الذي أذاب فيه ثلجاً يُخزّن في مغاور الجبال. رفعوا الأقداح وشربوا وهم يرون الشيخ حمد السعدي ماشياً مع عصاه عبر هضبة الأناضول الى أبيه الذي ينتظره في الجبل.

## (الهواء الأصفر - 2)

عمّقوا أفتية التصريف خارج مدينة بلوفند وقضوا ثلاثة أيام بين فلاحين كرماء جلبوا لهم فاكهة صيفية ضياقة ولم يقبلوا قرشاً في المقابل. شاهدوا مراعي الماشية تتراعى بلا حدود فاصلة جنباً

«لا أكرهك يا حنا. أنت مثل أخي الآن. لكنني ألعن الساعة التي رأينا فيها وجهك. انظر ماذا أصابنا. واللبلة خرج محمود أربع مرات من باب البيت. معه إسهال. وإذا مات ماذا نفعل؟»

### (الهواء الأصفر - 3)

لم تدخل الكوليرا بيتهم. سقاوا الشيخ محمود زهورات مغلقة. أكل خبزاً ولبناً وشُفي من الإسهال.

كلما سمعوا نعيماً خرجوا وحفروا ودفنوا. في اليوم الرابع عشر من النكبة خرج حنا معهم. أراد أن يلقي نظرة أخيرة على الشيخ عارف عبد الباقي. حفظ له الودة لأنه طالما بادره إلى اللقاء التحية. مع أن الشيخ عبد الباقي كان ميّالاً إلى التجهم، قليل الضحك. دفنوا مع الشيخ مطرقة التي لم تكن تفارق جنبه. صلّوا عليه بسرعة وانكفأوا حزاني من حيث أنوا. حين رُفعت الكرتينا عن صوفيا اصطفوا في القشلة وأحصوهم. اكتشفوا ان الهواء الأصفر عصف بالعسكر أيضاً. طالبت فترات الصمت بعد عدّ الأسماء التي لم يحضر أصحابها. خرجوا من الشكنات يتصبّبون عرقاً تحت سماء غائمة. كان العالم ساكناً كأنه في حداد. لم يبقَ منهم الا 26 ومع حنا يعقوب الذي يُسمّونه سليمان عز الدين يكون العدد 27. ركضت أحصنة على الدرب. ابتعدوا لثلاث تدوسهم الحوافر. غظاهم غبار. عبر السماء سرب لقالق. ماجت الحقول ذهبية مثقلة السنابل.

خائفين من حشرات سابحة في الهواء. كان عزيزاً عليهم لكنها الكوليرا. في نفوسهم ترحموا عليه طويلاً وتذكروا قريبه إين عائلته الشيخ غانم أبو غنّام ميتهم الأول الذي كسر رأسه على حائط في قلعة بلغراد.

الشيخ بشير غفار عز الدين رجع بلا أخوته من دفن القتييل الدرزي السادس الشيخ يوسف حلاوي. وجد حنا قاعداً على الأرض يقشر ثوماً. كانت النار مشتعلة والمكان يخنتق بالدخان.

«ربّك يحميك يا حنا. لا تحرق البيت على رؤوسنا.»

«أين قاسم؟»

«مع محمود ونعمان. في الدفن.»

«لماذا تذهبون؟»

«من يدفنتهم إذا بقينا هنا نقشر ثوماً؟»

«زوجتي مات أهلها بالهواء الأصفر. وكان عندها أخوة وماتوا أيضاً.»

«ونحن يا حنا سوف نموت هنا. ألم يخبرك أحد؟ لكن حمد نجا بجلده. المبصر الوحيد بيتنا.»

«في الليل كانوا سيكون في القرية.»

أخذ الشيخ بشير كسرة خبز وأكلها. كشح الدخان وخرج. التفت وقال لحنّا انه سيرجع قبل الليل.

بدا متردداً لحظة ثم سأله لماذا لا يترك الثوم ويأتي ويمشي معه في البرية، هناك الهواء أحسن.

«أم أنك تخاف مني يا حنا؟»

«لماذا أخاف منك؟ هل أنت تكترهني؟»

حصدوا القمح الذي زرعه نعمان وقلبوا التراب وزرعوا ملفوفاً وقرنبيطاً. القرويون البلغار تقربوا منهم بعد الكوليرا. دفنوا موتاهم في مقبرة واحدة. أثناء الوباء ساعدوهم على حفر القبور كما ساعدوهم وقت الشتاء وجرفوا ثلجاً من أمام أبوابهم. لم يأخذوا من الأخوة عز الدين شيئاً في مقابل الشتلات الصغيرة. الشيخ محمود علم حنا كيف يحملها برقّة بين أصابعه، وكيف يُوسع لها حفرة ويزرعها ثم يرّد التراب ويسقيها، وكيف يُميز الملفوف من القرنبيط وهو ما زال جذراً وورقة. طاحتوا القمح وخبزوا منه. قسموا الرغيف الأول خمس قطع وأكلوا.

«إن شاء الله نحصد ونخبز في الجبل في الصيف الآتي.»

«وتأتي الى بيتنا يا حنا وتأكل معنا.»

اشتدّ الحرّ يومين. تكاثرت البعوض والذبان. تشققت أرض البيت. رشوا ماء ورشوا الطين. «بيتي في بيروت أرضه هكذا، كل صيف أمرحها وأرضها بالحجر أو يخرج النمل.» أنت بلغارية وشريت عندهم زهورات وعزّتهم بالدروز الموتى. جلسوا معها خارج الباب، في ظلّ السقف، وتأمّلوا الحرارة تنسج غلالة فوق الحقل. أخرجت من ثوبها صرّة مملوءة بحيّات الفاصوليا وقالت هذه لكم. كلّمتهم بالاشارات وحين رسمت علامة الصليب انفتحا صوب حنا كأن الاشارة الأخيرة تكفي كي يفهم أقوالها ويشرح لهم. كان وجهها مشوهاً بتجاعيد الشمس وعظمها ملوياً. مثل جميع الفلاحات البلغاريات في هذه الأرض القاسية بدت عجوزاً مع أنها لم تتجاوز الخامسة والعشرين. جاءت القطة الشفراء وتمسحت بقدميها. نعمان أخبرهم لاحقاً أن زوجها قتلوه خطأ بينما يطاردون لصوص خيول.

«من قتله؟»

«لا أعرف. الجنود. لا؟»

صاروا يخرجون الى الطريق وقتاً أقل. سقوا الخضرا المتأخرة وعثروا وراء ثلم الملفوف على جلد ثعبان كامل كأنه طُرح هنا أثناء الليل. «طوال الصيف كان جارنا ولم تنتبه.» قاسوا طولهُ وعلقوه زينة داخل البيت. أصابت حنا الحمى بعد يوم طويل في نقر الأفتية: اعتنى به قاسم ليلاً ونعمان أثناء النهار. تحسن سريعاً لكن الحرارة انتقلت الى قاسم حتى عجز عن القيام. منذ نزوله في بشر الهرسك صار عرضة للمرض. خرج نعمان الى البريّة. اختفى نهاراً. غربت الشمس ولم يرجع. بشير نظر الى التلال وقال «تأخر كثيراً.» الشيخ محمود رفع عينيه عن الفأس التي يُصلح قبضتها. «لا تخف يا بشير، أخوك ليس الشيخ حمد، لن يذهب وحده.»

«أخاف؟ أنا أصلي كي يذهب. ماذا يفعل هنا؟»

رجع مع ظلّه الطويل يحمل جذوراً متربة. نفعها في الجرن وغسلها ثم قطعها وغلاها في قدر حتى صارت المياه بلون العدس المطبوخ. شربها قاسم وقام معافي في الصباح: «نفع يا نعمان.»

### (النهر)

قضوا أياماً وراء قشلة صوفيا. لبسوا البزات النظامية وبنوا الحيطان لحدائق الباشا الجديدة. الهواء قرص وجوههم الحليقة. تبلّلت طاقبات القطن على رؤوسهم. الباشا نظر اليهم من شرفته. كان يأكل فستقاً ويلقي القشور في طبق فضة. لم يميزوا وجهه

العبيد. نقلوا تراباً الى البساتين من غابة مجاورة. وجدوا حفرة عميقة تتسع لبيتين يجرّ اليها حطّابون أشجاراً مقطوعة. «يشعلونها ويظفرونها بالتراب ويتركون منافذ خيطة للهواء كي تنفخ». حنا يعقوب حاول أن يتذكر أين ومتى سمع من قبل كيف يُصنع الفحم النباتي لكنه لم يقدر. لم يعد حنا القديم واذا حملة ربنا في هذه الساعة الى بيته في بيروت وأوقفه أمام زوجته هل تعرفه هيلانة؟ تلكاً وسألها قاسم لماذا وجهه أصفر؟ انتبه أنه مغشّس بالعرق وشعر بالحاجة الشديدة الى النوم مع أن النهار لم ينتصف بعد. قطف نعمان القرنيطة الأولى وأكلوها. أرسلوهم لبناء جسر عند سفوح جبال رودوب.

أعطاهم نعمان «مونة» للطريق وصلى أن تكون هذه المهمة الأخيرة قبل السفر الى البيت. أمطار الخريف وقعت عليهم بينما يتمددون في عربات تجرّها ثيران. بلغوا نهراً أصفر المياه بعد ليلة أضاءتها البروق من دون أن يسقط مطر. «في الهرسك كنت مرات أسمع الرعد.» نظر حنا الى وجه قاسم ورأى تجاعيد عند عينيه، غائرة وحزينة. نزلوا عند جسر خشبي محروق. قسموهم الى مجموعتين. حنا ذهب للحفر ونقل الرمل. قاسم ومحمود وبشير ومعظم الدروز التفتلوا الحبال وذهبوا لرفع الحجارة. شغيلة أجراء وسخرة سبقوهم الى المقلع ونقلوا تلاً من الحجارة الضخمة. قبل حلول الظهيرة دبّ فيهم الانهاك. الضفة عريضة رملية، والأقدام تغوص. وأهم حنا وهو يطلّ من الحفرة ويرمي رفش رمل: بدوا مثل صف قناقل بلدي بينما الحجارة المحمولة على الظهور تطويهم صوب الأرض. في اليوم الأول كوّموا صخوراً عند الضفة. في اليوم الثاني أزالوا من النهر الأعمدة المتضخمة وجلبوا مزيداً من

الحجارة. في اليوم الثالث نشروا خشباً للسقالة. امتلأت الضفة بالحفر العميقة. صادق الشيخ عماد الدين محمود بلغاريّاً من التوماك. جاء البلغاري وأكل معهم لقمة. حنا أخرج رملّاً من المداس وأصغى الى حديث البلغاري. الجنود تبعثروا في صفوف غير مستقيمة ينظرون صوب الغابات كما فعلوا طوال الأيام الماضية. كانت أصابعهم تتعرق على البواريد. «لا يظهرهم في النهار.» في اليوم الرابع بنوا السقالة وجلبوا مزيداً من الحجارة. ظلّ حنا يسمع وهو في قعر الحفرة الطفرقات على الأزاميل وهتافات الرجال وهم يرفعون الصخور مربوطة بالحبال على الظهور. في اليوم الخامس، عند الغروب، بينما مطر خفيف يتساقط والدفعة الأخيرة من الحجارة تُنقل الى الضفة، باغتهم الرصاص الغزير من بين الأشجار. حنا رفع رأسه كالخلد ورأى الرجال جامدين ومتقلين بالحجارة يبحثون عن ملجأ. أحدهم أبصره واندفع صوب حفرة. بدا يطيه الحركة لا بسبب الحجر المربوط الى ظهره بل لعلّه قديمة فيه. تعثر ونزل على ركة واحدة على مسافة أمتار من رأس حنا. كان هذا الشيخ نجيب عبد الصمد. الرصاص ملا الرمل بالقبوب. سمع حنا صراخاً يصمّ الأذنين والتفت ورأى الشيخ بشير غاضباً مكشراً عن أسنانه يحاول فكّ الحبل والتخلص من صخرته. المقعدة عند الكتف، فوق القلب، لم تفكّ. بينما يعالجها بأستانه نقر الدم من رقبتة. ذبحت الرصاصة شريانه كأنها سكين. حنا أراد الخروج. جسده لم يقبل. تجمّد بالرعب كما حدث له حين أبصرهم للمرة الأولى راكعين مربوطين في ساحة التحميل في ميناء بيروت. سقط الشيخ بشير وارتطمت ذقنه بالأرض. لم يغمض عينيه. ظلّ يحقّق أهدياً الى



حنا يعقوب. في الغروب الماطر تراكضت الأشباح مترنحة. الجنود انبطحوا وقوّصوا على الأشجار التي تقوّص. رأى حنا جندياً راكعاً على ركبة واحدة يسدّد عابس الوجه. أصابه رصاص في بطنه وألقى الباردة وهو يميل ثم أمسك بها من جديد وكفّ عن الحركة. الزعيق أتى من أعلى كأن الرجال يرتفعون الى فوق وهم يقعون قتلى على الرمل من حوله. رأى البنادق تشرقظ بين الأشجار. صرخة أخرى جعلته يلتفت. وجد من يبخت عنه. يده ارتفعت. كانوا كتلة من الرجال الذين انصبوا يتلقون الرصاص في صدورهم كأنهم تعبوا من الفرار الى هنا ثم الى هناك بحثاً عن صخرة تبعد وحدها بينما الصخرة على الظهر جامدة ثقيلة غير قابلة للحركة. الشيخ محمود عز الدين سقط على ركبته. قميصه تشبّع دماً. الألم يبدّل قسماته. تجمد هكذا وقتاً يتلفت بعنقه باحثاً عن أخوته، وجدعه ثابت بسبب الصخرة، ثم هوى مصدوماً بالموت كأنه تلقى ضربة من الوراء. قصفهم الرصاص مثل منجل القمح. قاسم دار دورة واحدة ينشم ميلول الوجه ابتسامة صبي نال حلوى يهواها، كأنه الآن يخرج من «البئر» المحشوة ظلاماً ودماً بقع درج قلعة حاصيبا. أفلت جسمه من الصخرة لأن الرصاص قطع الحبل كي يقطع لحمه. نفر الدم قوساً من عنقه. خطا خطوتين متخففتين من الثقل ثم اندفع بذراعيه ممدودتين الى الأمام كأنه يغطس في البحر. انفجر الدم من رأسه. الحرارة لظمت حنا في عينيه. رأى اليد الممدودة تنتفض كسمكة حمراء على الرمل. دام ذلك رمشة عين أطول من الأبدية. لم يبق من وجه قاسم أثر؛ نفره الرصاص ومزّقه وعقره بالرمل. صار كتلة لحم نازقة. انفض جسمه مرتين مثل ثور ذبحه جزار بارع، ثم همد. غرق في بركة سوداء اتسعت

بوقوع المطر. حنا ظلّ يصرخ حتى فقد صوته. اهتزّت حفرة وارتنطم به ثقل من الخلف. شعر بسلسلة ظهره تنكسر. لم تخرج الصرخة الأخيرة من فمه. غاص في الرمل الرطب بينما المساء يغطي ساحة المذبحة.

## (النهر - 2)

وقع الوحل على جسمه ثقيلاً زنج الرائحة مثل بيض فاسد قديم. لم يتحرك. «أنا ميت. قتلوني.» ظلّ يرى الأضواء المتقلقة، مصابيح أو برق نجوم أو لفافات تبغ مشتعلة. حتى أنه شمّ رائحة التبغ وهو يحترق. لم يميّز الأصوات بسبب الدم الذي ملأ أذنه. نزف في حفرة بينما الثيران تشخر نصف نائمة وهي تجرّ عربات محملة بالجشت. «أريد أن أذهب الى البيت.» رفع جسمه لكنه سقط مرة أخرى. الصداق عصر صدغه. كأن جمجمته تشقق. تكاثف الظلام. «أنا قاسم، إذا احتجت شيئاً أندة لي!» فتح فمه وأخرج الرمل من بين أسنانه. شعر بالسائل يقطر في الحفرة. «دم؟» انطفأ العالم زماً. «البحر؟ الباخرة؟ عكا؟» المطر غسل كتفه. استيقظ راجعاً يتجمد بالبرد في الظلام. كان الجوع يهده. «هيلانة طيخت لي. بريارة تنتظري. سأذهب الى البيت.» مدّ يده ويبحث عن نقطة جامدة يستند إليها كي يتحرك. جدران الحفرة وقعت عليه، كأنها تريد دفنه. ملأ الوحل ثقباً في رقبته. لمس الرقبة كي يرى أين جرحوه. رؤوس أصابعه أوجعته. جاهد حتى أخرج جسمه من القبر العمودي. لهث كأنه حفر للثو نفاقاً من

ضجّت حول السقالة المشروكة. هبّ الهواء وصفر بين الحجارة. كان الرمل منبسّطاً الآن خالياً من التجاعيد، تتباعد فيه ثقوب سرطان عملاقة. استمر سقوط المطر طوال الليل. تحرك متمهلاً أولاً ثم تسارعت خطواته قليلاً حين اعتاد السير في الظلام. ارتطم بالجدوع وبعد كل خبطة شعر بجسمه يتورم ويتفكك عنه. لم يكن متأكداً أين يمضي لكنه ظنّ أنه يمضي صوب البيت. «المهم أن أظنّ أمشي.» قبيل الفجر توغل هاذياً محموراً بين الأشجار، يبحث عن الطريق الرومانية المستقيمة كي يستدل بها. «وبعد ذلك أتبعها من بعيد. وأظنّ أمشي.» وجد فطراً يؤكل. التهمه وهو يتضور. انقبضت معدته الى نقطة مشتعلة وأحرقه الألم على طول زلوعه بينما الكتلة السوداء السائلة تدفق من فمه. تلوى جسمه كالودودة. ابتلّت عيناه بالعرق. غاب عن الوعي ساعتين في كومة أوراق يابسة. أبقظته السناجب والطيور. صحت السماء وهو نائم وأضاءت الشمس أرض الغابة. دبّ على أربع في ثيابه المبلولة. اصطلكت أسنانه. بكى وهو يتكوم في بقعة الشمس. وظلّ أياماً يكي كلّما استيقظ من النوم.

### (خير الدين قيس)

واحد من القلة الناجية. شهد مصرع الأخوة عز الدين. لم يكن أول شخص ينقل خبرهم الى الشيخ نعمان. الجنود حملوا خير الدين قيس مع القتلى في عربة الجثث. كان مصاباً بنزف لكنه حضر دفنهم بلا أكفان في مقبرة تكنته تبعد ساعتين عن موقع

بلغراد الى هذا النهر. كانت الجبال نائمة، مفسولة بالمطر، تميل غايباتها ميلاً خفيفاً بلا صوت. عند النظرة الأولى لم يجد أثراً لما جرى. ثم رأى الحجارة. كانت متباعدة بلا نظام حيث سقطوا. مبقّعة بالأسود. وأبعد منها رأى كومة. «جمعوا الجثث وتركوها؟» تحرك مرتعش الكتفين في ضباب داكن وحين اقترب مسافة كافية اكتشف أنها حجارة مقضية معدّة لبناء القنطرة التي لن يراها. سمع أنيناً يخرج من الأرض. «هذا أنا؟» أصغى لكن الأنين اختفى. تمسّكت الرجفة بجسمه كأنه شاخ في ليلة. رقع على حافة الماء وشرب كأنه لم يشرب منذ سنوات. غسل أذنه ورقبته ووجهه. صعقته برودة النهر. كان الدم متخثراً ومتجمداً على رقبة وفي شعر رأسه الذي تبت من جديد. بينما يفرك صدغه بالماء مغمض العينين رأى وجه قاسم قبل أن يتمزق. التفت وحنق في الظلام ولم يَرَ غير الرمل الأسود. رفع وجهه ووجد السماء غائمة بلا نجوم. كانت مرئية مع ذلك ورغم أن الرذاذ لم يتوقف عن الهطول. رجع الأنين. بحث عن مصدره واكتشف رجلاً يحتضر في حفرة بعيدة. كان تركيا أو البانياً أو مقدونيا، لم يتأكد. حاول سحبه من قبره المكشوف لكنه وجده أثقل من كومة الصخور كلّها. انزلقت أصابعه المبلولة على لحم مبلول. كان دافئاً، يتنفس، لكن أنينه يخفت مع مرور الوقت. تركه وذهب غائم العينين الى حيث اعتادوا الجلوس وقت الراحة. بحث عن شيء يأكله. بين حجرين وجد صرّة مخبأة. أخرجها وفتحها وأكل الخبزة اليابسة ومضغ حصّ الثوم. بحث عن المزيد ولم يجد. سكت الأنين تماماً. شمّ الرائحة الفظيعة تتبخر من الرمل. مصرائه التفت في بطنه كأنه يتقلب. خرج ما أكله من فمه منجراً في كتلة خضراء. مياه النهر

المذبحة. رأى صديقه الأعرز الشيخ رؤوف أبو علي يقضي مفتوح البطن راکعاً ومطوياً الى خلف على صخرته في ذلك الغروب الدموي. كان يحاول أن يرد أحشائه الى بطنه المبقورة. خير الدين قيس جرب أن يزحف صوبه لكن صخرته جسدته في الرمل الرطب. استعان بها متراساً حين عجز عن فك الحبال واحتس من الرصاص جامعاً جسمه كالثقل. صاح ونادى صاحبه وتكلم معه. بعد أيام أنزلته عربة يجزها حصانان أمام بيت الأخوة عز الدين. كان ثالث العائدين الى بيوت الدروز على حافة القرية البلغارية. قطع الخطوات الى باب نعمان حاملاً جزمته. اتسخت ضمادات قدمه كأنه أتى يمرج ماشياً من الهوسك. قطعوا ثلاثة من أصابعه لئلا تغتله الغرغرينا. أراد أن يعزي نعمان بأخوته قبل أن يدخل الى البيت. نعمان أصغى اليه أزرق الوجه، شاحباً. منذ أيام، منذ أخبروه، يجد صعوبة في تحريك جسمه. انطوت سلسلة ظهره. صار أقصر. برزت عظام وجنتيه، عاجية رقيقة. أخرج خير الدين حرزاً من جيبه: «هذا كان في رقية أخيك الشيخ محمود الله يرحمه». تناول نعمان الحرز ساكتاً. مطر خفيف قرع السقف. أخرج خير الدين حرزاً آخر. «الشيخ رؤوف الله يرحمه أوصاني أن أعطيه لابنه موسى حين نرجع الى الجبل». شق وسكت ناظراً الى الخارج. «البقية بحياتك». صوت نعمان خرج خشناً واهناً مريضاً. كان شخصاً غيره يتكلم. يده اليئمة الملمومة على حرز أخيه ظلت ترتجف.

•

خير الدين قيس رأى صاحبه رؤوف أبو علي ابن قرية بريح يلفظ أنفاسه باكياً مبقوراً عند سفوح جبال رودوب في بلاد البلغار.

حرزه الجنود من الصخرة حين سكت الرصاص. لم يقوّصوا عليهم من الغابة العالية بينما يجمعون الجثث. احتماوا بعريات. العصاة لم يرموا الثيران بالرصاص. لعل المطر أبعدهم. أو أنهم رصدوا وصول التعزيزات من الشكنة. لفت قدمه بنفسه قاعداً بين الحجارة عند حافة النهر. شرب ماء ونظر لاهثاً الى القناديل. كانوا يجمعون جرحى وقتلى. رأى الشيخين عماد الدين محمود ابن الباروك ومحمد بركات رضي الدين ابن يعقوبين يساعدان في قطع الحبال وزحزحة الصخور ورفع الجثث. نادى عليهما في الليل لكن صوته لم يصل. رأى جنوداً حفاة يطعمون قتلى سقطوا في حفر الرمل كأنهم نفروا قيورهم بلا مساعدة. رأى ضابطاً تعيس الوجه يدخن تبغاً ويفرك صدغه. استعان ببارودة مكسورة ووقف ومشى ناظراً الى الغابة المظلمة تميل في الأعلى كأنها ستقع عليهم. صفوا الجثث متراففة على الرمل وجروا العريات الى أقرب مسافة ممكنة. ميّز جثة قاسم عز الدين من القامة الطويلة. الخردق محا وجهه. الشيخ محمود عز الدين في المقابل بدا صقيل الملامح، وديماً، شبه نائم في نور القنديل. مزق الرصاص قميصه وسرواله كأنهم شطبوه بالسيف والقوقوس. الشيخ بشير تحول جنب صخرته الى ذئب مقتول: كانت أسنانه ظاهرة والعقدة بين حاجبيه متجمعة كأنه مات وهو يخنق عدواً. بحث عن الأخ الرابع، بائع البيض المسيحي من بيروت الذي صار واحداً منهم، ووجده ميتاً في حفرة مكوماً ومغطى بالدم والرمل. في حفرة مجاورة عثر على الشيخ نسيب أبو صالح. ظنه للوهلة الأولى حياً. كان مفتوح العينين مغسول الوجه يتأمل السماء بنظرة صافية حزينة. حين أدرك أنه ميت أراد أن ينحني كي يغمض عينه. أبعده الجنود

من الطريق. ذهب الى صاحبه رؤوف أبو علي وجلس جنب رأسه. تعاهدا قبل افتتاح دبر القمر أن يحمي أحدهما ظهر الآخر. لن ينسى أبداً كيف ظلّ البخار يرتفع من مصاربه الساخنة المكشوفة بينما الرصاص يقطعهم بلا رحمة والمطر يتساقط على حدياتهم الحجرية. مال بجهته ويكسى وهو يتلمس الوجه الخشب والرقية المثلجة. أحد الجنود أمره أن يتحرك. نظر اليهم يرفعون جثة صاحبه وانتظرهم حتى يرجعوا لرفعه هو أيضاً. لم يرجعوا وكان عليه أن يسير وهو ميت حتى العربة. حملته الأيدي بينما يترنح وألقته فوق الباقين. لم يتوقف المطر.

### (الجبال)

ضاع في جبال تكرر غاباتها مثل كابوس قديم منتظم. لم يعثر على الطريق الرومانية المستقيمة. قصف الرعد وجرت المياه في أرض الغابة. رأى نبعاً ينفجر من صخرة جافة. بدلاً من الماضي شمالاً أخذه الهذيان جنوباً وابتعد أكثر فأكثر عن صوفيا. طوال أيام لم تظهر الشمس من بين الغيوم. وقعت الثلوج الأولى لكنها ذابت ولم تنكوم. أثناء الليل أبصر عيوناً صفراء وخضراء تراقبه من الأرض والسماء. عاش على الفطر وعلى ثمر حرشى أحمر صغير الحبة يشبه العناب والزعرور البري لكنه مرّ وقشرته غليظة. لم يتوقف الغثيان ولا انقباضات المعدة. حين بدأ الاسهال بكى ونام مستوداً الى جذع شجرة وهو يبكي. قضى نهاراً في كهف يرفج برداً وينظر الى حبال المطر تسوط منحدرأ متوحش الصخور بيت

رعياً في القلب. رائحة الحيوانات التي أقامت هنا من قبل تغلغت في جلده. تلك الليلة سمع عواء قريباً وخاف أن تهاجمه ذئاب أو ضباع. بينما أسنانه تصطك، صلّى بلا توقف أن ينقله الرب من الأنياب. تقطعت صلاته بارتفاع حرارته وصار يصلي كالندرايش في دمدمة حارة متصلة بلا كلمات. نسي الكلمات ويات نطقه أقرب الى البرطمة. الألم في فكه وعده وأذنه منع عنه النوم رغم تعبته الشديد. مرّق السعال صدره. البرق أضاء المنحدرات الصخرية. بعد كل الساعة اشتدّ سقوط المطر. قبيل الفجر وقعت حبات الجليد كبيرة وطرقت على الحجارة أمام الكهف وقرزت الى الداخل. بلا نار أيقن أنه سيموت. حطن نفسه وأغمض عينيه وتخيّل وجه هيلانة ووجه بربارة. رأى أشباحاً وجليداً وضباباً أبيض ووجه الشيخ حمد السعدي الأعمى مشوهاً بحروق البارود. انتبه الى أظافره تزرق والى البقع السوداء على فخذه. وقف وتحرك في مكانه وانتظر الضوء. في ذلك الصباح ركض ووقع ونهض وركض من جديد. انحدر بين أشجار تسوطه بأغصان من زجاج. حين عثر على طريق قدم ضيقة قفز قلبه الى زلعمه. طار منحدرأ في الطريق وبلغ وهددة كثيرة الشوك ملتفة القصب لكنه وجد الطريق من جديد وتسلق هضبة بينما الدم يسيل على ذراعيه وساقيه. أطلق على قرية صغيرة تغطيها قشرة ثلج وتحيط بها تلال وحل. أبصر دخاناً يرتفع من سقوف ورأى للمرة الأولى منذ فترة طويلة بشراً: امرأة ملتفة بصوف خرووف تقطع حطباً بفأس أمام باب بيتها. كانت بعيدة، في الأسفل، قصيرة كقزم. قبل أن يتحرك أبصر شيئاً ألزمه مكانه. صبيان صفار، سبعة أو ثمانية، ظهروا من ثغرة بين بيتين وهم يطاردون واحداً منهم ويضربونه بالعصي. وقع

الصبي وتجمعوا حوله. كان يقف بين حين وآخر ويتكلم معهم من دون أن يبكي وهو بنفض ثيابه. عرف أنه يكلمهم لا من الأصوات ولكن من حركة الأجسام. لاحقاً صار الصبي يبكي لأنهم لم يتوقفوا عن دفعه أرضاً. المرأة رأتهم ولم تفعل شيئاً. حملت الحطب الذي قطعته ودخلت وردت الباب. حنا انتظر المساء ثم انحدر صوب القرية. رأى ثعلباً رمادياً متسخ الفرو وتبعه بنظره وأبصر قن دجاج على حائط بيت يفرق في العتمة. الثعلب شعر به واختفى. حنا دبّ على أربع حتى بلغ القن. في الداخل الضيق وجد دجاجة واحدة وبيضة واحدة. لم تخف الدجاجة منه. أمسكها بيد خبيزة وكلمها. لم يبلّك وهو يحضنها في الظلام. رقد متكوماً على جنبه. شعر بالدفء وتنشق الرائحة. كسر البيضة برأس ظفروه وشرق من ثقب الثقبلة سائلاً حاراً دسماً. بينما صفار البيض ينزل كثيف المادة في زلعومه بدأت الدموع تسيل من عينيه. نام في القن والدجاجة بين يديه. رأى للمرة الأولى منذ دهر أنه رجع الى بيته وأنه قاعد مع زوجته عند المساء يخبرها عن نهاره. أيقظه نباح كلاب رصدت رائحته. قبل أن يخرج من القن أحاطوا به وأنخنوه شتماً وضرباً. بعد ذلك جرّوه الى قلعة وراء تلة مسننة الصخور ورموه في قبو بانتظار استيقاظ الأغا من النوم.

### (الحكم)

أدخلوه الى غرفة الأغا عند الغروب. أعطوه جلدأ مذبوغاً يستر بدنه. ركب مظلأً بالسلال في غرفة مستديرة حجرية الأرض

والحيطان، دافئة بسبب كوانين الفخار المملوءة جمرأ والموزعة في جنباتها. شمّ رائحة لحم وورز. بلع ريقه. كان صادق آغا منظرحاً على حشية وثيرة تعلق عن الأرض شيرين، يدخن غليونأ تركبأ طويلاً كعادته بعد الغداء ويداعب قطة بيضاء، ضخمة وسمينة. بدا رائق المزاج على غير عادة وهو يصغي الى القروي الواقف عند النافذة. «بيضة؟» حنا يعقوب أصغى الى القروي صاحب الدجاجة من دون أن يفهم لغته الغربية. لكنه فهم عدداً من أسئلة الأغا. تحدث الأغا مع رجل قاعد في الزاوية يكتب بريشة على دفتر سميك كبير الحجم. وصل المساء سريعاً وأدخلوا مصابيح. القروي نقل ثقل جسمه من قدم الى أخرى. رائحة تيس عجوز فاحت حين تحرك. هجعت القطة كأنها شربت دلو حليب.

«أنت هارب من خدمة السلطان. وسارق دجاج أيضاً.»

الرجل تكلم من الزاوية بالتركية. حنا ظلّ صامتاً. كان محمومأ وورقته تهتز وحدها. الأغا اتبه الى رجفة شفقيه وسأله عن اسمه. في الخارج استمر قصف الرعد. كلمه الأغا بالتركية ثم بالألبانية وفهمه حنا في المرتين لكنه لم يتمكن من الإجابة. لسانه المعقود لم يستجب له.

«أنت أخرس؟»

هزّ رأسه رافضاً التهمة الجديدة التي ألقاها الكاتب اللامرئي من زاويته. حاول أن يلتفت كي ينقل اليه جوابه بالنظرات لكن السلاسل منعتة. لمح بطرف عينه الساخنة حبرأ يقطر من رأس الريشة. شعر أنه سيقع على وجهه. بذل جهدهأ حارقأ لتلا يهين الأغا بسقوطه فيأمر بجلده.

الأراب. سمع أخباره وهو صغير وحلم أن يكبر كي يصير مثله.  
انتهى هنا، بلا أمل، حبيس برج في جهنم.  
«عقوبة السرقة شرعاً قطع اليد. وعقوبة الفرار من الخدمة سبع سنوات في الحبس. وعقوبة بيع السلاح خمس سنوات مع الأشغال الشاقة. الأغا سيحكم الآن.»

## (الحكم - 2)

كانوا أربعة في الغرفة المضادة بالفناديل وصاروا ثلاثة حين  
لقى الأغا قرشاً أمام القروي وصرفه الى بيته. وضع الغليون على  
الطاولة الصغيرة ونادى طالباً حلوى. دخلت جارية مكشوفة الوجه  
تحمل صينية فضة. جلست على الأرض جنب الغليون من دون أن  
تنفس. التفتت قطعة عجين محلى ومخبوز من طبق خبز وملاتها  
بملعقة من القشطة. غمستها في قصعة الفطر وأطعمت الأغا كأنها  
تطعم عصفوراً. حنا يعقوب أغضض عينه كما فعل حين رموه في  
القبو بين محاييس ضجوا حوله كالدبابير يسألون عن اسمه ومن أين  
أتى ولماذا حبسوه.

«هل تريد أن تقول شيئاً؟»

فتح حنا عينيه ورأى في غيمة البخار الأغا يلحس الفطر عن  
شفتيه ويتنظره كي يتكلم.

«اسمي حنا يعقوب. كنت أبيع ييضاً في ميناء بيروت. الجنود  
ضربوني على فمي وكسروا أسناني وتفونني بالباخرة الى بلغراد بدلاً  
من سجين درزي. أنا مسيحي ولا أخدم الخدمة الالزامية في جيش

«أين بارودتك؟ أين سيفك؟ أين القروش التي قبضتها؟ من  
اشترى سلاحك؟ من أي فرقة هربت ومتى وكيف؟ ما اسمك ومن  
أي قرية أنت ومن أي عشيرة؟ لماذا مزقت بزتك النظامية هكذا؟  
الى أين كنت ذاهباً حين قبضوا عليك في قن الدجاج؟ ماذا فعلت  
بالدجاجة؟ كيف ستعوض على المدعي عليك ثمن البيضة التي  
أكلتها؟»

الأغا أصغى الى سلسلة الأسئلة التي أطلقها كاتبه ثم تناوب.  
سحب نفساً طويلاً من غليونه ونظر الى المتهم الجاني أمامه. تنهّد  
شاعراً بالأسى. لم يفهم يوماً كيف انتهى سبداً على هذا السنجق  
النائي. أبوه خدم تحت يد عثمان باشا صاحب قلعة فيدين على  
ضفة الدانوب. كان انكشارياً من الحرس القديم وانشق مع عثمان  
باشا عن طاعة السلطان سليم الثالث عندما انتصاع السلطان  
للقناصل الأجانب وخرج عن الصراط المستقيم وبطش  
بالانكشارية. أنزلوا الهلال العثماني عن الأبراج ورفعوا راية  
مستقلة. صادق آغا وُلد هناك من جارية مجرية ورت عنها عينين  
عجريتين كيثيتين وميلاً شديداً الى السفر والأغاني وحبّ الخضرة.  
رموه في هذه الأصقاع الموحلة بين الهمج الألبان الذين يقتلون من  
أجل دجاجة ولا يرضى أحدهم بتعويض أو غرامة الا بعد أن يأخذ  
ثأره مضاعفاً مئة مرة. في سنواته الأولى هنا حنّ الى أسواق فيدين  
التي تمعّج بالألوان واللغات كأنها برج بابل. كل ليلة قبل النوم لمن  
الأب المعجوز الذي لقّنه قواعد اللغة الألبانية. كان عثمان باشا  
يعرف لغات كثيرة ومع أنه دهم الحرس القديم ورفع سلطته على  
أكتافهم، أقام صلوات مع الصرب والنمسا وروسيا وانكلترا  
وفرنسا. تزوج نساء من الغرب والشرق وأنجب سلالة من

## (حبس بريشتينا)

أقام في حبس صادق آغا فترة الشتاء ثم نقلوه مع محابيس من تيرانا الى تكتات بريشتينا. كان شبيهاً بالقتلى الآن، فاقد اللون، مخضراً عند المفاصل. تراخي جلده القديم على عظام مذبية. نفخ غاز الموت بطنه. قطعوا مضائق جبلية تهلك فيها الحيوانات ودفنوا على الطريق رجلاً سقطوا كالذبان بلا ضرب. لم ينطق حرفاً وهو يحفر قبوراً. على الطريق اشتغلوا في حقول. بنوا حيطان دهم. نقروا أقتية. تلقى السياط في أتبن حيواني مستسلم. تحول الى بهيمة وهو يحاول أن يتكلم أمام صادق آغا ويعجز. لم تكن الحمى السبب. زالت عنه الحمى بعد أيام أو أسابيع لكنه ظل عاجزاً عن الحكيم. فتح فمه وتكلم. سمع برطمة حيوان. المحابيس شتموه وركلوه حتى سكت. بين الأجسام لم يتجمد برداً. في ظلمة الأقبية حاول أن يتذكر آخر مرة تكلم فيها. توقف قلبه عن النبض وهو يراهم في ضوء الغروب، يتساقطون قتلى تحت المطر، وتفرزههم الصخور في الرمل. صرخ في كابوسه ولطمته مرافق وسكن. غرقت عربات في الوحل قبل بلوغ بريشتينا. أنزلوا أحمالها ودفنوها خارج الوحل. سقط على الركبة التي تظل تؤلمه وشعر أنه لن يتنهض مرة أخرى. سمع الزعيق والشتائم. لم يتحرك. غرق في الوحل وانتظر أن تطمره الرفوش حيث هو. لكنهم حملوه وطرحوه في العربة. في حبس بريشتينا عاش تحت الأرض سنتين وفوق الأرض ثلاث سنوات. كان بلا اسم، لا أحد يعرف من هو ولا من أين أتى. نُسي ذات مرة في قبو فارغ وأوشك على الموت جوعاً لولا الصدفة: حارس يعبر الدعليز قفزاً كي

السلطان ولم أحمل في حياتي بارودة ولا سيفاً. عندي بنت صغيرة. أبوس رجلك يا باشا لا تقطع يدي من أجل البيضاء. كنت أموت جوعاً.»

الجارية التي تفوح برائحة المسك والحنة أعدت ثلاث قطع قطايف بشقطة وانتظرت ايماءة سيدها.

«أنت أخمرس أذا؟»

انتبه حنا عندئذ أنه يتكلم في رأسه بلا صوت وأن أحداً لم يسمع كلامه.

«احبسوه. وبعد ذوبان الثلج انقلوه الى بريشتينا.»

عظف الكاتب حكم الآغا.

«ويده؟»

«لا، لا تقطعوا يده.»

«لكنه سرق بيضة!»

«لم يسرق الدجاجة.»

وضع الكاتب الريشة في الدواة وتركها. الآغا دفع صحن الحلوى الى السجين المبلول بالعرق وطلب منه أن يأكل. أعطاه ظهره بعد ذلك وكف عن الحركة كأنه أخلد مثل القطة الى النوم. حنا انحنى وهو يجز نفسه صوب الطبق. السلسلة المربوطة منعته من بلوغ القطايف. مالت الجارية على الآغا وهمست في أذنه. الكاتب ابتسم وهو يصغي الى المطر وطققة حبات الجليد ناظراً الى الجارية تدفع الصحن أقرب الى الرجل المربوط كي يأكل. الهيكل العظمي التهم القطايف ولعن الشقطة والقطر ثم نظر الى الجارية الشركسية البيضاء. لم يشكرها لكنه كفت عن البكاء.

ينبع يفور حلوأ كالكلبن الطازج بين أشجار جوز عملاقة. رئيس الحرس ركع على ركية واحدة وشرب أولاً ثم سمح لجنوده بالشرب. حين اكتفوا أشار بلفافة الشبخ التي أشعلها الى المحاييس: «اشربوا أنتم أيضاً.» مشى في ظلال الأشجار ودخن على مهل متأملاً القرى في القاطع المقابل. القرميد الأحمر للبيوت المتكتلة تألق وسط خضرة البساتين وزرقة الأحراج. حنا نظر الى رئيس الحرس ووجد وجهه شبيهاً بوجه قديم كان يعرفه ويحبّه ثم مرّ الزمن وأنساء من يكون. كانوا يصيحون في البساتين ونداءاتهم تصل خافتة الى هذا الجانب. فهم كلمتي «ماء» و«الليل» وكلمة «دور» ثم صار يصفي الى لحن أغنية تأتي من نقطة أقرب، في الوادي. كانوا يصفرون ويقرعون على قصب أو خشب. رئيس الحرس آخر الطابور كي يسمع المرأة التي تغني. سار حتى حافة الظلال وبدا خارج العالم وهو يميل مع الأغنية وراء سحابة تبغ.

### (حصن على الحدود)

أطمعهم وجبة ساخنة وسقوهم قهوة. كان يشرب قهوة للمرة الأولى منذ أربع أو خمس سنوات. أعطاه سجين نشفة تبغ بين اصبعيه. مضغ التبغ متمهلاً ونظر الى غيمة بيضاء مفردة في السماء. رأى محاييس يستلقون للنوم دقيقة قبل القيام. فعل مثلهم لكنه لحظة أغمض عينيه سمع صوت قاسم في أذنه: «سامحنا يا حنا.» شفق وجلس مرتجفاً كأن هواء بارداً لسعه فجأة. لم يرّ الا السجناء الألبان أنفسهم يستعدون للنهوض بينما الجنود يرمون ماء

يقاوم البرد سمع أنينه في الظلام. فكّ قيده وأخذته الى قبو آخر تصل اليه سطول الطعام. أثناء سنته الرابعة هنا نقلوه فترة قصيرة للخدمة في المطبخ. بينما يغلي عظمأ في القدر نظر الى ذراع الزرقاء وقال لنفسه «إسمي سليمان، إسمي حنا.» الطبخ عطف عليه ناظراً الى شعره الأبيض، وأعطاه ما يزيد عن حصته خبزاً. أبكته هذه الخبرة الزائدة. ذكّرت أنه ليس بهيمة. رذوه الى مكانه ونام في زاوية. الأعوام المتعاقبة في المكان المقفل الرطب جعلت رتته تتضخم في صدره وهي تحاول امتصاص الأوكسجين. كان يشعر بضغط حجري على قلبه وقال لنفسه سأموت هنا مخنوقاً كما مات أبي في بيت النار. لم يبك.



الخروج الى الأشغال منع عنه الموت. أخذوه مع بقية المحاييس لترميم حصون على الحدود، وهكذا فُير له أن يرى للمرة الثانية في حياته تلك الوعول العجيبة الحمراء التي يستونها ووعول كوسوفو. عيونها الذكية المدوّرة كعيون الأطفال تأملته طويلاً كأنها تتذكره، كأنها تعرفت اليه رغم مرور السنين، كأنها تعلم من هو. "أنا حنا يعقوب. كانوا في ذلك الوقت يستونني سليمان غفار عز الدين. والآن رجعت حنا يعقوب." تلكاً ناظراً الى عيونها. جذبه الجبل. اندفع الى أمام لكنه التفت بعنقه وظلّ يبادلها النظرات. مرّ طابور المحاييس عند حافة الغابة وراففته الوعول البديعة من بين الأشجار، تبين ثم تختفي ثم تطلّ من جديد. شعر أنها هنا من أجله. لم يكن محمومأ ولكنه بان مترنح الخطوة شبه سكران دانخأ بالنور الربيعي وروائح النباتات البرية والمدى المفتوح، ومنتشياً بالماء الكثير الذي شربه قبل ساعة من



الثور الذي فُكَّه كي يرتاح نَفخ عليه نفساً حاراً جباراً. داخ من الرائحة الشديدة واستدار وهو يرمش بعينه وسمع ضحكة الشيخ محمود. رآه واقفاً أمامه بلحيته الصفراء وعبائه القديمة المقلّمة وكنتفه المحني. قبل أن يتلاشى الشبح أدرك أنهم حوله. شعر بهم واستمر في الحركة ناعلاً التراب في ضباب الدموع. عند المساء، بينما يأكل عزيته، رأى الشيخ بشير. كان بعيداً، أتياً من وراء التلّ حيث أقاموا المطبخ وعلّقوا القدور. سار متمهلاً يتكلم مع جنود تحلقوا حول نار يدخنون. بان أصغر سناً في ضوء النار وحين نظر الى حنا لم يفهم ماذا يريد: هل يريدُه أن ينهض؟ ينتظره كي يقوم؟ فتح فمه كي يسأل. لم يخرج صوته. كانوا هنا. ذهبوا ثم عادوا. اختفوا وردد على جنبه ينتظر شيئاً. من دون أن ينتبه غرق في نوم عميق.

### (هيلانة وبربارة)

اشتغلت في بيت الكونت ده بسترس سبع سنوات وفي الثامنة مات. المخادمة الفرنسية وجدته ميتاً في سريره في الصباح وذهبت وقالت للست سارة التي تنام في غرفة أخرى لأنها مريضة. الست مريضة لكن الكونت هو الذي مات. أرسلوا يطلبون المعجوز خولة الشامي التي لا يفلس أحد غيرها موتى حتى سرق. تكلمت المعجوز بصوت منخفض وطلبت قدرين من المياه الساخنة. سألتها هيلانة هل تريد صابوناً فايتسمت وفتحت صرّتها. أخرجت صابونة وحجر خفّان وقماشة صفراء كبيرة. «شمتي!» دفعت الصابونة أمام

على التراب. في الوقت الباقي من ذلك النهار حمل الحجارة كالبعل شاعراً أنه في مكان آخر. ارتقى سلماً حاملاً مطرقة الى رجل أسقطها من فوق السور. رأى رملًا وأشجاراً رمادية قصيرة وغنماً واستغرب ألا يرى ملتقى نهري السافا والدانوب. لم يسمع أذان جامع بلغراد عند الغروب. لكنه سمعه في رأسه بعد العشاء حين سمحوا لهم بالنوم مربوطين في الهواء الطلق بين أكوام الحجارة. كان يعرف أن بلغراد بعيدة في آخر الأرض وأنه لا يبلغها إلا بمسيرة أسابيع وحتى عندئذ قد يعجز عن الوصول لأنه صار وحده ولأنهم قضا مقطوعين بالرصاص. لكن صوت قاسم في أذنه لم يتبدّد. رقد على جنبه ونام كالقتيل محطم الجسم. لم يضايقه الشخير. لم يسمع الا الضفادع. ظلّ يسمع نقيقها وهو غارق في نومه. حين فتح عينه شاعراً بضغط شديد على مئانته رأى عدداً لا يحصى من الأضواء يرصع السقف. دامت حيرته وقتاً ثم أدرك أنها النجوم وأنه ينظر الى السماء. «أنا ميت. قتلوني. طمروني في حفرة الرمل.» تحرك لثلا يوسخ نفسه. تحايل على الجبل كي يركع في نقطة بعيدة قليلاً عن الباقيين. انفجر البول أمامه ساخناً أصفر اللون. فكر أنه مريض. لم يتوقف السيل وتغيّر لونه، صار فاتحاً شبه شفاف، وتبدّل شعوره. أصلح سرواله ورجع الى مكانه واستلقى على ظهره. نام هكذا مملوءاً بسكينته لم يعرفها منذ دهور. في الفجر أبقتلهم بالركلات. قام واشتغل ولم يتوقف للراحة الا بعد توقف الجميع. ابتلّ بالعرق كأنه نزل الى النهر وخرج. أطعموهم خبزاً وجوباً مطبوخة. هواء لطيف دابح أوراق الشجر. نام دقيقتين بعد الأكل ونهض ناشف الجلد مسترداً قوّته. نقل تراباً وساعد على تثبيت عجلة لعربة زرعها ثقل الحجارة.

أنف هيلانة. تراجمت المرأة الى خلف. العجوز ضحكت وقالت اسرعي بالماء وتعالني وتعلمي، ولن آخذ منك قرشاً. ساعدتها هيلانة على غسل الكونت الميت. تقلبت الجثة عارية ثقيلة على التخت، فاترة تحت القماشة. بدت العجوز حزينة كأنها تغسل عزيزاً. فركت بحجر الخفان القشرة الرقيقة لكعب القدم. البخور الذي أشعلته في صحن عند النافذة تارجح دخانه في مساحة محددة ولم يصل الى التخت. كان الهواء ساكناً. لم تدخل الغرفة نسمة واحدة. النهار في أوله لكن هيلانة شعرت بالثعب. عند الغروب، بينما تنشر أغطية مفسولة وراء البيت، ناداها الخواجة ابن الكونت السيد نقولا. «تأخرت اليوم.» سمعته وهي تلف المنديل على رأسها وتأهب للمغادرة. رأت عينيه الحمراوين واستحت ونظرت الى الأرض. كان يبكي وطلب منها كأس ماء قبل أن تذهب. جلبت الماء ورأت وحلاً من المقبرة على صباطه. وقفت مترددة لحظة. مذبذبه وجذبها اليه. سنوات وهي تهرب من طريقه وهذه المرة اضطرت الى دفعه دفعاً. انتهت الى قوة ذراعها حين ترنح وأوشك أن يقع مع الكرسي. لم تقل «عيب يا خواجة.» أبعده خارج العالم وغادرت حنّ السراسقة ولم تدعس فيه بعد ذلك. أبونا بطرس ظلّ حتى موته يتخيلها هناك، على الدرج الرخام، مؤطرة بالنافذة، تنتظر كالتمثال رجوع حنا. سألها لماذا تركت الخدمة عند الستّ بسترس. أسكنته بكذبة واحدة. كانت قليلة الحكي ولهذا صدقها. قال إنه هو أيضاً يتضايق الآن اذا ذهب الى هناك ووجد كنية الكونت المرحوم فارغة. سعل وغيّرت الحديث. سأله عن صحته. ارتاح وأخذ يخبرها عن آلامه.

«الرطوبة مؤذية للعظم. لا أنام في الليل. كنتسي عتيقة رملية

الحيطان تمصّ الرطوبة كالاسفنجة ولا تنشف حتى في عزّ الصيف.»

ابتسمت كي تبدو مصغية. جاءت العجوز خولة الشامي بعد أسابيع وقرعت بابها وسألتها هل تحبّ أن تأتي وتغسل معها ميتاً. «لا يا خالتي، مشكورة.» العجوز ضحكت ضحكة قصيرة ثم عبت كأن نحلة عقسها: «أنا مثلك يا هيلانة قسطنطين يعقوب. في زمن الجزار خرج زوجي الى السوق ولم يرجع عند المساء. انتظرته سنوات وابني الوحيد كبير وهو ينتظر معي. أنت تركك مع بنت. أنا تركني مع صبي. ادعو الربّ أن يحمي إبنك وأن تكبر في دلالك وأن يلعب أحفادك في هذه الدار. ربّي آخذ إبنني مني وأنا أعدّه للزواج. غسلته بيدي ودفنته. خفت بعد ذلك أن يرجع زوجي الى البيت. ماذا أقول له إذا سألتني أين الصبي؟ بقيت سنوات خائفة ثم انتبهت أنني صرت ختيرة. ادعو الربّ أن يرد إليك زوجك يا أم بربرة.» ذهبت وتركتها وحدها. أقفلت هيلانة الباب والنافذة. بكت قاعدة في العتمة وظلّت سنوات تبكي في العتمة وتصلّي - بعد أن نسيت الصلاة وهي تمسح وتغسل في بيت بسترس - من أجل زوجها. في السنة العاشرة قال أبونا بطرس ان بربرة صارت تشبهها هي أكثر. لم تعجبها كلماته وسألته لماذا يفعل الربّ هذا معها؟ كانت وحدها معه، في بيته على حائط الكنيسة، ترتب المكان لأنه مريض، وتطبخ له. ارتبك وأخفى أفكاره خلف سعاله. لكنني لم تتراجع. «لم أعد مؤمنة. لا تزعل مني. أصلي وأقول اذا كان الربّ يسمع ربما يساعدني ويساعد حنا. لكن لا أؤمن كما أنت تؤمن. كيف أؤمن؟ هل جهنم أسوأ من النوم والقيام وأنا لا أعرف أين حنا؟» أبونا بطرس نهض من

يريد قضاء حاجته وقال لا . لم يبك وانتظرها حتى جلبت الماء .  
أعدّ كلماته ولفظها متمهلاً وغارقاً في الحزن لأنه لم يكتفها في  
نفسه .

«تغيرت كثيراً يا هيلانة .»

«لا تزعل مني . أنا أيضاً كبرت .»

«لا أزعل لأنك كبرت يا هيلانة . أزعل لأنك صرت قاسية .»

### (حكى في الظلام)

«كنا في حبس الهرسك . طلبنا مدحت باشا والي الدانوب الى  
حبسه الجديد في روسه . أصلحنا الطرق من الهرسك الى قشلاق  
صوفيا . في مضائق البلقان فكرت أنني سأموت قبل الوصول الى  
الحبس الجديد . كنت أصدق دماً ولا أقدّر أن أنام بسبب الدم في  
قمي . لكنني بلغت سهل الدانوب . واسع كالبحر أخضر وأحمر  
وأصفر وفي آخره المدينة والسفن الشراعية تعبر النهر . وضعونا في  
الثكنات لأن بناء الحبس لم يتو بعد . شغلونا في مدّ سكة الحديد  
الى البحر الأسود . مسافة أيام لكن القطار البخاري يقطعها في  
عشر ساعات . المهندسون الانكليزي علمونا كيف نمدّ القضبان  
الحديد بالطول والألواح الخشب بالعرض قبل أن يأتي الذين يعدّنا  
ويطرقوا المسامير . كل مسمار بطول إزميل . الطريق طلعة وبعد  
ذلك تتحدّر . صرنا نشمّ رائحة الملح في الهواء وعرفنا أننا تقترب  
من البحر . لكننا لم نر البحر لأن محاييس غيرنا مدّوا السكة آتئين  
من مرفأ فارنا ونحن لا نعرف . رأيت الانكليزي يضحك علينا .

فراشه غاضباً ورفع صوته . ابتعدت عنه لكن غضبه لم يحرقها .  
هاجمه سعال حقيقي هذه المرة وعاد الى فراشه مرغماً . تابع  
تفريعه لها . طأطأت رأسها . بعد شهر تصرف معها كأنه نسي  
اعترافها . رآها في القدّاس تبكي . قال لنفسه أنا مثلها . في الفصح  
أخذ سلّة الكعك كالعادة وقرع بابها . وجد في الكتاب المقدس  
مقاطع مناسبة وحاول أن يحفظها وأن يقوّيها بها وأن يقوّي نفسه .  
بينما يقرأ مرة أخرى غير البرص الذي ضرب به الربّ خادمه أيوب  
انتبه الى البقع على جلده . « أنا أيضاً .» كان ماشياً خالي البال في  
سوق الفشخة وواجهته مرآة زجاجية طويلة في مدخل متجر جديد  
داخل باب ادريس واكتشف أنه صار عجوزاً . ذلك المساء زار  
جيرانه كي يسمع بربارة تحكي وتضحك . سألها عن دروسها .  
كانت تتعلم الفرنسية والحياكة والتطريز في دير راهبات المحبة  
اللعاازيات الذي تديره الأم جيلاس الفرنسية . بدت بربارة نسخة  
عن أمها ، كأنها هيلانة قبل أن يخفي حنا . نظر الى عينيها الذكيّتين  
وفكر في أبيها . شعر بالنعاس وقرر أن يتنهض لكن هيلانة وضعت  
أمامه صحن مهلبية ، حلواه المفضلة . قبل أن ينام تلك الليلة فتح  
الباب لحظة ونظر الى الدرب الخالية ولم يرَ أحداً . في عيد الميلاد  
زاد سعاله ولم يرأس القدّاس . اعتنت به هيلانة مع أن أشغالها  
كثيرة : كانوا يجلبون الغسيل الي بيتها ويستردونه نظيفاً مكوياً مشبعاً  
برائحة الصابون والشمس . فقد السيطرة على أحشائه . نظّفته وهو  
يبكي وغسلت ثيابه وأعطيتهه وألبسته ثياباً جديدة . في شهر شاخ  
سنوات . بربارة ظلت تأتي في المساء وتضحك بحديثها . كانت  
أجمل ما حدث له في مملكة هذا العالم . نظّفت هيلانة فراشه ذات  
صباح ووسخه قبل مضي ساعة . عاتبته لأنها سألته في الصباح هل

ولماذا يئن ولماذا لا يتنام؟ كان الصوت في رأسه. عرف لأنه تكلم بالعربية. وعرف لأنه لم يشتمه.

«ماذا سأفعل يا قاسم؟»

«اصبر.»

«لم أعد أقدر.»

«تتذكر عندما أخذونا أول مرة كي نكف التناحر والعتب؟»  
في المكان الساكن لم يكن يُسمع غير وشيش المطر على السقف.

«تتذكر الخان والأولاد الذين سألونا كيف نأكل من مطبخ العسكر ولا نحمل بواريدي؟»  
الرعد بعيد. تقلب سجناء.

«تتذكر ميناء بيروت وأنت تطف حاملاً البيض تنظر إلينا ولا تهرب؟»  
مغمض العينين، راقداً على بطنه، تذكر حنا يعقوب.

### (جدول ماء)

عبثوه في خدمة التنظيف. صار يخرج حاملاً سطلين ثقيلين إلى جورة المجارير عند السور. امتلأت الجورة وجلبوا براميل على عربات تجرّها حمير. اشتغل أياماً مع آخرين في إفراغ الجورة. سُمح لهم بالخروج مع العربة الثقيلة. أفرغوا البراميل في جورة أعمق وأوسع على مسافة دقائق من السجن. زلقت قدمه وسقط في

ردونا إلى ثكنات روسه ولم تَزِ القطار. لكننا سمعناه يصفر ونحن في القبو. وزعوا علينا كعكاً أرسله الوالي هدية. أكلت كعكة وشفي صدري ومنذ ذلك الوقت لا أسعل دماً.»

تكلم الرجل بالتركية يُحدّث شخصاً قريبه. حنا يعقوب أصغى إلى قصته في الظلام. منذ فترة لا يتنام جيداً. عند بلوغ الحبس كان يعرج على قدمين متورمتين. نزع مدامه. وجد الجلد مسلوخاً. عالج جروحهم وظلّ أياماً يتخيل الباب يتحرك والحارس ينادي كي يخرجوا إلى الأشغال. انتظر لكنهم لم يأخذوه إلى الحصن على الحدود مرة أخرى. سمع الرعود وفقد الأمل. المكان بلا نوافذ لكن فيه كوى عالية يدخل منها الهواء ونور النهار. أمطرت ودخلت رائحة التراب والنبات. وراء الحائط يسمع جلبة. لكنه لم يسمع مرة واحدة ركضاً على السقف. لم يعد تحت الأرض. في الكوابيس يراهم ينقلونه إلى الأقبية المظلمة ويصرخ كما صرخ قبل سنوات عندما ألقوه في قبو صادق أغا. تلك الليلة الأولى قصته نصفين. وضعوا قيداً حديداً في كاحله حيث ظلّت العلامة محفورة. ضربوه وخرجوا وأقلقوا الباب. صرخ حتى تقطعت جباله الصوتية. كان من جديد في السجن: خرج وسكن بيتاً في بلاد البلغار. وعدوه بالعودة إلى بيروت. قتلوا الذين معه وردّوه إلى الظلام.

«أنا أيضاً كنت في حبس الهرسك. إسمي حنا يعقوب. أنا من بيروت. أعرف قشلاق صوفيا. لم نذهب إلى روسه. رأيت نهر الدانوب حين حبسونا في القلعة البيضاء. كانوا يستمّونني سليمان فقار عز الدين. في الهرسك سمّونا دروز بلغراد.»

حاول عبثاً أن يتلق الكلمات. سأله صوت لماذا يبكي الآن

## (خروج)

أخرجهم مع طيور الربيع لإصلاح الطرق. عرج ولم يسقط.  
ضرب المعمول في بقعة رطبة وأبصر عدداً لا يحصى من الديدان  
البيضاء السمينة تتغلغل عائدة إلى الأعماق. بعد ضربتين رأها  
تفجر صفراء ورمادية. ملا الجردل وحلاً ونظر إلى السماء. كانت  
زرقاء باردة. الشيخ الذي كسر رأسه على حائط القبو في قلعة  
بلغراد تأمله مغتساً بالعرق يجلس كي يأكل خبزه عند الغروب بين  
محاييس غرباء.

«تذكرني يا شيخ حنا؟»

«أنتذكرك لكن نسيت الاسم.»

«لا تتذكرني؟»

«أنتذكرك. وتخطر على بالي في الليل. قريبك الشيخ عثمان.  
كان معنا. مات بالهواء الأصفر قبل سنوات. أبو غانم أو أبو  
غنام. نسيت.»

«ماذا تفعل هنا؟ لماذا لم ترجع إلى بيتك بعد؟»

«بان الدم جامداً أسود اللون على جبهته المشفوقة.»

\*

نقلوه إلى حبس على طريق مونتيفرو. رأى رايات خضراء  
خافقة على أبراج بعيدة وعرف أنها الحدود. تأخر الطابور في  
منطقة مستنقعات. دفنوا بلا صلاة رجالاً حطمتهم أرض كريمة  
الرائحة. توزم وجهه من عقصات البعوض. عبروا قرية مغلقة  
الأبواب والنوافذ. نحت عليهم كلاب مبقعة بالجرب يسيل لعاب  
مسور من أشداقها. «لا أقدر.» ترنح نصف ميت. شعر بسخونة

السائل القذر الكثيف. لم يفرق لأنهم انتشلوه بالفروش. تحمّموا  
عند الغروب في جدول ضحل المياه. كان عارياً يفرق نفسه بالوحل  
ولطمه أحد السجناء في كلبته. وقع على حجارة وكشط جلد فخلده.  
البرد أخرج من فمه بخاراً أبيض. تلقى ركلة ودبّ مبتعداً ثم  
استدار. كان يواجه رجالاً قادرين على قتله بلا سبب. رأى  
أعضاءهم متضخمة كأعضاء الحميمير. استغرب أنه مثلهم. كانوا  
أكياس جلد مملوءة عظماً وسمعهم يضحكون. أحد الجنود نادى  
عليهم وهو يكرس غصناً ويسوط الماء. أنهى حنا حمامه ولبس ثيابه  
التي غسلها وعصرها ومشى في الصف. دفعته القبضة ذاتها ومن  
دون أن يتبه فتح فمه وتكلم بالعربية ثم بالتركية وشتم الرجل. هكذا  
نطق من جديد بعد خمس سنوات من السكوت.

\*

«ضربوك يا حنا؟»

نظر إلى وجه يفرق في ضباب أحمر.

«سنوات وأنا أنتظر. أين كنت؟»

سمع جرس الكنيسة يترع. الوجه يده الضباب.

«سنوات والناس يضحكون عليّ. وأنا وحدي. ويقولون أرملة

ولا تلبس ثوب الحداد لأنها لم تدفن زوجها بعد. انظر إليّ!»

في الضباب لمع حركة ولوناً أصفر كالتار لكن الوجه ظلّ  
محمواً.

«كيف فعلت هذا يا حنا؟ كيف تركتني وحدي مع بربارة  
ودعبت؟»

«جسوني يا هيلانة. جسوني في آخر الأرض.»

سليم الثالث. لم تظهر على غرايط أسطنبول الا بعد ثورة الجبل الأسود. تعاملت الحيطان الصماء مع رصاص العصاة تعامل جسم الانسان مع الطغح الجلدي أو داء الحصبة. تحملت على مضض، وأحياناً بلا مبالاة، وصمدت. ظلت مقر الحكم للسنجق القديم بأسواق ماشيتها الاسبوعية وجامعها الشاهق المثلثة ومخازن الملح والسكر والزندان الكتيب العميق أسفل السراي المصدع. في 1862 اكتسبت أهمية خاصة بتسلم «الباشاوات الثلاثة» أمرها. حكموها بالعدل. ازدهر السنجق في عهدهم حتى طمع فيه أمير مونتيفرو نقولا الأول. جرب بالحرب وبالمفاوضات إنتزاعه منهم. صدّه طويلاً وحمو حدود السلطنة. كانوا دهاة باطنيين. فتحو أبواب الثراء أمام الطامحين لكن التاريخ لم يحفظ منهم غير فرمانات غريبة أقلقت راحة العامة. في صيف 1867 منعوا بفتوى شرعية أكل الفول والبقدونس كما منع الخليفة الفاطمي قبلهم بشمانية قرون أهل مصر عن الملوغية والكزبرة. في خريف 1871، بعد رجوعهم من رحلة خارج أراضي السلطنة، نهوا الباعة عن الصباح في الأسواق وأنزمو الأهالي كما الجنود بخفض أصواتهم الى حدّ الهمس ليلاً نهاراً تحت طائلة الجلد والحبس ودفع الغرامة، ولم يستثنوا غير المؤذن وخطيب الجمعة. هنا، في قلعة الباشاوات الثلاثة، انتهت بانع البيض حنا يعقوب مقيداً تحت التراب الى وتد يفتته الصدا.

كانوا ثلاثة ضباط مدفعية صفر البشرة كأهل الصين لكنهم يشبهون الجردان شكلاً وطبعاً. جاؤوا من فيدين هاربين من التتر. في 1861 نقلت الدولة العلية 120 ألف تتر من حدودها الشرقية

تحرق فخذيته وسقط. غاص كحجر في الوحل. امتدت يد ورففته. بصق حشرات ميتة. أدخل أصعباً في أذنه وأخرج وحلاً أحمر. توغلوا في غابة صفراء مظلمة. شموا رائحة شواء. أطلق حقايون من بين الجلود. غافلوا الجنود وناولوا الأشباح ثمراً مجعد القشرة له طعم الإجاص. حنا مضغ وبلع شبه نائم. لم يرتاحوا تلك الليلة. ساقوهم كالماشية. فتح عينيه حين تعثر. رأى جثة ضئيلة الحجم تنتفض مرة أخيرة ملطخة بالوسخ. عرف الوجه والشعر الأبيض. «أنا؟» اخترق الألم دبره وخرج من بين أسنانه. ظل على الأرض بينما أكياس العظم تواصل سيرها تحت غيوم عمياء. سمع الخيول تصهل في الظلام وتبتعد.

«ستموت هنا؟»

«من أنت؟ لا أراك لكن أشعر بيدك ثقيلة عليّ. ماذا تريد

مني؟»

«ستموت هنا يا حنا يعقوب؟»

توقف حصان ونفخ عليه. قبض بخار ساخن على رقبته. نهض ومشى. ارتطم بأشجار. استند الى جثث تتساقط ثم تقف. قبل الفجر بلغوا بلاطة صخرية شاسعة. أراحوهم هنا. أحصوهم واكتشفوا أن الباقيين أكثر من الذين قضاوا.

### (قلعة الجبل الأسود)

أبينة من الحجر الأسود تنكتل كالورم على حدود السلطنة العثمانية. قلعة عمرها أربعة قرون رُعمت أبراجها في عهد السلطان

المهندس ذاته اقترح عليهم توسيع القلعة عمودياً عبر استغلال الأرض ونقب زنازين جديدة فسيحة عصرية ومزودة بفتحات تهوية ومصابيح زيت للإضاءة تحت أقبية العقد العثماني المظمورة. شرح لهم ان المستقبل الثوري لفرن العمارة يكمن في أبراج تتوغل في طبقات الأرض بدلاً من نطح الغيوم حيث الرياح شديدة. أحبوا حماسته مع أنه لم يستخرج لهم غير الحديد السيئ النوعية الذي لا يصلح الا لصناعة المسامير وحدوات البغال.

«لماذا لا تبقى هنا؟ نعينك مستشاراً مثل اللورد بالمرستون ونمنحك علاوة على الراتب بيتاً وحصاناً وزوجة.»  
 «عندي زوجة وأربعة أولاد في انكلترا!»  
 «لا يمنع، خمسة رؤوس، انقلهم الى هنا أيضاً.»

### (قلعة الجبل الأسود - 2)

حنا لم يعمل في المناجم. في الشتاء الذي سبق وصوله إنهارالمنجم الأقدم بين الثلاثة واضطروا الى إقفالها. قضى عشرات العمال الأجراء إضافة الى عدد غير محدد من السجناء. حجز الركاب 17 سجيناً في مكان عميق يصله هواء قليل وخيوط ضوء وماء. ظلّت أصواتهم تُسمع من بطن التراب زمناً. كان حبساً جهنمياً أفضح من موت تحت التعذيب. جاعوا وذبحوا الأضعف بينهم وأكلوه. أذكاهم وأقواهم صمد خمسة شهور ثم قضى مسموماً بين العظام. بعد ذلك لم يسمع أهالي القرى صوتاً ينادي تحنتهم. حنا سمع تنفأ من هذا في الظلام. في الدعليز، بينما

مع بلاد الروس الى الحقول المجاورة لقلعة فيدين على حدودها الغربية. قضى نصفهم بالتيوفيد مكمواً كالغيم في بطن السفن. ألقوا 60 ألف جثة على وحول الضفة. كانت جبلاً من عائلات الفلاحين وتأخر دفنها. سكان القرى سدّوا نوافذهم المظلة على الماء بالخشب والقماش منعاً لانتشار الرائحة وتفشي المرض. الضباط الثلاثة انتقوا أجمل التريات الناجيات. طلقوهن بعد شهور وتزوجوا أخواتهن وبنات أخواتهن. أحبوا التعفف الثري ووجدوه أقرب الى طبيعتهم. هجروا شركسياتهم. اعتبروهن شرسات ماجنات واهيات في الباه أكثر مما يُحتمل. كثّروا صلاتهم بالنتر المستوطنين طلباً للزعامة. لم تجر الرياح بما تشتهي سفنهم. أمتوا بالخرافات: اتبهوا الى تقشر جلودهم وضومر غصاهم. بينما بولهم ينشق حارقاً مخضباً بالدم أيقنوا أنهم وقعوا ضحية السحر التتري الأسود. حزموا أغراضهم على عجل. رشوا باتشاوات الباب العالي بالذهب البندقي ويسرج مفضضة حاذقة الصنعة لا تعقر بكلماتها بطن الفرس. يسمّوا تحت ستر الليل شطر الجنوب. تولّوا قلعة الجبل الأسود. ضاعفوا الضرائب على القرى بحجج عسكرية. سمّوا سكنتهم الجديد «دار الجهاد» تقليدياً لما فعله السلطان مراد قبل قرون مع قلعة بلغراد. لكنهم لم يخزنوا باروداً. استغلوا خصب المراعي المجاورة وكثّروا مواشيهم. هجّنوا بقرأ شديد الكسل كثير الأكل يلدّر حليباً على مدار الساعة. استوردوا خيولاً من الجزيرة. خرجوا لصيد التدرج في غروب ماطر واكتشفوا عرق حديد في تلال بيرق صخرها. استفدوا خبيراً من لندرة نقر سلسلة التلال وفتح لهم ثلاثة مناجم. ضاعفوا نزلاء السجن أربع مرات في سنتين وأمتوا عمالة رخيصة.

«نحن مسيحيون أكثر منك. وتُدير الخد الأيسر.»

عادوا من رحلتهم مصابين بصداع وخافوا أن يكون الأمير سَمَّ القهوة. منعوا الكلام في القصر والأسواق وحكموا بجلد السقائين والباعة الجزائين إذا زعقوا بينما ينادون على البضاعة. لم يقطعوا ألسنتهم لأنهم - كقناصل الفرنجة- كرهوا العقوبات الهمجية. استراحوا قانطين في ظلال الرمان على مصطبة وراء القصر يتأملون بركة الزجاج بالسمك الملون الراقص المجلوب من وراء الدانوب. تحدثوا بلا صوت. وجدوا إمارة الجبل الأسود خضراء زاهرة طيبة المناخ، تملأ الجرار ذهباً إذا حكموها. أحبوا المكان وكروها سيده.

«نشتري مدافع؟»

ابتسموا لأنهم ثلاثتهم نطقوا السؤال في اللحظة ذاتها.

### (قلعة الجبل الأسود - 3)

حنا سمع الحراس يتكلمون مع السجناء في الظلمة. بدوا أقارب لهم أو أصدقاء.  
«هنا أحسن من فوق. الباشاوات منعوا الحكمي. لا نسمع غير العصافير وخيطة السطل في البئر.»  
«هنا نسمع خيطة السطل في البئر. لكن لا نسمع عصافير.»  
«كم سنة عندك بعد؟»  
«ثلاث سنوات.»

يُضرب ويُدفع بعظام طويلة، حاول أن يتكلم مع الحراس وأن يشرح قصته. استخدم كل اللغات التي يعرفها معرفة سجين قضي 11 أو 12 سنة متنقلاً في بلاد البلقان. تلقى لطمات أخرجت الأنفاس من صدره وتركته مرماً ككلب حيث يضيع كل أمل. تكوّم على نفسه شاهقاً بالبكاء يتلمس سلسلته. لم يردّ على السجناء حين سألوه عن اسمه ويلده وجريمته. الليالي الجليدية كسرت ما تبقى من أظافره. احترق جلده. تشقّق فمه. حين بدأ يسمع عن الباشاوات الثلاثة تذكر جودت باشا وراسم باشا وعامر باشا.



قبل أن ينزل هنا أرسلوا الى أمير مونتينيغرو هدايا فدعاهم الى زيارته. كانت دعابة منه لكنهم أخذوها على محمل الجد وساروا اليه في قافلة. نَظَّم للباشاوات الثلاثة استقبالاً شبه رسمي. ارتدى زيّه الأميري ونياشيته. تمنطق بسيف رشيق. كان عريض الجبهة ملون العينين بشارب أسود تحيل ولحية رفيعة مرسومة بريشة حبر على بياض وجهه. حملوا اليه هدية سجاجيد صلاة حبك اليد من ديار أصفهان وداعبوه بأنها تصلح فرشاً لبيتة وكنيسته أو هدية للأميرة. عدّ كلامهم إهانة للطرفين، للهلال والصليب، لكنه حبس امتعاضه بابتسامه أوروبية. حفلات الملوك الراقصة خفّت خطوته على درج القصر الرخام من دون أن تُبطل نباهته. مع ذلك باغثوه على المائدة. طلبوا خمراً وشربوا ضاحكين وهم يقضمون أجنحة الطيور المشوية والمتبلة.

«أنا مسلم أكثر منكم. لا لأذوق الخمر الا وقت المناولة.»  
سكتوا ناظرين الى أعماقه. سيروا باطنه واستغربوا كيف كرههم الى هذه الدرجة في هذا الوقت القصير.



«كان ينزف ويتعذب. هل تسمع الرجل الذي يبكي؟ هذا أخوه الكبير.»

جمعوا الجنود في الباحة وأعطوهم تعليمات جديدة. بعد أيام قوّصوا وقتلوا رعاة صرباً من أهالي الجبل الأسود جاوزوا الحدود التي لا يراها أحد. صادروا مواشيهم الساعة صوب العشب بلا حذر. أمير مونتينيغرو أرسل طالباً تعويضات. ذبحوا حصان الرسول ووزعوه شواء على الجنود. عندئذٍ أمرَ بقصف القلعة.

«لم نظن أنه يجرؤ.»

بدا أن النحاس التري يطاردهم مع الحمام الزاجل.

«الاسطبلات تحترق.»

«بسبب التين والخشب. قديمة.»

استدعوا تجاراً بيوتهم قريبة وانتخبوا منهم مجلس أعيان ثم سلّموا المجلس المذكور مفتاح القلعة.

«سنرجع مع تعريزات ومدافع. انتهبوا للناس وأملاك الناس في غيابنا.»

### الجبل الأسود (1872)

«أيقظني الهدير وارتجاج الأرض. أين أنا؟ في حبس الهرسك أم في قلعة بلغراد؟ القيود الحديد تمنعني من النهوض لكنني أمد رقبتني ومن دون وعي أوشك ان أصبح كما في السنين البعيدة في

«لا تهتم. تمرّ بسرعة. أنا هنا منذ أربعين سنة. ومرّت هكذا، مثل سهم.»

«أنت تحرس. تخرج الى بيتك حين تريد وتأكل طبخ زوجتك و...»

«جيد أنك سكّث.»

سمع عظمة تطقّ على جمجمة. ارتفع صياح وأعقبته شتائم. مرة تلو أخرى طقّ العظم على العظم. ارتجف حنا. «سيموت.» لكن الرجل لم يمّت. طوال أيام حرّمهم بأنينه من النوم. كان عينياً متواصلأ لا يتقطع ويخفت إلا كي يستجمع قواه ويرتفع ويمتد من جديد. بدا أهدياً. لم يضره النائمون جنبه. اهتموا به وتكلّموا معه وحاولوا إسكاته. لكن بلا ضرب. أدرك حنا أنهم أقارب له أو أصدقاء. في شهور قليلة، بينما يفقد ما تبقى من روحه بسبب الجوع والظلمة وندرة الهواء والماء، انتبه حنا أنه يشن مع الرجل من دون انتباه. سأل نفسه كيف لم يضره الآخرون بعد لإسكاته. نام ورأى زقاقاً فيه متاجر مقلّدة يشبه سوقاً قديماً كان يعرفه ويمرّ فيه. فتح عينيه وحاول أن يتذكر المكان لأنه يحفظ أزقة بيروت. بكى حين أدرك أنه الزقاق فوق هذا القبو، الزقاق الذي عبره بينما يلطمونه كي يُسرع وينزل الدرج قبل أن تفتح الدكاكين. في ليلة أخرى، قبيل الفجر، أيقظته اللطعات التي ترجّ الحائط. ظنّ أنهم يساعدون قريبهم في التغلب على نوبة. حين أدرك أنهم يختنقون الرجل صاح ولم يكتف عن الصياح حتى ضربوه. حشوا قماشاً في فمه. تركوه حياً. شعر بالجنة قريبة وسمع نواحاً.

«النوم صعب.»

«قاسم؟»

تططق على جنبه. «لكنك ستجوع»، قال صوت في الظلام،  
 وامتلا المكان ضحكاً شبه الزعيق. سمعت صرير الأسنان وصليل  
 السلاسل وكما يحدث في كل مرة أنفل فيها فقدت السيطرة على  
 بطني ووسخت نفسي. رفعت وجهي إلى فوق ولم أهتم بالآخرين  
 لأن الظلمة كاملة. ظننت أنهم يتكلمون لغة الحراس في هذه  
 الأقاليم - لغة تعلمت نطقاً منها في القلعة البيضاء- لكن بينما  
 يوجهون الشتائم صوبي اكتشفت أنهم يأتون من أمكنة مختلفة  
 ويتكلمون أكثر من لغة واحدة. سألوني عن اسمي ومن أين أجيء  
 ولماذا حسوني. لم أجب لتلا يعرفوا من صوتي المخنوق أنني  
 أكي. في وقت الأكل انشق الباب ووضعوا أكلاً في القدر جنب  
 الباب. بقيت بلا أكل لأنني مربوط في أبعاد زاوية.

عظامي ثقيلة في كيس جلدي وأحاول أن أرفعها. لكنني بلا  
 قوة. أسمع ارتطام الأجسام والسلاسل والرؤوس - بعضهم مقيد  
 إلى بعض - ثم الصوت الحاد الذي يصرخ وينادي الحراس.  
 الدخان يتسرب إلى هنا. أسعل وكذلك غيري وحين يرتطم أحدهم  
 بي أستوعب أن النجاة ممكنة. أمد ذراعي وأقبض على ساق أو  
 ذراع. طبيعة الصوت في القبو تتبدل وأنبيه أن الباب فتح لكن  
 الظلام لم يتغير. لعله الليل في الخارج. تطرفني عظمة على وجهي  
 وأقع إلى خلف وأصدم رأسي. الدم يملأ فمي وحلقتي كما في مرفأ  
 بيروت قبل 12 سنة. لا أدري من أين تأتي القدرة إلى بدني الجائع  
 المحطم لكنني أمد أطرافي مرة أخرى ومثل حيوان لا يفهم أتثبت  
 بالرجل المذعور الذي يحاول أن يهرب وأحفر أصابعي فيه.  
 الغريب أن عضوي ينتصب. يضربني مرة أخرى وهذه المرة  
 استعمل أسناني. أغرزها في اللحم والعظم ولا أقبل أن أترك كي

بلدي البعيد: «بيض بيض، بيض مسلوق». أسمع ركضاً وصراخاً  
 ثم خبطات مرعبة فوقى - على وجه الأرض - كأن حيوانات  
 أسطورية عملاقة تتراكم وتقع وتموت. حوار فظيع يملأ الفضاء  
 وأشم رائحة اللحم الذي يحترق. الرعب يخترق عقلي كحد  
 السيف. عرق بارد كالثلج يبيل جسمي. أنجمد كما يحدث في  
 الكوابيس - كما في اللحظة التي تسبق فرقة البواريد وسقوط  
 قاسم مع أخوته على الرمل الرطب- عارفاً أنني قد لا أخرج من  
 هنا. لماذا أموت في هذا المكان من دون أن أرى زوجتي ولبنتي  
 وبنتي مرة أخرى؟ خرجت في الصباح أبيضاً والشمس لم تطلع  
 من وراء جبل صينين بعد. قبل عشر سنوات، قبل 11 سنة، قبل  
 12 سنة. التراب يتساقط على رأسي. مكتوب لي في اللوح  
 المحفوظ أنني أطمر حياً حياً بلا جرم في هذه الأرض الغريبة؟

أين العدل؟ كيف يصنع الرب بي هذا؟ وهيلانة؟ والصغيرة كم  
 كبرت وأنا لا أراها ولا أسمع صوتها؟ النار والدخان. الضجة  
 وراء الحيطان. الزعيق فوقى وتحتي. لم أكن متأكداً من قبل والآن  
 أعرف: هناك محابيس تحتي أيضاً، طبقة أخرى تحت.

عقلي مقسوم نصفين. نصف مذعور يرى في الظلام الأيدي  
 والأقدام تحاول عبثاً أن تتخلص من القيود، ونصف ساكن لا يهتم  
 ويشرد إلى البعيد: إذا كانت هذه ساعتني الأخيرة فأنا اطلب أن  
 أرى أمامي الوجوه القديمة التي أحبها لا هذه الوجوه. رموني هنا  
 قبل سبعة شهور وطوال هذه الفترة لم أصادق أحداً من المحابيس.  
 قيّدوني إلى وتد يفتنه الصدأ في الزاوية الفارغة حيث تنحدر  
 الأرض ويتجمع الماء عند تساقط المطر. «لن تعطش»، قال  
 الحارس الأحمر الشعر وهو يتسهم ويخرج بينما المفاتيح الكثيرة

أختنق. المفاتيح تطرطن، رائحتها قوية، وعلى ثياب الرجل أشم رائحة الخارج. يشدني أحدهم وأسقط. أعرف أنني ميت. حتى أسناني وقعت من لثتي المريضة. رأسي تراعى، مال عن رقبتني. ماء آسن ولج أنفي وعيني. في ثياب الرجل الذي فتح الباب رائحة خبز وسكر وتفتح. أبلغ دمي وأرفع وجهي. رائحة التفاح تمنحني هذا. بلا أمل أفتح فمي وأقول: أنا هنا يعقوب.»

### (الهروب من الجبل الأسود)

صباح نسوة وزعيق أطفال. تأججت النار بهبوب الريح وانتشرت في أنحاء السوق المسقوف بالخشب. الجنود الأهالي كافحوها بدلاء الماء ورفوش التراب حتى دنت من مخزن العسكر الجديد. هربوا يتدافعون وطاروا بانفجار البارود. رأوا دخاناً كثيفاً ولهباً أزرق وعدداً لا يحصى من الموتى خارجين من تحت الأرض بثياب مهلهلة وعيون غائرة وسلاسل حديد. كانوا بشرأ أحياء. قبل هذه اللحظة لم ينتهبوا لهم لأنهم في السجن. ثيران هاربة بأذيال مشتعلة ارتطمت بمحاييس أعمامهم ضوء الشمس. داستهم بحوافر مذعورة. هنا يعقوب الذي يسند فمه النازف بيده أنقذه زقاق أبصره في منامه. جرّ ساقاً كسيحة. رأى بوابة القلعة مشرعة. اندفع بين أشباح في دخان كثيف أسود وخرج صارخاً الى الثور. سمع رصاصاً يطارده ولم يتوقف.



بدا صراخه أبدأياً. حتى بعد أن كَفَّ عن الصراخ ووقف يتأكد

أنه لم يحترق ولم يُجرح بالرصاص، ظلّ الصراخ يدوي في رأسه. استدار غائم البصر. شاهد القلعة السوداء ومثلثتها السامقة تلتف بالدخان الأسود كأنها تتحجب. كانوا يخرجون منها في زعيق مرعب يهزّ الأرض. رأى كتلة سوداء وثاراً ومن بطن الدخان انبثت أبقار وناس يركضون ويصبحون بلا توقف. أزر الرصاص في الفضاء. طقّ الخردق على حجارة. «اركض يا حنا!» لهت راكضاً أبعد فأبعد. ضباب أحمر اكتسح وجهه لكنه لم يتوقف. بصق دماً وقفز في حقول محروثة موحلة. الريح شديدة في عينيه لكن رعب الرجوع الى السجن أشدّ. «تتذكر حين نظرت البنا مربوطين في الميناء ولم تهرب؟» اندفع ممزق الأعضاء هارياً من حبس لا يخرج الواحد منه حتى يخنق أو يُخنق. لم يتجمّد بالرعب هذه المرة. رأى فلاحين يركضون في الاتجاه المعاكس وابتعد من طريقهم. لم يردّ على سؤال يتيم مكرّر. لكنه أشار بيده الى الورا، صوب الدخان، صوب الصراخ، صوب القلعة التي يهرب منها. قفز أعلى واندفع الى أمام كأن ساقه الكسيحة استقامت من جديد وأخذت تركض وحدها وتحمله كما يحمل الجناح طائراً. لم يتوقف. جسمه ارتدى تحت أشجار غريبة تشبه الغيوم أكثر مما تشبه شجراً. هدر الدم. أعماء. رتته المتضخمة نزت وهي تبثلع كميات الهواء الأخضر المفاجئة. بصق ورأى قلبه ينتفض على عشب أصفر. كتلة حمراء خائفة في ضوء المساء.

«اركض!»

قام وركض. جاوز طريقاً تسلكها العجلة. مرّ خارج قرية تفوح منها روائح العشاء وظلّ يركض. توقف في الليل يلتقط أنفاسه. الدبابيس الحارقة في خاصرته أفقدته الوعي وهو ينحني

أطلّ وجه حنطي أسود الشعر والعينين، طفولي يشبه حنا يعقوب كما كان قبل ثلاثين سنة. بان أقصر من العصا التي يحملها. الخراف القليلة تحلقت حوله بلا كلب حراسة. نظر إلى الفقير المقرص في الأسفل وانتبه أن فمه متورم وأن الدم يلطخ قدميه من المشي على الشوك. الراعي الصغير لم يخف من الفقير الدرويش. عرف أنه سقط وأذى نفسه في البرية. انحدر على العشب كأنه يسبح على غمامة. قرص غير بعيد من الفقير وحيّاه. أنزل جراباً عن ظهره. أخرج منه خبزاً طرياً وجبناً وزيتوناً أسود. مَدّ يده بالأكل إلى الدرويش المذبول. «خذ!» العينان المقدونيتان نظرتا إليه بمودة حقيقية. حنا يعقوب مَدّ يداً سوداء تشبه مخلباً محروقاً وأخذ الخيزة وقطعة الجبن وحبّات الزيتون المملح. كانت أشياء من عالم بعيد، غير موجود، خيالي. وجدها فجأة بين يديه وظلّ حتى وهو يبيلعها لا يصدق أن هذا ممكن الحدوث. لا يصدّق أن الجنة يمكن أن تكون قريبة إلى هذا الحد من جهنم. رائحة جبن الغنم القويّة غلقت رائحة الدخان في جلده. مضغ الزيتون الأسود والخبز الطري ونظر إلى الصبي وقال لنفسه هكذا بربرة الآن لكن شعرها أطول وربما قامتها أطول أيضاً. تكلم الراعي الصغير بالمقدونية وكلّما لاحظ في حديثه أن الفقير الساكت لا يفهم ما يقول لجأ إلى حفنة كلمات بوسنية وتركية يعرفها. الفقير هزّ رأسه وأصغى إليه. رأى بربرة بين الخراف. انتبهت إليه وتركت يدها على ظهر الخروف: «أنت أي؟» لم يعرف ماذا يجيب وتماسك لثلا ينفجر بالبكاء أمام الراعي. كان واقفاً يدلّه إلى تلة

ويلهث. سقط محطماً. حين قال الصوت «اركض» لم يرد. استيقظ في ظلمة دامية. شمّ رائحة الأعشاب وتأكّد أنه ليس حلاماً. تلمّس ساقه ولم يجد سلسلة. كتّم صيحته بيده. كان يرتعش وخاف أن يفقد الوعي مرة أخرى. «أنجو؟» تحرّك مستعبناً بضوء بعيد يتلامح ثم يخفتي. قبيل الفجر تباعدت الغيوم ولمع كوكب الزهرة. ديدان بلون الدم سبحت في عينيه. انتبه أنه يهذي ويأمر نفسه بالركض. نسمة هواء مياغثة جلّدت العرق الغزير على ظهره. اندفع مترنحاً كأنه تُسَعّ بسياط. لم يقع لكنه تكوّم على الأرض وقبض حفنة تراب ومسح رقبته. مع شعاع الشمس الأول ارتجف كطفل يخرج من رحم أمه. أراد أن يصيح ومرة أخرى سدّ فمه بيده. بانت مدينة في البعيد، غائمة رمادية، ترتفع فوق بيوتها شوكة مثلثة من المآذن. ابتهج كأنه ينظر إلى مدينته، كأن الربّ حمل بيروت إلى هنا من وراء البحر كي يُفضّر عليه المسافة. «جامع السراي والجامع العمري وجامع النوفرة.» بلغ ساقية ماء فجأة. أو شك وهو مندفع في الضباب أن يسقط فيها. كانت تجري بلا صوت في سهل أصفر. ركع وشرب وغسل رأسه. مسح جروحه. حرارة جسمه خدّرت. لم يشعر بألم فكه المخلوع ولا بزعيق عضلات ظهره. تلمّس سيقان الستايل. عثر على حبّات منسبة. دقّها بين حجرين ومضغها مع الماء. «نلتقي يا نعمان؟» ركض حتى رأى خرافاً تطلّ من وراء تلة. كانت ساكنة سمينة ذهبية الصوف. لمحتة وارتفع ثغاؤها. أوقف الخوف الرجل الهارب من الحبس.

وقفز الى الأرض. «خذوا» ركض الى صخور تبعد أمتاراً واختفت ذراعه في تجويف ثم خرجت طويلة. كان عابساً كما يعبس الصغار وهو يهزّ العصا التي أخرجها من بين الصخور. قاسها وهو يمدّها جنب عصاه في ظلّ الشجرة. بدا في حيرة. ثم حسم رأيه وأعطاها للدرويش مع أنها أطول وأمتن وأجمل من عصاه. تناولها حنا ورأى أنها قديمة ملساء، محمّرة الخشب ثمينة. ردّها الى الراعي. «لك، لك، خذها معك الى مكة.» ففز الى خلف واضعاً مسافة بينه وبين العصا التي أعطاهها للدرويش سليمان. مشى الى الجرة وحملها للفقير كي يشرب. تأمل الجلد المدبوغ الذي لهُ وأدفاه. لمعت عيناه الواسعتان سروراً. حنا يعقوب سار يجرّ ساقه مع الراعي المقدوني. الخراف تتبعتهما حتى بلغا طريق قدم ظاهرة تتحدّر بين الحقول. نظر حنا يعقوب الى المدينة المثلة المآذن في نهاية الطريق ثم وضع يده على رأس الصغير. تأكّد أنه حقيقي. شفته للعبة من دون أن يعلم. مشى مبتعداً راجف الصدر يستند الى العصا ويشدّ الجلد على كتفيه. «واذا رأيت جدي أحمد في مكة قلّ له عني وأخبره أنني اشتقت اليه وقلّ له أنا الذي أعطيتك العصا.»

### (قائلة الحجّ)

أعوام اليكّم فنّنت كلامه. جلس في الميدان وسط عددٍ غير من حجّاج يتكلمون لغات كثيرة. تلقى خبزاً من قفّة الخبز وتمراً من سلّة التمر. إسمه «سليمان». ذاهب الى «مكة». لم يكن بحاجة

جرداء ويخبره أن بيته في ذلك الاتجاه وغير بعيد. «جدي إسمه أحمد مثلي. وأبي اسمه حسن. وأمي تقول إنني أشبه جدي. هو أيضاً ذهب مع الحجّاج الى مكة منذ ثلاث سنوات كما أنت ذاهب.» حنا يعقوب هزّ رأسه وهو ييلع اللقمة التي لم يلق أطيب منها في حياته. الراعي دلّ الى المدينة المثلة المآذن وقال إن موكب الحجّ يتجمع منذ أيام لكنهم ما زالوا ينتظرون أبناء سرايفو. حنا هزّ رأسه ومسح فمه. ألم فكّه لم يقتله وهو يملك الطعام ويبيع. «أنت أنتيت ماشياً من البوسنة؟» هزّ حنا الفقير رأسه. «وحافياً؟» تماسك حنا وظلّ ينظر الى بربارة تتحرك بين الخراف خفيفة كلفاح الزهور. «جدي قال لي ان الدراويش الذين يسرون الى مكة حفاة يسكنون جنب بيت الرسول في الجتّة.» هزّ حنا يعقوب رأسه. سأله الراعي المقدوني عن إسمه. «سليمان.» كانت الكلمة الوحيدة التي لفظها. سكت بعدها وترك الراعي يحكي عن جده وأبيه الذي يخدم في عسكر السلطان. «جدي قال كلما كان بيت الفقير أبعد من مكة ورحلته أطول وأصعب كلما كان بيته في الجتّة أقرب الى بيت الرسول.» افترق خروف عن اليقية. الراعي النطق حجراً عن الأرض ورماء أبعد منه قصداً. طلق الحجر على صخرة. تراجع الخروف الصغير وهو يشغو خوفاً وعاد الى المجموعة. هبّت الريح وتحرك العشب. ماج صوف الخراف. «أنت بردان!» حنا هزّ رأسه وجمّد فمه كي يمنع اصطكاك أسنانه. «تعال!» ففز الراعي متسلفاً التلّ لكن الفقير بدا متردداً. أطلّ حنا بعينيه يمحّص الأرض وراء التلّ. رأى شجرة ولم يرّ ناساً ولا بيوتاً. سار خلف الراعي حتى شجرته التي ترك تحتها جرة ماء. كان سريع الحركة وارتقى الأغصان وجذب من مخبأ جلدأ مدبوغاً

هذه المرة لم يجرف ثلجاً ولم يحفر أفنية ولا قبوراً. سار  
 معتمداً على عصاه متجنباً جرّ قدمه. حين بدأ يتعب ويتعس ويمسح  
 عرقاً عن وجهه امتدت أيدي الحجاج ورفعته مثل دمية خفيفة الى  
 عربة ديليجانس بستة أحصنة. أقعدوه كأنه ولد على الدكة الخشب.  
 ترنح ناعساً بين أجسام كثيرة ساهرة لكنه لم يسقط. نام هكذا بينما  
 القافلة تمتد في الليل وسط قرع الأجراس الصغيرة التي تزيين  
 الحمير وتجلجل كلما زادت سرعتها. فتح عينه لحظة ولمح جملاً  
 سريعاً تغفيه أقمشة مزركشة وجلود ثمينة. خفت راية صفراء فوق  
 هودج مكسو بالمخمل الأخضر. حملة القناديل تراكضوا  
 كالملائكة. تضوعت رائحة الزيت والمسك والعنبر. كان شبه نائم  
 لكن بهجتهم ظلت تبلغ أعماقه بينما يتبادلون قصصاً سعداء بالرحلة  
 الى مكة. ناولته يد بيضاء خيزة مغمّسة بدبس. مضغها وترك السكر  
 يدوب في حلقه. أصوات كثيرة وشيخ من أرضروم يخبرهم عن  
 السماء والأرض ويرص حديثه بآيات قرآنية. تذكر حنا نفسه أمام  
 الجامع العمري في بيروت، ولداً صغيراً يتدرب على مهنة العطار.  
 رأى جسمه الضئيل متحركاً بين سلال التوابل. «أنا كنت ذلك  
 الولد؟» تاه في العتمة لكن الشيخ بدأ أقرب صوتاً الآن كأنه نقل  
 مقعده في العربة. «كُتِبَ عليكم الحجّ. وفي سورة آل عمران: ولله  
 على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً. وفي سورة الحجّ:  
 وأذن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل  
 فج عميق. هذا كلام الله للنبيّ إبراهيم عليه السلام بعد أن أكمل  
 عمارة البيت العتيق. حجر على حجر بلا طين. سُمي الكعبة لأنه  
 بسيط كامل مكعب الشكل. شماله بنى عريشاً متحنياً زوراً للغنم.  
 زوجته عطشت قبل سنوات مع طفلها. خرج لها ماء نقي يجري

الى أكثر من كلمتين كي يأكل على نفقة السلطان ويحظى بصحبة  
 حجاج بيت الله الحرام وينام دافئاً في المخانات العثمانية المتباعدة  
 على الطريق الطويلة من هذه المدينة المثلثة المآذن الى صوفيا الى  
 بلوفداف الى أدنة الى أسطنبول الى دمشق. «ومن هناك فشخة الى  
 جبلكم.» ملتفاً بالجلد المدبوغ الذي رده إنساناً، قابضاً على عصا  
 ملأته قوّة، نظر الى أحد المغارين مرفصاً جنب بغلة بيضاء يرسم  
 على التراب طريق القافلة. قال المغار «دمشق» فوجد حنا نفسه  
 على ضفة نهر إشكار ينظر الى جندي حموي يحفظ الدرب ذاتها.  
 قضى الليل نائماً في الميدان أمام الجامع بين الحجاج الآخرين.  
 أشعلوا لهم ناراً لثلا يبردوا. ظلّ يجرف داخل جلده. لم يكن  
 برداً. غفا قبل أذان الفجر ثم قام معهم. توشأوا للصلاة. فلذمهم.  
 صلّى مع الجماعة صلاة المسلمين. بينما يسجد تحت قناطر  
 الجامع شعر أنه المسلم الفقير سليمان. مع أنه بائع البيض  
 المسيحي حنا يعقوب من بيروت الذي بيته على حائط كنيسة مار  
 الياس الكاثوليك. «أعرف من تكون. قدحت طيلة أذني وأنت  
 تصيح في العيناء.» وجد قاسم جنبه. لمح وجهه كما كان قبل  
 النزول في حبس الهرسك، قبل أن يطعموه سنة كاملة في تلك  
 «البئر». ركب حنا مغمض العينين. أصغى الى تلاوة الشيخ من  
 سورة البقرة. الكلمات العربية نزلت سلاماً في صدره. بينما يخرج  
 أمسك به أحدهم وأعطاه مداساً بتعل خشب. قبل أن يشكر الرجل  
 حملته تيار الخارجين من الجامع الى بسطة القهوة والكعك  
 والسحلب. انتعل المداس. طالت قامته. شرب حليباً ساخناً  
 وبكى. رأى نفسه يدخل بيته من جديد.

على الرمل. هذا بئر زمزم وبه تُفصل أرض الكعبة. هل ترون الغبار الأبيض بين الكواكب، هذا الدرب الذي سلكه الكيش السماوي حين افتدى به الله ابن النبي إبراهيم. لم تذبح السكين رقية ولده مع أنه انبطح ووضع خده على التراب راضياً. قال اربط يدي يا أبي ولا تنظر الى وجهي لئلا تشفق عليّ وتعجز عن ذبحي. مَرَّ النبي بالسكين الحادة على الرقية، لكنها بمشية الله لم تنحر. نزل من السماء حروف أبيض الصوف رعى عشب الجنة. حين ذبحه سيدنا ابراهيم وهو يقول اللهم تقبل منا، شَمَّ رائحة الجنة. صاحت لقاتق طائرة في الليل. هواء الحقول ملا صدر حنا. خفت ضجة القافلة. كانوا ينعسون ويتغطون للنوم. العربة لم تتوقف. ركضت أشجار شوح عن الجهتين. بانت بركة زرقاء مستتة الصخور رأها من قبل. ظهر صفّ أليف من التتوب. لكنه لم يرَ جيشاً تندلى من مشائق بدم يتجمد في لحاها وألسنة مخضرة كالسحالي. «هذه الطريق ذاتها التي سلكناها قبل سنوات الى صوفيا؟» رأى النجوم تريق وتضيء سلسلة الجبال. لم يُصدق. «أنا خارج الحبس؟ أنا ذاهب الى البيت؟» ظلّ ينام هنيهات قصيرة ثم يوقظ نفسه متمسكاً بعصاه. خاف اذا طال نومه أن يستيقظ ويجد نفسه ما زال مربوطاً في القبو تحت الأرض.

### (البيت القديم)

ترجلوا من العربات في المرتفعات. خفقوا حملاتها. لهت الأحصنة. كانت الثلوج تدوب عن القمم والبساتين تزهق. ألوان

متهدماً ويعر الغنم يغطي أرضه المتشققة. لم يجد أثراً للحديقة بسورها الخشب والبركة الحجرية الصغيرة التي بنوها للوثة البيضاء. حتى قش السقف أكلته الأغنام. رأى بيتاً محروقة عند طرف القرية وفرغ من اللون الأسود. ظهر أولاد من بين البيوت الباقية يرفعون أرانب رمادية من أفانها. وقفوا باسمين مفتوحين الأفواه يراقبون القافلة. عيون الأرانب الصفراء تأملت حنا وهو يكي بلا صوت.

### (ادرفة)

أمطار خفيفة سقطت عليهم حين خرجوا من مدينة بلوفداف. ابتلت لحية حنا بالماء كما ابتلت شعر رأسه. أعطوه عمامة. صحت السماء وفرغ الهواء بأشعة الشمس. أزد النمل الطيَّار هارباً من الحوافر. الأشجار قطرت ماء يشبه الجواهر. نزل من العربة ومشي مسروراً بزوال الألم من ساقه. أجراس الحمير جاويها جرس كراز من تلال تتحرك مع قطيع غنم. نظر إلى الطريق الرومانية المستقيمة، نظر إلى القافلة التي تحمله كما يحمل النهر قطرة ماء، وصلَّى أن يسهله الربِّ وألا يقبض روحه قبل أن يرى هيلانة وريبارة.

ناموا ليلة في خان أكمكجي زادة أخبره عنه الحاج مصطفى مراد قبل سنوات بعيدة في حبس الهرسك. صلَّوا في جامع السليمية، أجمل جامع في العالم. تأملوا القَبَّ العجيبة التي

الغيوم دامية الظلام أبصر ناراً بعيدة تتأجج بين تلال. ذات ظهيرة غفلت أسراب البجع وجه الشمس. في قرية محاطة بالصفصاف النهري أكل خبزاً ولبناً طازجاً ونام أجمل نومة منذ سنوات. حين بلغوا قشلاق صوفيا نظر إلى النوافذ حمراء في نور الغروب وبكى بلا انتباه. لم يجد الفرن القديم جنب الجامع. في مكانه رأى عمارة بلا باب تدبير ظهرها للطريق. «خذوا اشربْ شربة ماء يا حاج!» تناول الأبريق من السَّقاء وشرب وبلغ الماء الحلو مع ملح دموعه. «مثل قشلاق بيروت!» سمع صوت قاسم في رأسه. كان بعيداً كأنه يسافر أبدياً هذه المرة بلا عودة. «أين أنت يا قاسم؟» لم يسمع جواباً لكنه رأى حتجأجاً جديداً يلتحفون بالقافلة. أبصر سوفاً طوال القامة يلتحفون بملاحف صفراء يخرجون من الثكنات ويتسلقون بلا جهد عربة ديليجانس. اهتزت العربة وأبطأت سيرها. أوشكت أن تزحف بيطنها على الأرض. كانوا يحملون أمتعة ثقيلة ورأى أحدهم يتأبط لباس الإحرام القطني الأبيض. كانوا يتحزمون بزنانير زرقاء وحين أنها ترتيب أغراضهم في العربة أدخلوا الزنانير وناموا. حنا لم يتم رمشة عين. حدَّق إلى خان يعرفه ورأى أن الأتنية جنب طريقه طافحة بالماء لكنها غير مسدودة. ضوء المصابيح برق كالنجوم في المياه. في صباح غائم توقفوا وتلقوا من فلاحين وفلاحات سلالاً مملوءة بيضاً مسلوقاً وتيناً يابساً وخبز شعير. رأى قرى بعيدة واطنة لم يرها من قبل لأنه كان يسير على قدميه. كانت بيضاء الحيطان مسقوفة قرميداً أحمر. واقفاً في العربة العالية تأمل أشجاراً جلس في ظلها قبل سنوات وأكل مع الدروز خبزاً وثوماً. قلبه نبض مجنوناً في صدره بينما يدنو من البيت القديم. لم يجد أثراً لنعمان. كان البيت



رفعها المهندس ستان باشا قبل قرون ولم يفهموا كيف تبقى معلقة هكذا بين المآذن الأربع الثلاثية الشرفات والطبقات. حنا سار في الجهة الأخرى من الطريق يراقب القصور والوجوه ولا يعثر على الحاج مصطفى. لم يجرؤ أن يسأل أحداً عنه. «وإذا رأيته؟» صلوا في الجامع الكبير القديم ودلهم الشيخ الى حجر فوق شباك عن يمين المنبر وقال هذا الحجر مجلوب من الكعبة. لمسوا الحجر تبركاً والشيخ أخبرهم ان دراويش أدنة يزعمون ان جامعها يقع كبيت رمل إذا أزيل من الشباك هذا الحجر. أكلوا حلوى يستونها كليجا معمولة من عجين وسمن وسكر. شاهدوا فقراء المولوية ينشدون ويرقصون قبل أن ينضموا الى موكب الحج. صار عدد الحجاج أضعاف ما كان عليه عند الخروج من المدينة التي دلّه اليها قبل أسابيع الراعي المقدوني الصغير أحمد. توقفوا عند معصرة في الهواء الطلق. شاهدوا حزاماً من قصب السكر وقدوراً ضخمة تغلي على النار وفقراء يذنون منها بلا معترض واحد تلو آخر ويقسمون في القدر خبزة ساخنة ثم يخرجونها مشبعة بالقطر. حنا سمع أنين عجوز ألباني ينام النهار والليل في العربة التي يركبها. كان مريضاً. ترك زوجته وأولاده كي يطوف البيت العتيق قبل أن يموت. أثناء الليل يوقظه كبهده. اعتاد أن ينظر باسمأ الى المخلوق الملتف بجلد مدبوغ والذي يستونه الحاج سليمان. نادراً ما تكلم هذا الرجل الذي يقبض بأصابعه المشوهة عصا حمراء صقيلة، كأنه يخفي في العصا سرّاً. العجوز المريض أحب أن يتكلم معه وأن يسأله عن أهله. لكن الحاج سليمان بدا بعيداً نائياً كأن دائرة صمت تلغّه مع جلده. قبل أن يبلغوا عاصمة السلطنة مات العجوز. شفق وهم يتوضأون لصلاة الفجر. فاضت روحه.

حفروا له قبراً جنب الطريق. غسلوه وألبسوه كفنأ لباس الإحرام الذي حمله معه من أقاصي جبال ألبانيا. صلوا عليه مصطفىين كالجنود. كانوا جيشاً بلا بواريد. في البعيد البعيد بانت أسراب حمام تحوم فوق أسطنبول اللامرئية. أرقده في القبر على جنبه باسم المحيا ظاهر العظم. أداروا وجهه الى مكة. طمروه بلا حزن. بدوا في نور الصباح خالدين.

### (مراكب البوسفور وحكاية المحكم)

قلاع اسطنبول أطلقت مدافعها احتفالاً بوصول موكب الحجيج البلقاني. ارتعش قلب حنا في قفصه الصدري. دوي المدافع حرّك أصابعه كالمنكبات على فخذيه. لمس جرحاً قديماً لم تضربه الفرغرينا في قيو بلغراد. خرج من رأسه أعمى يتشمّ ملح الهواء وطرويق بعضا على عجلة العربة كأنه يزيحها من دريه. كان حقيقياً. تأكد حين سمعه يتكلم مع الحجاج. «هذا ليس الشيخ حمد». داخوا بين المراكب والبواخر. شاهدوا سفناً محملة بالقر والخيل والغنم. عجزوا عن احصاء القوارب. كانت المدينة مقطوعة بالبحر العظيم نصفين وسمعوا نداءات الباعة من الجهة الأخرى. استقلوا عيارات. قطعوا البوسفور من الجانب الأوروبي الى الجانب الآسيوي. على وجه الماء تطايرت النوارس مطلقاً صيحاتها. ارتطمت باخرة بحافة حجرية. اهتزوا كأن الأرض زلزلت. تيار من الحمائل أغرقهم في زعيق متشابك. رايات لا تحصى ومآذن تسقف المدينة. نظروا الى أبراج الحجر القائم

وانتهبوا الى ضاكة أحجامهم. توغلو مذهبولين في أزقة متاعة مسقوفة. شعروا يبعدهم مخضوضة. روائح وأصوات ألوان. خرجوا من الدؤامة العجيبة الى ميدان تطفوه أشجار لم يروا مثلها من قبل. الجوامع الرخام والقصور المرمر عقدت ألتستهم. حط عليهم الطير ناظرين الى عمارات خشبية مزخرقة لا أحد يعلم الجهد والوقت والفن الذي بُذل كي تخرج على هذه الصورة. شرفات ومصاطب تعلقت مسحورة فوق المياه. اكتظت برجال يشربون قهوة ويدخنون أراجيل ويأكلون حلوى، لكنها لم تسقط. طقطق خشبها تحت دعساتهم الخائفة من دون أن يتكسر. اجتازوا أقواساً مزينة. رشقوهم بالرز. ضحكوا والتفتوا الحيات من أرض العرية. أطلت عليهم عيون جميلة من مشربيات ونوافذ. كانت الزحمة شديدة لا تصدق ولم يفهموا كيف يقدر أهل اسطنبول أن يتنفسوا في هذه الشوارع المحشوة أجناساً ووجوهاً والسنة. مسلمون وأرمن ويهود ونصاري، تجار من البلقان واليونان والفوقاز والقرم والعراق والشام وبيت المقدس والاسكندرية، دكاكين فوق دكاكين ودروب شيقة مبلطة تنحدر حتى الماء بهريات خاصة مكبوسة ثقيلة تكتر وتقفز الى معديات خشب تنزلق سريعة وبطيئة حتى تبلغ الجانب الآخر. صعقهم الأذان. كان هديرأ هاجماً من الجهات كلها. في داخل الهدير ميّزوا صوتاً مفرداً منغوماً وتعلقوا به حتى دمعت عيونهم. نزلوا في خان رسمت باشا. وصلوا في وقت الأكل ورائحة الباذنجان المقلبي تغمر الباحة. غمّسوا الخبز في الصلصة الحارة وأكلوا. جلبوا لهم كاسات ماء ورد. تحلّوا براحة الحلقوم المشهورة. حين خرجوا من اسطنبول بعد أباهم وعلى رأسهم أمير الركب رفعت باشا انتهبوا ان الموكب

الاسطيولي طغى بتياره العظيم على موكبهم البلقاني. صاروا ألقاً. جزء من الموكب البلقاني انفصل عن القافلة البرية وركب بواخر شركة المساجيري مكملاً الرحلة بالبحر الى جدة. معهم ثمن الناولون. «حنا الذي يسّمونه الحاج سليمان مشى جنب المتّار اليوسني ساكناً يصغي الى حديثه. «لا أحب ركوب البحر. وحميري مثلي». ضحك وهو يشدّ الحبل لأن حميره المثقلة بالأحمال أخذت تتأخر عن القافلة. «المشكلة في رفعت باشا لا في الحمير. يريدنا أن نركض ركضاً. عنده زوجة وأولاد في حلب. اشتاق لهم». قطعوا هضبة الأناضول من الغرب الى الشرق. كانت جداول جديدة تنضم الى الموكب كلّما عبر قرية أو مدينة. حجاج بورصة جاؤوا محملين ببضائع يبيعونها في مكة. حجاج قيصرية أחרّوا الموكب: أولموا للحجاج وأجبروهم على النزول ليثنين في خان مصطفى باشا. كانوا يتظنون بضاعة متأخرة آتية من الجبال، جرار زيت وأحمال صابون اعتادوا بيعها في مكة. جلبوا أيضاً أكياس خيش مملوءة سكرأ وحنطة وملح، مونة للطريق، عارفين أنهم سيرجعون وهي مملوءة مسكاً وأعواد قرفة وتوابل من بلاد الهند يجلبها الى مكة حجاج تلك البلاد القصية. التجار المختصون بالتمور تكتلوا يتبادلون الأخبار ويسألون عن المواسم في أماكن مختلفة. «خالتي كان تاجر جوز ولوز وصنوبر. هو ريتاني أنا وأخوتي العشرة لأن أبي تركنا ونحن صغار مع أمي. أولاد خالتي ماتوا بالطاعون وهو مسافر. زوجته لم تمت مطعونة لكنها نزلت الى النهر بلا جرّة وبلا غسيل وغرقت. صرنا نحن أولاده. كان يفحص مداساتنا في الصباح خوفاً علينا من العقارب. انتبه لأمي وعزّها وكزّمها. لكننا كنا ساعة نقعد كي

رقيبته وغسل لحيته وجلس على درجة حجرية مبرية. كان بعيداً من مكان الحركة. راقب العالم وسمع اللغة الأليفة تسبح صوته كي يسمعها. لم يبك لأن دموعه جفت على الطريق من آخر الأرض الى هنا. نظر الى العصا الحمراء الصقبلة وشتم رائحة يديه فيها. «لك، لك، خذها معك الى مكة». رأى دخاناً كثيفاً في باب المطبخ وسمع صياحاً. أولاد تراكفوا خارجين يضحكون ويرمون في الهواء بصلاً. «اركض يا حنا!» اهتز قاعداً على الدرج وتبلل بالعرق داخل جلده. نظر الى مداس مشى عليه من نهاية العالم. طرد من فكره القلعة السوداء والجبل الأسود. قام كي ينضم الى الجماعة خائفاً من القعود وحده.

### (افتراق)

بعد البادية وكتابان الرمل أطلت مدينة سابعة في الخضرة. رائحة البساتين جعلت الحمير تركض ركضاً. جذبها الماء كأنه يشدّها بسلسلة حديد. «دمشق! الغوطة! الممش!» وزعومهم على خمسة خانانات. لم يجدوا مكاناً للجميع لأن المدينة امتلأت بحجاج العراق وأذربيجان والقوقاز والساحل الممتد من طرابلس الشام الى صحراء غزة. البلقانيون صلّوا في الجامع الأموي ثم اتخذوا الميدان خاناً. في الليل أشعلوا ناراً وسهروا. كانوا سعداء ببلوغ هذه النقطة سعادة منعت عنهم النوم. تحلقوا متعبي الأجسام وأصغوا الى الحكواتي من دون أن يفهموا جميع كلماته. كانت الإبل هاجعة مثل جبال نائمة وبين حين وآخر تفتح

تأكل معه تعرف أنه يفكر في زوجته وأولاده. مات قبل سنوات مئة ربنا وهو يشرب قهوة الصباح. أتذكر وجهه ونظرته حين تصل الى الدكان حمولة ينتظرها، أو حين يرجع من السوق بعد صلاة العشاء ويجد أننا ننتظره ولم نأكل بعد. فبك شبه منه يا حاج سليمان.»

### (بلاد الشام)

تغيّرت الأصوات التي تُسمع من الحقول. في قرية قبل حلب وجدوا الطريق منهارة. العمال أصلحوها في ساعتين. المكار البوسني تكلم مع البدو بالتركية والبوسنية. حفنة الكلمات العربية التي يعرفها أضحكهم. وجدوا نطقه غربياً. ضحك معهم وتعجب لرؤية صاحبه الساكت الحاج سليمان ضاحك الوجه أيضاً. من دون أن يسأله أيقن أن هذه دياره. راقبه يصفي الى المكارية العرب وشعر بحزن مباحث شديد وودّ لو يحمله الله الى البوسنة في هذه اللحظة.



حنا يعقوب ابتهج مصغياً الى النيرة الدافئة. كأنه بلغ بيروت! سمع الحكوي العربي وشعر بالصقيع يخرج من سلسلة ظهره. السنايل ماجت من أجله. زغرودت الحساسين كي يسمعها. نبحت كلاب حلب على الترك لكنها لم تنبح في وجهه. اغتسل في بركة في خان البنادقة. قبل أن تتعكر المياه أبصر وجهها مأكولاً بالشعر يتأمله مستغرباً من أعماق البركة. «أبانا الذي في السموات.» غسل

عيونها وتنخر معترضة على الضجة. أمير الحج أتى من قصره محفوظاً بعيد يوزعون البلاوة بالفستق، وألقى عليهم السلام. بانوا الآن قطعة من موكب الحج الشامي. أحد المشايخ جلس في زاوية يتلو آيات من القرآن. الحكواتي تبّد في الهواء عندئذ. باعة القهوة داروا بطرقتون بالفناجين. رقصت ألسنة النار وخفت الأشباح على الحائط. «ليتك اللهم لبيك». حنا انتظرهم حتى هجعوا. غفا ساعة واستيقظ مذعوراً في ظلمة دامية. رأى نفسه في قبو عميق مربوطاً بسلسلة الى حلقة في الأرض. جلس مرتجفاً شبه محموم. باتت مصاييح وتعرّف على الجامع الأبيض. جمع أعضاء المتناثرة ونهض مهزوز القلب. عطا فوق النيام. المكار اليوسني كان هاجعاً بين حميره يشخر مثلها كأنه يقلدها. حين انحنى كي يترك العصا جنبه شمّ رائحة الزيت الموسناري في رأسه. «لك، خلّها معك الى مكة». أجابه شخير وهمهمة خلفه. تحرك كالشبح في الميدان وجاوز بحر الأجسام خافق الرقبة. ألقى السلام همساً وبالايماء على جنود ساهرين يستدفنون بالنار ويحرسون أمتة. كانوا ناعسين حزاني الوجوه. ردوا نحته وتركوه يذهب.

### (العجوز والأحصنة)

ارتفع أذان الفجر وهو تائه في دروب دمشق لا يدري من أين يخرج. سمع حوافر تفرع زقاقاً مسبّطاً ثم رأى بغلة تخرج من الظلام. كانت بيضاء كالثلج. استوى على ظهرها شيخ طاعن في

السّن. حين تكلم ظهر من لهجته أنه من جبل حوران. يادر الغريب المرتعد داخل جلد مذبوح الى السلام، وسأله هل هو ضائع؟ كانت نظرتة زرقاء غريبة في وجهه مجعد ترايب.

«تعرف يا شيخ أين طريق بيروت؟»

«أنت من بيروت يا إني؟»

هز رأسه في عتمة تتبّد.

«ولك إسم يا إني؟»

«حنا يعقوب.»

«تعال يا حنا يعقوب. أنا أدلك.»

شدّ الشيخ الحبل شدّة خفيفة. استجابت البغلة ودارت عائدة الى ظلمة الزقاق. بلا صوت تبعه حنا حتى بلغا ساحة تتراصف فيها عربات الأحصنة. رأى رجالاً محمّلين بالسلال يركضون في شعاع الشروق. ارتعد حين سمع صرخة بائع بيض: «بيض بيض، بيض مسلوقة!» كان البائع مخفياً بالعربات الديبلجانس لكن صوته ملا الساحة. التفت الشيخ.

«من هنا تنزل العربات الى بلدك.»

«العربات تصل الى بيروت؟»

«لماذا لا تصل؟ تكّر على الطريق وقبل غروب الشمس تكون

في بلدك.»

لم يكن حنا يعلم أن درب عربات شُقت من دمشق الى بيروت

أثناء غيابه.

«معك أجرة الطريق يا إني؟»

«معي يا شيخنا.»

«وجهك لا يقول هذا. خذْ هذه القروش. أنت غريب عن دارك. وأنا غريب.»

«جئت في وقتك.» ابتسم له المكار الحمصي. كانت العربة ملانة تنتظر راكباً واحداً بعد كي يكتمل العدد. رحبوا بالرجل الأبيض اللحية وأفسحوا له مكاناً. خطا فوق سلال وأكياس متنفخة واستقر في زاوية على الدكة الخشب. كانوا شواماً وحماسنة وزحلاوية. نظر الى أولاد صغار ينعمسون شبه نيام في أحضان أمهاتهم. مع حركة العربة ناموا. حنا أيضاً نام من دون أن ينتبه. مرّ زمن قبل أن يفتح عينيه ويصرر حقولاً خضراً. لم يتذكر سهلاً قطعه في الليل في بلاد البوسنة لكن تبعاً حلّ عليه. مالت السنايل وغمرته رائحة القمح الأخضر. خدّرتة بنقلها وغفا من جديد. ترجلوا من العربة ظهراً لإراحة الخيل في محطة شتورة. شاهد شغيلة يخرجون تيناً رطباً من مخزن ويبعثونه بالمذرة تحت الشمس. رأى بسطة تبيع أطعمة مقلية وأرغفة مرقوقة على الصاج مدهونة لبنة بقر. تحت شجرة جوز تحلّق مسافرون يفتحون صرر زوادة. رأى حجاجاً ذاهبين الى دمشق. بدت وجوههم أليفة كأنه رأيهم في أسواق بيروت. مدّ يده الى قعر البئر لكنها لم تقبض على ذكرياته. تسلفوا مضيق ظهر البيدر ثم انحدروا من علو 1400 متر على طرق جبل لبنان. تعرجت الدرب كالحية بين غابات صنوبر. مسح عرفاً عن عينيه. حين ترجلوا في محطة بحمدون لاستراحة ثانية وجيزة ظلّ في مكانه. هذه المرة سقى المكار خيله من دون أن يفتكها. أسند حنا رأسه الى حافة العربة. رأى حركة غير مفهومة. سمع لهجة الجبل التي اعتاد عليها وسط دروز بلغراد.

كانوا عشرة أو أكثر يصارعون ثوراً من أجل ربطه. حيوان ضخم الجثة كبير القرنين شديد البأس أهلكهم ويذلهم بالercق ولتقّهم بالتراب قبل أن يتمكنوا منه. اقترب أحد المسافرين كي ينفرج. حدّروه: «ابتعد من درب الثور!» حين تحركت العربة لسمعه هواء بارد. «البحر!» فتح عينيه ورأهم يشيرون بالأصابع الى نقط سوداء تشياعد في سهل بعيد أبيض. «سفن. لا. بواخر. انظرُ الى الدخان.» شدّ الجلد على صدره العرقان. رأى قرية هاجعة بين تلتين متشابهتين. أخفتها الأشجار.

#### (البيت)

أحد الركاب ظلّ يُلقي حزمًا طوال الرحلة الى ناس ينتظرون مروره. ارتطم بالرجل النائم وهو يلتقط كيساً من تحت المقعد. فتح حنا عينيه ورأى جبل صين برفقياً. لم يُصدّق. وقف مستنأً الى حافة العربة ورأى مدينته في الأسفل، على بعد رمية حجر. صعقته المفاجأة. أطلّت بيروت مثلثة المآذن كما يتذكرها، مغمورة بنور الغروب، تسقفها أسراب الحمام. دارت الطيور في أفواس فرحة كأن الربّ أقام المدينة على هذا الشاطئ من أجل هذه الساعة. شعر أنه في حلم. ترجلوا من العربة في ساحة البرج عند المساء. كانوا منهكين وأحشاؤهم مقلوبة من اختفاض العجلات. انفصل عنهم كالشيخ. حيث كانت بساتين الثوب وجد عمارات حجرية وحديقة مستديرة وموقفاً للعبات الديليجانس ومتاجر بأبواب زجاج مثل السوق الجديد في صوفيا. لم يخف لأنه أبصر

أطلال السور العتيق وباب السراي . دخل من باب قديم الى مدينة قديمة . مرّ أمام جامع السراي الذي يُستى جامع عساف . كان جوفه مضاء بالقناديل الصفراء وفي مدخله تتراصف المداصات السخيتان والقباقيب الخشب . تقدم خائفاً في زقاق بلّطوه . لم يجد مصطبة الخيطاط . على درجة خارج بيت قرميد جلس صبي . انتبه الى الرجل يدنو منه .

«من يسكن هناك ، في البيت حدّ الكنيسة؟»

الصبي نقل نظرتيه من يد مقفّعة الأصابع الى بيت مضاء النافذة .

«بربرة وأم بربرة.»

●

جتمده الخوف قبل أن ينطق الصبي . «بربرة وأم بربرة.» أسرع واسع الخطى الى باب الحوش . كانت بيروت تأكل . روائع الطعام خرجت من النوافذ . سعى كالأعمى في غلط مستقيم الى بيته . «هيلانة . بربرة.» تخيّل نفسه يغتسل ويتخلص من جلده المذبوغ ويلبس قميصاً نظيفاً من قمصانه . دفع باب الحوش الذي ثبته هنا بيديه قبل 16 سنة فغمرته رائحة قديمة . سمع الدجاج في القرن يُرْتب أجنحته كي ينام . شمّ زهور الرمان . دخل بلا صوت . وجد باب البيت مشرعاً والفنديل مضاء . رأى هيلانة على العتبة تخطّط صوفاً بالصنارة ، جميلة وصغيرة كما تركها عند الفجر قبل 12 سنة خارجاً كي يبيع بيضاً في الميناء . لم يفهم كيف ظلّت صغيرة . كان الزمن توقف في البيت الصغير على حائط كنيسة مار الياس! «لكن هذا مستحيل! هذا كلّه منام؟ كابوس؟ ما زلت في الحبس!» تجمّد ميلولاً عرقاً . أبهنّ أنه عالق الى الأبد في قبو في البلقان .

انطبقت رثته مسدودة بالدم . وقع في كيس أسود وخرج النفس من فمه ولم يقدر أن يسترقه . «استموت هنا يا حنا يعقوب؟ من أجل موتك جئت من آخر الأرض؟» ارتعش ولطم الكيس بمخلبه . شخّ باب أمام عينيه . بربرة التي ظنّها هيلانة التفتت ورأت فقيراً واقفاً في جلد ماعز ، لعله يريد خبزاً ، أو بيضاً من القرن . وضعت شغل الصوف على العتبة ونادت .

«أمي!»

ظهرت هيلانة قسطنطين يعقوب من داخل البيت تحمل ثوباً . رأت رجلاً مرتعداً في عتمة المساء . سقط الثوب من يدها .

«حنا؟ هذا أنت يا حنا؟»

جلس حنا يعقوب على الأرض . «هذه هيلانة . أنا في البيت.» شعر بالأصابع على جسمه تتأكد أنه ليس شبهاً . حضن زوجته وإبنته وبكى . شهق وملا رثته بالهواء .

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)  
^RAYAHEEN^